الرحيق المختوم

تأليف

فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

دار التيسير للثقافة والنشر

Bibliotheca Alexandrina
0124396

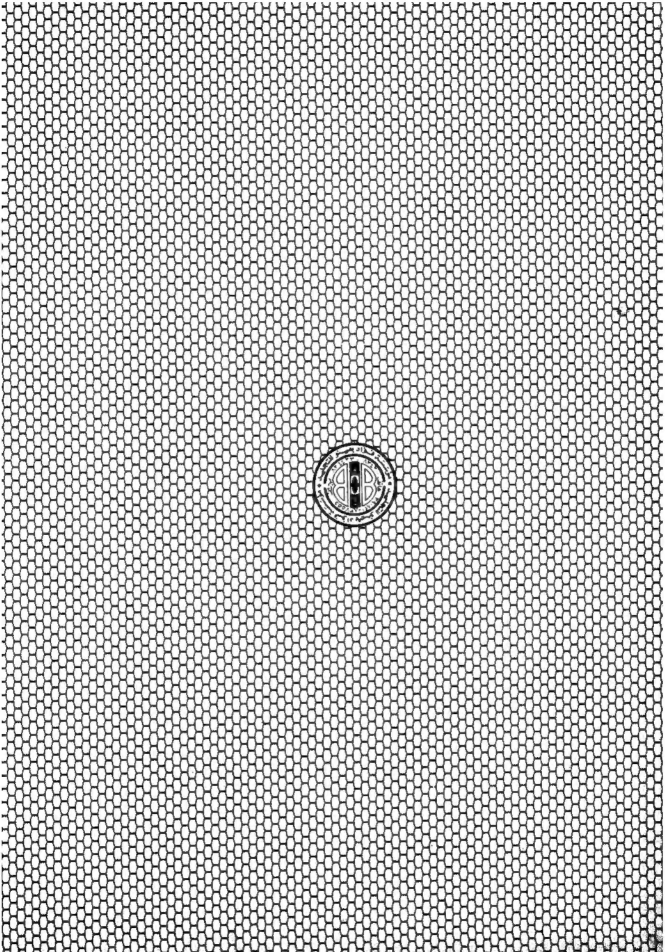

الرحيق المختوم

تأليف

فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

دار البشير للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

رقم الايداع والترقيم الدولي ١٩٩١/٥/٧٧

دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية

طنطا ٣٣ ش الشهيد عادل الزواوي- أمام كلية التربية النوعية

ت ٣٢٢٤٠٤ — فاكس ٣٣١٨٠٠

كلمة المؤلف

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وفجر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيرا .

وبعد ، فإن من دواعي الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامى أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذى انعقد فى باكستان فى شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦ هـ بإقامة مسابقة على مستوى العالم الإسلامى ، للبحث حول موضوع السيرة النبوية — على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام — تنشيطا للكاتبين ، وتنسيقا لجهودهم الفكرية ، وإنى أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لايحيط بوصفهاالبيان . فإن السيرة النبوية والأسوة المحمدية على صاحبها مايستحق من الصلاة والسلام — إذا لاحظناها بعين الدقة والاعتبار — هى المنبع الوحيد الذى تتفجر منه ينابيع حياة العالم الإسلامى وسعادة المجتمع البشرى .

وإن من سعادتى وحسن حظى أنى أساهم فى تلك المسابقة المباركة ، ولكن أين أنا حتى ألقى ضوءا على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ . وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره ، حتى لا يتهالك فى دياجير الظلمات ، بل يحيا وهو من أمته ، ويموت وهو من أمته ، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته .

وكلمة بسيطة أرى أن أقدمها عن منهجي فى مقالتي هذه : إنى قبل أن آخذ فى كتابة المقالة رأيت أن أضعها فى حجم متوسط متجنبا التطويل الممل والإيجاز المخل ، ولكنى كثيرا مارأيت فى المصادر اختلافا كبيرا فى ترتيب الوقائع ، أو فى تفصيل جزئياتها ، وفى مثل هذه المواقع قمت بالتحقيق البالغ ، وأدرت النظر فى جميع جوانب البحث . ثم أثبت فى صلب المقالة ماترجح لدى بعد التحقيق . ولكن احترزت عن إيراد الدلائل والبراهين ؛ لأن ذلك يفضى إلى طول غير مطلوب . نعم ! ربما أشرت إلى الدلائل حين خفت الاستغراب ممن يقرأ المقالة ، أو حين رأيت عامة الكاتبين ذهبوا إلى خلاف الصحيح .

اللهم قدر لى الخير فى الدنيا والآخرة ، إنك أنت الغفور الودود ذو العرش المجيد .

الجمعة المباركة ٢٤ / ٧ / ١٣٩٦ هـ
٢٣ / ٧ / ١٩٧٦ م

صفى الرحمن المباركفورى
الجامعة السلفية
بنارس الهند

مَوقِعُ العَرَبِ وَأَقوامُهَا

إن السيرة النبوية ـــ على صاحبها الصلاة والسلام ـــ عبارة فى الحقيقة عن الرسالة التى حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشرى ، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله . وإذن فلا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها . ونظرا إلى ذلك نقدم فصلا عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام ، وعن الظروف التى بعث فيها محمد ﷺ .

موقع العرب :

العرب لغة : الصحارى والقفار ، والأرض المجدبة التى لا ماء فيها ولا نبات . وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب . كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض ، واتخذوها موطنا لهم .

وجزيرة العرب يحدها غربا البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وشرقا الخليج العربى وجزء كبير من بلاد العراق الجنوبية ، وجنوبا بحر العرب الذى هو امتداد لبحر الهند ، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف فى بعض هذه الحدود ، وتقدر مساحتها مابين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع .

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي ؛ فأما باعتبار وضعها الداخلي فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنا منيعا لا يسمح للأجانب أن يحتلوها ويبسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم . ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرارا في جميع الشئون منذ أقدم العصور ، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتهما لولا هذا السد المنيع .

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم . وتلتقي بها برا وبحرا . فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة أفريقية ، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا ، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم والشرق الأوسط والأدنى . وتفضي إلى الهند والصين ، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحرا ، وترسي سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأسا .

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطا للأمم ومركزا لتبادل التجارة ، والثقافة ، والديانة ، والفنون .

أقوام العرب :

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها :

(١) **العرب البائدة** : وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم ، مثل : عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها .

(٢) **العرب العاربة** : وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان ، وتسمى بالعرب القحطانية .

(٣) **العرب المستعربة** : وهى العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بالعرب العدنانية .

أما العرب العاربة ـــ وهى شعب قحطان ـــ فمهدها بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائلها وبطونها فاشتهرت منها قبيلتان :

(أ) حمير ، وأشهر بطونها زيد الجمهور ، وقضاعة ، والسكاسك .
(ب) كهلان ، وأشهر بطونها همدان ، وأنمار ، وطيء ، ومذحج ، وكندة ، ولخم ، وجذام ، والأزد ، والأوس ، والخزرج ، وأولاد جفنة ملوك الشام .

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن ، وانتشرت فى أنحاء الجزيرة ، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم حين فشلت تجارتهم ؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية ، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام .

ولاغرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان ، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان .

ويمكن تقسم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام :

(١) **الأزد** ـــ وكانت هجرتهم على رأى سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقباء . فساروا يتنقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال . وهاك تفصيل الأماكن التى سكنوا فيها بعد الرحلة نهائيا : عطف ثعلبة بن عمرو من الأزد نحو الحجاز ، فأقام بين الثعلبية وذى قار ، ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ، فأقام بها واستوطنها . ومن أبناء ثعلبة هذا : الأوس والخزرج ، ابنا حارثة بن ثعلبة .

وانتقل منهم حارثة بن عمرو ـــ وهو خزاعة ـــ وبنوه فى ربوع الحجاز ، حتى نزلوا بمر الظهران ، ثم افتتحوا الحرم فقطنوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة .

وتزل عمران بن عمرو فى عمان ، واستوطنها هو وبنوه ، وهم أزد عمان ، وأقامت قبائل نصر بن الأزد بتهامة ، وهم أزد شنوءة .

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة . نسبة إلى ماء فى الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولا قبل تنقلهم إلى الشام .

(٢) لخم وجذام — وكان فى اللخميين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

(٣) بنوطيء — ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجا وسلمى ، وأقاموا هناك ، حتى عرف الجبلان بجبلى طيء .

(٤) كندة — نزلوا بالبحرين ، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بحضرموت ، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين ، ثم نزلوا نجد ، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها سرعان مافنيت وذهبت آثارها .

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف فى نسبتها إليه — وهى قضاعة — هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق[1] .

وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى — وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام — من بلاد العراق ، من بلدة يقال لها « أر » على الشاطيء الغربى من نهر الفرات ، بالقرب من الكوفة ، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة إبراهيم عليه السلام ، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية فى تلك البلاد[2].

---

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١١ — ١٣ وقلب جزيرة العرب ص ٢٣١ إلى ٢٣٥ — واختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً فى تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها وبعد إدراة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ماترجح عندنا فى هذا الباب من حيث الدليل .

(٢) تفهيم القرآن للسيد أبى الأعلى المودودى ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران ، ومنها إلى فلسطين ، فاتخذها قاعدة لدعوته ، وكانت له جولات فى أرجاء هذه البلاد وغيرها[1] وقدم مرة إلى مصر ، وقد حاول فرعون مصر كيدا وسوءاً بزوجته سارة ولكن الله ردّ كيده فى نحره ، وعرف فرعون مالسارة من الصلة القوية بالله ، حتى أخدمها ابنته[2] هاجر ؛ اعترافا بفضلها ، وزوجتها سارة إبراهيم[3].

ورجع إبراهيم إلى فلسطين ، ورزقه الله من هاجر إسماعيل ، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفى هاجر مع ولدها الصغير — إسماعيل — فقدم بهما إلى الحجاز ، وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم الذى لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين ، ولم تمض أيام حتى نفد الزاد والماء ، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله ، فصارت قوتا لهما وبلاغا إلى حين . والقصة معروفة بطولها [4].

وجاءت قبيلة يمانية — وهى جرهم الثانية — فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك فى الأودية التى بأطراف مكة . وقد صرحت رواية البخارى أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل ، وقبل أن يشب ، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادى قبل ذلك [5].

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته ، ولا

---

(١) نفس المصدر ١ / ١٠٨ .

(٢) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة ، ولكن حقق الكاتب الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفورى أنها كانت حرة ، وكانت ابنة فرعون . انظر رحمة للعالمين ٢ / ٣٦ — ٣٧ .

(٣) نفس المصدر ٢ / ٣٤ وانظر فى تفصيل القصة : صحيح البخارى ١ / ٤٧٤ .

(٤) انظر صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ١ / ٤٧٤ — ٤٧٥ .

(٥) نفس المصدر ١ / ٤٧٥ .

يعلم كم انت هذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية الموثوقة حققت أربعة منها .

فقد ذكر الله تعالى فى القرآن أنه أرى إبراهيم فى المنام أنه يذبح إسماعيل ، فقام بامتثال هذا الأمر ﴿فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن ياإبراهيم . قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم﴾ (١).

وقد ذكر في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة ، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحق ، لأن البشارة بإسحق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها .

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة — على الأقل — قبل أن يشب إسماعيل ، أما الرحلات الثلاث الأخر فقد رواها البخارى بطولها عن ابن عباس مرفوعا (٢) وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم ، وأنفسهم وأعجبهم زوجوه امرأة منهم ، وماتت أمه ، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا التزوج ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما ، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه ، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه ، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى ، وهى ابنة مضاض بن عمرو ، كبير جرهم وسيدهم (٣).

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا التزوج الثانى فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما فأثنت على الله ، فأوصى إلى إسماعيل أن يثبت عتبة بابه .

وجاء مرة ثالثة فلقى إسماعيل وهو يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، وكان

---

(١) الآيات ١٠٣ — ١٠٧ من سورة الصافات .

(٢) ج١ / ٤٧٥ — ٤٧٦ .

(٣) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ .

لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن ، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده ، الولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفي هذه المرة بنيا الكعبة ، ورفعا قواعدها ، وأذن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله .

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضاض اثنى عشر ولدا ذكرا[1] وهم : نابت أو نبايوط ، قيدار ، وأدبائيل ، ومبشام ، ومشماع ، ودوما ، وميشا ، وحدد ، ويتما ، ويطور ، ونفيس ، وقيدمان ، وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة ، وكانت جل معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها . ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان ، إلا أولاد نابت وقيدار .

وقد ازدهرت حضارة الأنباط في شمال الحجاز ، وكونوا حكومة قوية دان لها من بأطرافها ، واتخذوا البطراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان فقضوا عليهم ، وقد رجح السيد سليمان الندوى بعد البحث الأنيق والتحقيق الدقيق أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان ، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقاياهم في تلك الديار [2].

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها . وعدنان هو الجد الحادى والعشرون في سلسلة النسب النبوى ، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول : كذب النسابون ، فلا يتجاوزه[3]. وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان ، مضعفين للحديث المشار إليه ، وقالوا إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبا بالتحقيق الدقيق[4].

---

(١) نفس المصدر .

(٢) انظر تاريخ أرض القرآن ٢ / ٧٨ إلى ٨٦ .

(٣) انظر الطبرى ٢ / ١٩١ ــ ١٩٤ والأعلام ٥ / ٦ .

(٤) رحمة للعالمين ٢ / ٧ ، ٨ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار – قيل لم يكن لمعد ولد غيره – فكان لنزار أربعة أولاد ، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة : إياد وأنمار وربيعة ومضر ، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعة : أسد بن ربيعة ، وعنزة ، وعبد القيس ، وابنا وائل – بكر ، وتغلب – وحنيفة وغيرها .

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين : قيس عيلان بن مضر ، وبطون إلياس بن مضر . فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان ، ومن غطفان : عبس وذبيان ، وأشجع وغنى بن أعصر .

ومن إلياس بن مضر : تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة بن خزيمة ، ومن كنانة : قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى ، من أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدى ، ومخزوم ، وتيم ، وزهرة ، وبطون قصى بن كلاب ، وهى عبد الدار بن قصى ، وأسد بن عبد العزى بن قصى ، وعبد مناف بن قصى .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم وبيت هاشم هو الذى اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ (1).

قال ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » (2).

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق

(1) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤ ، ١٥ .

(2) رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع ، باب فضل نسب النبى ﷺ ٢ / ٢٤٥ والترمذى ٢ / ٢٠١ .

الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل ، فجعلنى من خير القبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا »(١).

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا فى أنحاء شتى من بلاد العرب ، متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب .

فهاجرت عبد القيس ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها .

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر ، قصبة اليمامة . وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبلة فهيت .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، ومنها بطون كانت تساكن بكرا . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة .

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة ، من وادى القرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ماينتهى إلى الحرة .

وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن فى شرقى مكة بنواحى أوطاس ، وهى على الجادة بين مكة والبصرة .

وسكنت بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة ، بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيء ، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال .

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران .

وبقى بتهامة بطون كنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا

---

(١) رواه الترمذى ، باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ ٢ / ٢٠١ .

متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم[1].

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١ / ١٥ ــ ١٦

الحكم والإمارة في العرب

حينما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام ، رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان في العرب ، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام .

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين : قسم منهم ملوك متوجون ، لكنهم كانوا في الحقيقة غير مستقلين ، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر ، لهم ما للملوك من الحكم والامتياز ، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال . وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوج ، والملوك المتوجون هم ملوك اليمن ، وملوك آل غسان ، وملوك الحيرة ، وماعدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان .

الملك باليمن :

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات « أور » بخمسة وعشرين قرنا قبل الميلاد . ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرنا قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي :

(١) القرون التي خلت قبل سنة ٦٥٠ ق . م ، وكان ملوكهم يلقبون في هذا

الزمن بـ « مكرب سبأ » وكانت عاصمتهم بلدة « صرواح » التي توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربي من بلدة « مأرب » وتعرف باسم « خربية » وفي زمنهم بدأ بناء السد الذى عرف بسد مأرب ، والذى له شأن كبير فى تاريخ اليمن ، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات فى داخل بلاد العرب وخارجها .

(٢) منذ سنة ٦٥٠ ق . م إلى سنة ١١٥ ق .م وفي هذا الزمن تركوا لقب « مكرب » وعرفوا بملوك سبأ ، واتخذوا « مأرب » عاصمة لهم بدل « صرواح » وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلا من صنعاء إلى جانبها الشرقى .

(٣) منذ سنة ١١٥ ق .م إلى سنة ٣٠٠ م ، وفي هذا العهد غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ ، واتخذت بلدة « ريدان » عاصمة لها بدل « مأرب » . ثم سميت بلدة « ريدان » باسم ظفار ، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من « يريم » وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط ، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير ؛ لبسط سيطرة الأنباط – أبناء ثابت – فى شمال الحجاز أولا ، ثم لغلبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالى الحجاز ثانيا ، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثا . وهذه العناصر هى التى سببت فى تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة .

(٤) منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام في اليمن . وفي هذا العهد توالت عليهم الاضطرابات والحوادث ، وتتابعت الانقلابات ، والحروب الأهلية التى جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم . ففى هذا العهد دخل الرومان فى عدن ، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م ، مستغلين التنافس بين قبيلتى همدان وحمير ، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م . ثم نالت اليمن استقلالها ، ولكن بدأت تقع الثلمات فى سد مأرب ، حتى وقع السيل العظيم الذى ذكره القرآن بسيل العرم فى سنة ٤٥٠ م أو ٤٥١ م . وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب .

وفى سنة ٥٢٣ م قاد ذو نواس اليهودى حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران ، وحاول صرفهم عن المسيحية قسرا . ولما أبوا خد لهم الأخدود وألقاهم فى النيران ، وهذا الذى أشار إليه القرآن فى سورة البروج بقوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ الآيات ، وكان من جراء ذلك نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أباطرة الرومان على بلاد العرب ، فقد حرضوا الأحباش ، وهيأوا لهم الأسطول البحرى ، فنزل سبعون ألف جندى من الحبشة ، واحتلوا اليمن مرة ثانية ، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥ م ، وظل أرياط حاكما من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة ـــ أحد قواد جيشه ـــ وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة ، وأبرهة هذا هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة ، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل .

وبعد وقعة الفيل استنجد اليمانيون بالفرس ، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد ، ونالوا الاستقلال فى سنة ٥٧٥ م بقيادة معد يكرب بن سيف ذى يزن الحميرى ، واتخذوه ملكا لهم ، وكان معد يكرب أبقى معه جمعا من الحبشة يخدمونه ويمشون فى ركابه ، فاغتالوه ذات يوم ، وبموته انقطع الملك عن بيت ذى يزن ، وولى كسرى عاملا فارسيا على صنعاء ، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذى اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨ م . وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن . (١)

الملك بالحيرة :

كانت الفرس تحكم على العراق وماجاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ ـــ ٥٢٩ق.م) ولم يكن أحد يناوئهم ، حتى قام الإسكندر

(١) انظر فى تفصيل ذلك : تفهيم القرآن ٤ / ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، وتاريخ أرض القرآن ج١ / من ص ١٣٣ إلى نهاية الكتاب ، وفى تعيين السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية ، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

المقدونى سنة ٣٢٦ ق.م فهزم ملكهم دارا الأول ، وكسر شوكتهم ، حتى تجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م . وفى عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون ، واحتلوا جزءا من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتى سكنوا جزءا من الجزيرة الفراتية .

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس فى عهد أردشير — مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦ م — فإنه جمع شمل الفرس ، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه ، وكان هذا سببا فى رحيل قضاعة إلى الشام ، ودان له أهل الحيرة والأنبار .

وفى عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكة ، إلا أن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم ، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان ، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس ؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية ، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م .

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة عمرو بن عدى بن لفر اللخمى ، أول ملوك اللخميين - فى عهد كسرى سابور بن أردشير — ثم لم تزل الملوك من اللخميين تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز ، وفى عهده ظهر مزدك ، وقام بالدعوة إلى الإباحية ، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته ، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة — وهو المنذر بن ماء السماء — يدعوه إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به ، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ، فعزله قباذ ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى .

وخلف قباذ كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جدا ، فقتل المزدك وكثيرا ممن دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث بن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء فى عقبه ، حتى كان النعمان بن المنذر ، وهو الذى غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى ، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه ، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانىء بن مسعود سيد آل شيبان ، فأودعه أهله وماله ، ثم توجه إلى كسرى ، فحبسه كسرى حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائى ، وأمره أن يرسل إلى هانىء بن مسعود يطلب منه تسليم ماعنده ، فأبى ذلك هانىء حمية ، وآذن الملك بالحرب ، ولم تلبث أن جاءت مرازبة كسرى وكتائبه فى موكب إياس ، وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذى قار ، وانتصر فيها بنو شيبان ، وانهزمت الفرس هزيمة منكرة . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل ، فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة علىْ الحيرة .

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكما فارسيا ، وفى سنة ٦٣٢ م عاد الملك إلى آل لخم ، فتولى منهم المنذر الملقب بالمعرور ، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين(١).

الملك بالشام :

فى العهد الذى ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة ، فاصطنعهم

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

الرومان ؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث ، وليكونوا عدة ضد الفرس ، وولوا منهم ملكا ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثانى الميلادى إلى نهايته تقريبا ، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان ، الذين غلبوا الضجاعمة على مايدهم وانتصروا عليهم ، فولتهم الروم ملوكا على عرب الشام ، وكانت قاعدتهم دومة الجندل ، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالا لملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١)

الإمارة بالحجاز :

ولى إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته (٢). وتوفى وله ١٣٧ سنة (٣). ثم ولى اثنان من أبنائه نابت ثم قيدار ، ويقال العكس ، ثم ولى أمر مكة بعدهما جدّهما مضاض بن عمرو الجرهمى ، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم ، وظلت فى أيديهم ، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم ؛ لما لأبيهم من بناء البيت ، ولم يكن لهم من الحكم شيء (٤).

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلا لا يذكر ، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر ، وأخذ نجم عدنان السياسى يتألق فى أفق سماء مكة منذ ذلك العصر ، بدليل ماجاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب فى ذات عرق ، فإن قائد العرب فى الموقعة لم يكن جرهميا (٥).

---

(١) نفس المصدر ١ / ٣٤ ، وأرض القرآن ٢ / ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ — ٢٣٧ .

(٣) سفر التكوين ٢٥ : ١٧

(٤) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ — ٢٣٧ ، وابن هشام ١ / ١١١ — ١١٣ ، وذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام .

(٥) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ .

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق.م) ، وذهب برمياه النبي بمعد إلىّ الشام ، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة ، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزارا [١].

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك ، وضاقت أحوالهم ، فظلموا الوافدين إليها ، واستحلوا مال الكعبة [٢]، الأمر الذى كان يغيظ العدنانيين ، ويثير حفيظتهم ، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران ، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك ، فقامت بمعونة من بطون عدنان — وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة — بمحاربة جرهم ، حتى أجلتهم عن مكة ، واستولت على حكمها ، فى أواسط القرن الثانى للميلاد .

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم ، ودرسوا موضعها ، ودفنوا فيها عدة أشياء ، قال ابن إسحق : فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى [٣] بغزالى الكعبة [٤]، وبحجر الركن الأسود فدفنهما فى بئر زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ، فحزنوا على مافارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا ، وفى ذلك قال عمرو :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرنا قبل الميلاد ، فتكون إقامة

---

(١) رحمة للعالمين ٢ / ٤٨ .

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣١ .

(٣) هذا غير مضاض الجرهمى الأكبر الذى مضى ذكره فى قصة إسماعيل عليه السلام .

(٤) قال المسعودى : وكانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالا فى صدر الزمان وجواهر ، وقد كان ساسان بن بابك هدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا وذهبا كثيرا فقذفه (عمرو) فى بئر زمزم أهـ انظر مروج الذهب ١ ٢٠٥ .

(٥) ابن هشام ١ / ١١٤ — ١١٥ .

جرهم فى مكة واحدا وعشرين قرنا تقريبا ، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرنا . واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بنى بكر ، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال :

الأولى : الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة ، والإجازة بهم يوم النفر من منى ، وكان يلى ذلك بنو الغوث بن مرة من بطون إلياس بن مضر ، وكانوا يسمون صوفة ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لايرمون يوم النفر حتى يرمى رجل من صوفة ، ثم إذا فرغ الناس من الرمى ، وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبى العقبة ، فلم يجز أحد حتى يمروا ، ثم يخلون سبيل الناس ، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم .

الثانية : الإفاضة من جُمَع غداة النحر إلى منى ، وكان ذلك فى بنى عدوان .

الثالثة : إنساء الأشهر الحرم . وكان ذلك إلى بنى تميم بن عدى من بنى كنانة [1].

واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة [2]. وفى وقت حكمهم انتشر العدنانيون فى نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقى بأطراف مكة بطون من قريش وهم حلول وحرم ، وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة ، وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شىء حتى جاء قصى بن كلاب [3].

ويذكر من أمر قصى أن أباه مات وهو فى حضن أمه ، ونكحت أمه رجلا من بنى عذرة ــ وهو ربيعة بن حرام ــ فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام ، فلما شب قصى رجع إلى مكة ، وكان واليها إذ ذاك حليل بن حبشة من خزاعة ، فخطب قصى إلى حليل ابنته حبى ، فرغب فيه حليل وزوجه إياها [4] فلما مات

(١) ابن هشام ١ / ٤٤ ــ ١١٩ ــ ١٢٠ ــ ١٢٢ .

(٢) ياقوت مادة « مكة » .

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٣٥ ، وابن هشام ١ / ١١٧ .

(٤) ابن هشام ١ / ١١٧ ــ ١١٨ .

حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيرا إلى تغلب قصي على أمر مكة والبيت .

وهناك ثلاث روايات في بيان سبب هذه الحرب .

الأولى : أن قصيا لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قريشا رءوس آل إسماعيل وصريحهم ، فكلم رجالا من قريش وبني كنانة في إخراج خزاعة وبني بكر عن مكة فأجابوه [1].

الثانية : أن حليلا — فيما تزعم خزاعة — أوصى قصيا بالقيام على الكعبة وبأمر مكة [2].

الثالثة : أن حليلا أعطى ابنته حبي ولاية البيت ، واتخذ أبا غبشان الخزاعي وكيلا لها ، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبي ، فلما مات حليل اشترى قصي ولاية البيت من أبي غبشان بزق من الخمر ، ولم ترض خزاعة بهذا البيع ، وحاولوا منع قصي عن البيت ، فجمع قصي رجالا من قريش وبني كنانة لإخراج خزاعة من مكة ، فأجابوه [3].

وأيا ما كان ، فلما مات حليل وفعلت صوفة ماكانت تفعل أتاهم قصي بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة فقال : نحن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فغلبهم قصي على ماكان بأيديهم ، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي ، فبدأهم قصي ، وأجمع لحربهم ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، صار جمع من الفريقين فريسة له ، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر بن عوف أحد بني بكر ، فقضى بأن قصيا أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة ، وكل دم أصابه قصي منهم موضوع بشدخه تحت قدميه ، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه

---

(١) نفس المصدر ١ / ١١٧ — ١١٨ .

(٢) نفس المصدر ١ / ١٨٨ .

(٣) رحمة للعالمين ٢ / ٥٥ .

الدية ، وأن يخلى بين قصي وبين الكعبة ـــ فسمى يعمر يومئذ الشداخ ـــ[1] وكان استيلاء قصي على مكة والبيت فى أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م[2] وبذلك صارت لقصى ، ثم لقريش السيادة التامة ، والأمر النافذ فى مكة ، وصار الرئيس الدينى لذلك البيت الذى كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة .

ومما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وقطعها رباعا بين قومه ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التى أصبحوا عليها ، وأقر النسأة وآل صفوان ، وعدوان ومرة بن عوف على ماكانوا عليه من المناصب ؛ لأنه كان يراه دينا فى نفسه لاينبغى تغييره [3]

ومن مآثر قصي أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالى من مسجد الكعبة ، وجعل بابها إلى المسجد ، وكانت مجمع قريش ، وفيها تفصل مهام أمورها ، ولهذه الدار فضل على قريش ؛ لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى [4].

وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف :

(١) رياسة دار الندوة ، ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ، ويزوجون فيها بناتهم .

(٢) اللواء ، فكانت لاتعقد راية الحرب إلا بيده .

(٣) الحجابة وهى حجابة الكعبة ، لايفتح بابها إلا هو ، وهو الذى يلى أمر خدمتها وسدانتها .

(٤) سقاية الحاج ، وهى أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضا من الماء ،

---

(١) ابن هشام ١ / ١٢٣ ـــ ١٢٤ .

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٢ .

(٣) ابن هشام ١ / ١٢٤ ـــ ١٢٥ .

(٤) ابن هشام ١ / ١٢٥ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٣٦ ، وأخبار الكرام ص ١٥٢ .

يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة [1].

(٥) رفادة الحاج ، وهي طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة ، وكان قصي فرض على قريش خرجا تخرجه في الموسم من أموالها إلى قصي ، فيضع به طعاما للحاج ، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد [2].

وكان كل ذلك لقصي ، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد في حياته ، وكان عبد الدار بكره ، فقال له قصي : لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك ، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فأعطاه دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان قصي لايخالف ولايرد عليه شيء صنعه ، وكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، فلما هلك أقام بنوه أمره لانزاع بينهم ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بني عمهم عبد الدار في هذه المناصب ، وافترقت قريش فرقتين ، وكاد يكون بينهم قتال ، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح ، واقتسموا هذه المناصب ، فصارت السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف ، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بني عبد الدار ، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف ، فكان هو الذي يلي السقاية والرفادة طول حياته ، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف ، وولي بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس بن عبد المطلب [3].

وكانت لقريش مناصب سوى ذلك وزعوها فيما بينهم ، وكونوا بها دويلة — بل بتعبير أصح : شبه دويلة ديمقراطية . وكانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية مايشبه في عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها ، وهاك لوحة من تلك المناصب :

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١ / ٣٦ .

(٢) ابن هشام ١ / ١٣٠ .

(٣) ابن هشام ١ / ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

(١) الإيسار ، أى تولية قداح الأصنام للاستقسام ، كان ذلك فى بنى جمح .
(٢) تحجير الأموال ، أى نظم القربات والنذور التى تهدى إلى الأصنام ، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات . كان ذلك فى بنى سهم .
(٣) الشورى ، كانت فى بنى أسد .
(٤) الأشناق ، أى نظم الديات والغرامات ، كان ذلك فى بنى تيم .
(٥) العقاب ، أى حمل اللواء القومى ، كانت ذلك فى بنى أمية .
(٦) القبة ، أى نظم المعسكر ، وكذلك قيادة الخيل ، كانت فى بنى مخزوم .
(٧) السفارة ، كانت فى بنى عدى [١] .

الحكم فى سائر العرب :

قد سبق لنا أن ذكرنا هجرات القبائل القحطانية والعدنانية ، وأن البلاد العربية اقتسمت فيما بينها ، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعا لملك العرب بالحيرة ، وما كان منها فى بادية الشام كانت تبعا للغساسنة ، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية . وأما ماكان منها فى البوادى فى داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة .

وفى الحقيقة كان لهذه القبائل رؤساء تسودهم القبيلة ، وكانت القبيلة حكومة مصغرة أساس كيانها السياسى الوحدة العصبية ، والمنافع المتبادلة فى حماية الأرض ودفع العدوان عنها .

وكانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك ، فكانت القبيلة تبعا لرأى سيدها فى السلم والحرب ، لا تتأخر عنه بحال ، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأى مايكون لدكتاتور قوى ، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب ، إلا أن المنافسة فى السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس ، من بذل الندى ، وإكرام الضيف ،

---

(١) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

والكرم ، والحلم وإظهار الشجاعة ، والدفاع عن الغير ؛ حتى يكسبوا المحامد فى أعين الناس ، ولاسيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة فى ذلك الزمان ، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين .

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة ، فكانوا يأخذون من الغنيمة المرباع والصفى والنشيطة والفضول ، يقول الشاعر .

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

والمرباع : ربع الغنيمة ، والصفى : مايصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيطة : ماأصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم . والفضول : مافضل من القسمة مما لاتصح قسمته على عدد الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوهما .

الحالة السياسية :

قد ذكرنا حكام العرب ، والآن آن لنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية ، فالأقطار الثلاثة التى كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية فى تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه ، فقد كان الناس بين سادة وعبيد ، أو حكام ومحكومين ، فالسادة ــ ولاسيما الأجانب ــ لهم كل الغنم ، والعبيد عليهم كل الغرم ، وبعبارة أوضح إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات ، فتستخدمها فى ملذاتها وشهواتها ، ورغائبها ، وجورها ، وعدوانها . أما الناس فهم فى عمايتهم يتخبطون ، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما فى استطاعتهم التذمر والشكوى ، بل هم يسامون الخسف ، والجور ، والعذاب ألوانا ساكتين ، فقد كان الحكم استبداديا ، والحقوق ضائعة مهدورة ، والقبائل المجاورة لهذه الأقطار مذبذبون تتقاذفهم الأهواء والأغراض ، مرة يدخلون فى أهل العراق ، ومرة يدخلون فى أهل الشام . وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال ، تغلب عليها

المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم ، أو مرجع يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه وقت الشدائد .

وأما حكومة الحجاز ؛ فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام ، ويرونها قادة وسدنة المركز الديني ، وكانت تلك الحكومة في الحقيقة خليطاً من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية ، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية ، وحكمت في الحرم وما والاه بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت ، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم ، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات مايشابه دوائر البرلمان ـ كما أسلفنا ـ ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم غزو الأحباش .

دِيَانَاتُ ٱلْعَرَبِ

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل ــ عليه السلام ــ حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم ــ عليه السلام ــ فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه ، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظا مما ذكروا به ، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم ، حتى جاء عمرو بن لحى رئيس خزاعة ، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين ، فأحبه الناس ، ودانوا له ظنا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء ، ثم إنه سافر إلى الشام ، فرآهم يعبدون الأوثان ، فاستحسن ذلك وظنه حقا ، لأن الشام محل الرسل والكتب ، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة ، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله ، فأجابوه . ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة ، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم [1].

ومن أقدم أصنامهم مناة ، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر

بالقرب من قديد ، ثم اتخذوا اللات في الطائف ، ثم اتخذوا العزى بوادى نخلة ، هذه الثلاث أكبر أوثانهم ، ثم كثر الشرك ، وكثرت الأوثان في كل بقعة من الحجاز ، ويذكر أن عمرو بن لحى كان له رئى من الجن ، فأخبره بأن أصنام قوم نوح ــ ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ــ مدفونة بجدة فأتاها فاستثارها ، ثم أوردها إلى تهامة ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل ، فذهبت بها

---

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٢ .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٢٢٢ .

إلى أوطانها ، حتى صار لكل قبيلة ثم فى كل بيت صنم . وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنما ، فجعل يطعنها حتى تساقطت ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت (١).

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية ، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم .

وكانت لهم تقاليد ومراسم فى عبادة الأصنام ، بتدع أكثرها عمرو بن لحى ، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحى بدعة حسنة ، وليس بتغيير لدين إبراهيم فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم :

(١) كانوا يعكفون عليها ، ويلتجون إليها .. ويهتفون بها ، ويستغيثونها فى الشدائد ، ويدعونها لحاجاتهم ، معتقدين أنها تشفع عند الله ، وتحقق لهم مايريدون .

(٢) وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها ، ويتذللون عندها ، ويسجدون لها .

(٣) وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين ، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسمائها .

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى فى قوله ﴿ وماذبح على النصب ﴾ (٥ : ٣) وفى قوله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ (٦ : ١٢١) .

(٤) وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخصون للأصنام شيئا من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم ، وكذلك كانوا يخصون لها نصيبا من حرثهم وأنعامهم . ومن الطرائف أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءا لله أيضا ، وكانت عندهم أسباب كثيرا ما كانوا ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله ، ولكن لم

---

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ .

يكونوا ينقلون إلى الله ماكان لأصنامهم بحال . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء مايحكمون ﴾ (٦ : ١٣٦) .

(٥) وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام النذر في الحرث والأنعام ، قال تعالى : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ﴾ (٦ : ١٣٨) .

(٦) وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي . قال ابن إسحق : البحيرة بنت السائبة ، هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر سيبت ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ، ثم خلي سبيلها مع أمها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، كما فعل بأمها . فهي البحيرة بنت السائبة . والوصيلة : الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة . قالوا : قد وصلت ، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم . والحامي : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ، ولم يجز وبره ، وخلي في إبله يضرب فيها ، لا ينتفع منه بغير ذلك ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ، ولا وصيلة ، ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لايعقلون ﴾ (٥ : ١٠٣) وأنزل : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾ (٦ : ١٣٩) وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك[١] .

وقد صرح سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم[٢] وفي

(١) ابن هشام ١ / ٨٩ ، ٩٠ .
(٢) صحيح البخاري ١ / ٤٩٩ .

الصحيح مرفوعا : أن عمرو بن لحى أول من سيب السوائب[1].

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم ، معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه ، وتشفع لديه كما فى القرآن : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (٣٩ : ٣) ﴿ ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (١٠ : ١٨) .

وكانت العرب تستقسم بالأزلام ، والزلم : القدح الذى لاريش عليه ، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع : نوع فيه « نعم » و « لا » كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل من نحو السفر والنكاح وأمثالهما .فإن خرج « نعم » عملوا به وإن خرج « لا » أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى ، ونوع فيه المياه والدية ، ونوع فيه « منكم » أو « من غيركم » أو « ملصق » فكانوا إذا شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وبمائة جزور ، فأعطوها صاحب القداح . فإن خرج « منكم » كان منهم وسيطا ، وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفا ، وإن خرج عليه « ملصق » كان على منزلته فيهم ، لا نسب ولا حلف[2].

ويقرب من هذا الميسر والقداح ، وهو ضرب من ضروب القمار ، وكانوا يقتسمون به لحم الجزور التى يذبحونها بحسب القداح .

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين ، والكاهن : هو من يتعاطى الإخبار عن الكوائن فى المستقبل ، ويدعى معرفة الأسرار ، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعا من الجن يلقى عليه الأخبار ، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه ، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهذا القسم يسمى عرافا ، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما . والمنجّم : من ينظر

---

(١) نفس المصدر .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٥٦ ، وابن هشام ١ / ١٥٢ ، ١٥٣ .

في النجوم أى الكواكب ، ويحسب سيرها ومواقيتها ، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التى تقع فى المستقبل[1] والتصديق بأخبار المنجمين هو فى الحقيقة إيمان بالنجوم ، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء ، فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا[2].

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهى التشاؤم بالشيء ، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبى فينفرونه ، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ماقصدوا ، وعدوه حسنا ، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا ، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان فى طريقهم .

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب ، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء ، والاعتقاد بالعدوى والهامة ، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه مالم يؤخذ بثأره ، وتصير روحه هامة أى بومة تطير فى الفلوات وتقول : صدى صدى أو اسقونى اسقونى ، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح[3]

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ولم يتركوه كله ، مثل تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف بعرفة ، والمزدلفة وإهداء البدن ، نعم ابتدعوا فى ذلك بدعا .

منها أن قريشا كانوا يقولون : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم ، وولاة البيت وقاطنو مكة ، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا — وكانوا يسمون أنفسهم الحمس — فلا ينبغى لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل ، فكانوا لايقفون بعرفة ، ولا يفيضون منها ، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل :

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢ / ٢ ، ٣ .

(٢) انظر صحيح مسلم مع شرحه للنووى ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء ، من كتاب الإيمان ١ / ٥٩ .

(٣) انظر صحيح البخارى ٢ / ٨٥١ ، ٨٥٧ مع حواشيه للشيخ أحمد على السهارنفورى .

﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ (٢ : ١٩٩) [١].

ومنها أنهم قالوا : لاينبغى للحُمْس أن يقطوا الأقط ولايسلئوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتا من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ماداموا حرما [٢].

ومنها أنهم قالوا : لاينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا [٣].

ومنها أنهم أمروا أهل الحل أن لايطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا شيئا فكان الرجال يطوفون عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعا مفرجا ثم تطوف فيه وتقول :.

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأنزل الله فى ذلك : ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ (٧ : ٣١) ، فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ، ولا ينتفع بها هؤلاء ولا أحد غيره[٤] .

ومنها أنهم كانوا لايأتون بيوتهم من أبوابها فى حال الإحرام ، بل كانوا ينقبون فى ظهور البيوت نقبا يدخلون ويخرجون منه ، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء برا وقد منعه القرآن(٢ : ١٨٩) .

كانت هذه الديانة ــ ديانة الشرك وعبادة الأوثان ، والاعتقاد بالوهميات والخرافيات ــ ديانة معظم العرب ، وقد وجدت اليهودية ، والمسيحية ، والمجوسية والصابئية سبيلا للدخول فى ربوع العرب .

---

(١) ابن هشام ١ / ١٩٩ ، صحيح البخارى ١ / ٢٢٦ .
(٢) نفس المصدر الأول ١ / ٢٠٢ .
(٣) ابن هشام ١ / ٢٠٢ .
(٤) ابن هشام ١ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ وصحيح البخارى ١ / ٢٢٦ .

ولليهود دوران ــ على الأقل ــ مثلوهما في جزيرة العرب :

الأول : هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والأشورية في فلسطين ، فقد نشأ عن الضغط على اليهود ، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق.م وسبى أكثرهم إلى بابل أن قسما منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز ، وتوطن في ربوعها الشمالية [١].

الدور الثاني : يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة بتطس الروماني سنة ٧٠ م ، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود ، وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز ، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء ، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع ، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين ، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام ، والتي حدثت في صدره . وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي : خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع ، وذكر السمهودى في وفاء الوفا (ص ١١٦) أن عدد القبائل اليهودية يزيد على عشرين [٢].

ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تبان أسعد أبي كرب ، فإنه ذهب مقاتلا إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بحبرين من بني قريظة إلى اليمن ، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها ، ولما ولي اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم علي المسيحيين من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية ، فلما أبوا خدّ لهم الأخدود، وأحرقهم بالنار ، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار ، ويقال إن عدد المقتولين مابين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفا ، وقع ذلك في أكتوبر سنة ٥٢٣ م [٣]. وقد أورد القرآن جزءاً من

---

(١) قلب جزيرة العرب ص ١٥١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) تفهيم القرآن ٦ / ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وابن هشام ١ / ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ .

هذه القصة في سورة البروج .

أما الديانة النصرانية فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة والرومان ، وكان أول احتلال الحبشة لليمن سنة ٣٤٠ م ، واستمر إلى سنة ٣٧٨ م [١] ، وفي ذلك الزمان دخل التبشير المسيحي في ربوع اليمن ، وبالقرب من هذا الزمان دخل رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات — وكان يسمى فيميون — إلى نجران ، ودعاهم إلى الدين المسيحي ، ورأى أهل نجران من أمارات صدقه وصدق دينه ماالبوا لأجله المسيحية واعتنقوها [٢] .

ولما احتلت الأحباش اليمن كرد فعل لما أتاه ذو نواس ، وتمكن أبرهة من حكومتها ؛ أخذ ينشر الديانة المسيحية بأوفر نشاط ، وأوسع نطاق ، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كنيسة باليمن كانت تسمى الكعبة اليمانية ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، ويهدم بيت الله الذى بمكة ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيء وغيرهما لمجاورة الرومان ، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة .

أما المجوسية فكان معظمها فى العرب الذين كانوا بجوار الفرس ، فكانت فى عراق العرب وفى البحرين — الأحساء — وهجر وماجاورها من منطقة سواحل الخليج العربى ، ودان لها رجال من اليمن فى زمن الاختلال الفارسى .

أما الصابئية فقد دلت الحفريات والتنقيبات فى بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين ، وقد دان بها كثير من أهل الشام ، وأهل اليمن فى غابر الزمان ، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية تضعضع بنيان الصابئية وخمد نشاطها ، ولكن لم يزل فى الناس بقايا من أهل

---

(١) تفهيم القرآن ٦ / ٢٩٧ .

(٢) انظر فى ذلك مفصلا ابن هشام ١ / ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

هذه الديانة مختلطين مع المجوس ، أو مجاورين لهم ، فى عراق العرب ، وعلى شواطىء الخليج العربى [1].

الحالة الدينية :

كانت هذه الديانات هى ديانات العرب حين جاء الإسلام ، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار ، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهى شريعة إبراهيم ، مهملين ماأتت به من مكارم الأخلاق . فكثرت معاصيهم ، ونشأ فيهم على توالى الزمان ماينشأ فى الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية ، وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرا بالغا جدا .

أما اليهود فقد انقلبت رياء وتحكما ، وصار رؤساؤها أربابا من دون الله ، يتحكمون فى الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه ، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة ، وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التى حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها .

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم ، وأوجدت خلطا عجيبا بين الله والإنسان ، ولم يكن لها فى نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقى ، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التى ألفوها ، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها .

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين ، فقد تشابهت قلوبهم ، وتواردت عقائدهم ، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم .

---

(١) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٩٣ إلى ٢٠٨ .

صُورَةٌ مِنَ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها ؛ بقى لنا أن نتكلم حول الأحوال الاجتماعية ، والاقتصادية ، والخلقية ، وفيما يلى بيانها بإيجاز :

الحالة الاجتماعية :

كانت فى العرب أوساط متنوعة ، تختلف أحوال بعضها عن بعض ، فكانت علاقة الرجل مع أهله فى الأشراف على درجة كبيرة من الرقى والتقدم ، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، وكانت محترمة مصونة تسل دونها السيوف ، وتراق الدماء ، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له فى نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى أكثر أوقاته إلا المرأة ، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام ، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال ، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة ، وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم .

بينما كانت هذه حال الأشراف ، كان هناك فى الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة ، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة ، روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فكان منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان

فاستبصعى منه ، ويعتزلها زوجها ولايمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر : يجتمع الرهط دون العشرة . فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها . فإذا حملت ، ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت ، وهو ابنك يافلان ، فتسمى من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لاتمتنع ممن جاءها . وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات ، تكن علما لمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه ودعى ابنه ، لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث الله محمدا ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم [(١)] .

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف ، وأسنة الرماح ، فكان المتغلب فى حروب القبائل يسبى نساء المقهور فيستحلها ، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم .

وكان من المعروف فى أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه ، وكانوا يجمعون بين الأختين ، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها (سورة النساء ٢٢ ، ٢٣) وكان الطلاق بيد الرجال لا إلى حد معين [(٢)] .

وكانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط ، لانستطيع أن نخص منها وسطا دون وسط أو صنفا دون صنف ، إلا أفرادا من الرجال والنساء ممن كان تعاظم

---

(١) أبو داود ، كتاب النكاح ، باب وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية .

(٢) نفس المصدر باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث . وهذا الذى ذكره المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى ﴿ الطلاق مرتان ﴾ .

نفوسهم يأبى الوقوع فى هذه الرذيلة ، وكانت الحرائر أحسن حالا من الإماء والطامة الكبرى هى الإماء ، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار فى الانتساب إلى هذه الفاحشة ، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قام رجل فقال : يارسول الله إن فلانا ابنى ، عاهرت بأمة ، فى الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « لادعوة فى الإسلام ، ذهب أمر الجاهلية . الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، وقصة اختصام سعد بن أبى وقاص وعبد بن زمعة فى ابن أمة زمعة — وهو عبد الرحمن بن زمعة — معروفة [(1)].

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى فمنهم من يقول :

إنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق ، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق (القرآن ٦ — ١٥١ . ١٦ — ٥٨ ، ٥٩ . ١٧ — ٣١ . ٨١ — ٨) ولكن لايمكننا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة ، فقد كانوا أشد الناس احتياجا إلى البنين ، ليتقوا بهم العدو .

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية ، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ، ويموتون لها . وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية ، وكان أساس النظام الاجتماعى هو العصبية الجنسية والرحم ، وكانوا يسيرون على المثل السائر « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » على المعنى الحقيقى ، من غير التعديل الذى جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه ، إلا أن التنافس فى الشرف والسؤدد كثيرا ماكان يفضى إلى الحروب بين القبائل التى كان يجمعها أب واحد ، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج ، وعبس وذبيان ، وبكر وتغلب وغيرها .

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماما ، وكانت

---

(١) أبو داود باب الولد للفراش .

قواهم متفانية فى الحروب . إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها وفى بعض الحالات كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضى إلى اجتماع القبائل المتغايرة ، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونا لهم على حياتهم وحصول معايشهم .

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت فى الحضيض من الضعف والعماية فالجهل ضارب أطنابه ، والخرافات لها جولة وصولة والناس يعيشون كالأنعام ، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانا ، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة ، وما كان من الحكومات فجل همتها امتلاء الخزائن من رعيتها ، أو جر الحروب على مناوئيها .

الحالة الاقتصادية :

أما الحالة الاقتصادية ، فتبعت الحالة الاجتماعية ، ويتضح ذلك إذا نظرنا فى طرق معايش العرب . فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة ، والجولة التجارية لاتتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام ، وكان ذلك مفقودا فى جزيرة العرب إلا فى الأشهر الحرم ، وهذه هى الشهور التى كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذى المجاز ومجنة وغيرها .

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها ، ومعظم الصناعات التى كانت توجد فى العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت فى أهل اليمن والحيرة ، ومشارف الشام ، نعم كانت فى داخل الجزيرة الزراعة ، والحرث ، واقتناء الأنعام ، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب ، وكان الفقر والجوع والعرى عاما فى المجتمع .

الأخلاق :

لاننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل

السليم ، ويأباها الوجدان ، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة مايروع الإنسان ، ويفضى به إلى الدهشة والعجب ، فمن تلك الأخلاق .

(١) الكرم ، وكانوا يتبارون فى ذلك ويفتخرون به ، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم ، بين ممتدح به ومثن على غيره ، كان الرجل يأتيه الضيف فى شدة البرد والجوع ، وليس عنده من المال إلا ناقته التى هى حياته وحياة أسرته ، فتأخذه هزة الكرم ، فيقوم إليها ، ويذبحها لضيفه ، ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة ، يكفون بذلك سفك الدماء ، وضياع الإنسان ، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات .

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمور ، لا لأنها مفخرة فى ذاتها ، بل لأنها سبيل من سبل الكرم ، ومما يسهل السرف على النفس ، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم ، وخمره بينت الكرم . وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك بابا من أبواب المديح والفخر ، يقول عنترة بن شداد العبسى فى معلقته :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مفدم
فإذا شربت فإننى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر ، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم ، لأنهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه ، أو ماكان يفضل عن سهام الرابحين ، ولذلك ترى القرآن لاينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ (٢ : ٢١٩) .

(٢) ومن تلك الأخلاق الوفاء بالعهد ، فقد كان العهد عندهم دينا يتمسكون به ، ويستهينون فى سبيله قتل أولادهم ، وتخريب ديارهم ، وتكفى فى معرفة ذلك قصة هانىء بن مسعود الشيبانى ، والسموأل بن عاديا ، وحاجب بن زرارة

التميمي .

(٣) ومنها عزة النفس وإباء عن قبول الخسف والضيم ، وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة ، وشدة الغيرة ، وسرعة الانفعال ، فكانوا لايسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان ، وأثاروا الحروب العوان ، وكانوا لايبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل .

(٤) ومنها المضي في العزائم ، فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد ، والافتخار لايصرفهم عنه صارف ، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله .

(٥) ومنها الحلم ، والأناة ، والتؤدة ، كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود ، لفرط شجاعتهم ، وسرعة إقدامهم على القتال .

(٦) ومنها السذاجة البدوية ، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ، ومكائدها ، وكان من نتائجه الصدق والأمانة ، والنفور عن الخداع والغدر .

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة — مع ماكان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم — كانت سببا في اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة ، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشري ؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضي إلى الشر ، ويجلب الحوادث المؤلمة ، إلا أنها كانت في نفسها أخلاقا ثمينة ، تدر المنافع العامة للمجتمع البشري بعد شيء من الإصلاح ، وهذا الذي فعله الإسلام .

ولعل أغلى ماعندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعا بعد الوفاء بالعهد هو عزة النفس والمضي في العزائم ، إذ لايمكن قمع الشر والفساد ، وإقامة نظام العدل والخير ؛ إلا بهذه القوة القاهرة ، وبهذا العزم الصميم .

ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التي ذكرناها وليس قصدنا استقصاءها .

نسب النبي ﷺ وأسرته

نسب النبي ﷺ :

لنسب النبي ﷺ ثلاثة أجزاء : جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان ، وجزء اختلفوا فيه مابين متوقف فيه وقائل به ، وهو مافوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام ، وجزء لانشك أن فيه أمورا غير صحيحة ، وهو مافوق إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذا ، وهاك تفصيل تلك الأجزاء الثلاثة :

الجزء الأول : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ــ واسمه شيبة ــ بن هاشم ــ واسمه عمرو ــ بن عبد مناف ــ واسمه المغيرة ــ بن قصى ــ واسمه زيد ــ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ــ وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة ــ بن مالك بن النضر ــ واسمه قيس ــ بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ــ واسمه عامر ــ بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [1].

الجزء الثانى : مافوق عدنان ، وعدنان هو ابن أد بن هميسع بن سلامان ابن عوص بن بوز بن قموال بن أبى بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن

---

(١) ابن هشام ١ / ١ ، ٢ . تلقيح فهوم أهل الأثر ٥ ، ٦ ، رحمة للعالمين ٢ / ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٥٢ .

طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخى بن عيض بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربى بن يحزن بن يلحن بن أرعوى بن عيض بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمى بن مزى بن عوضة بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام (١).

الجزء الثالث : مافوق إبراهيم عليه السلام ، وهو ابن تارح ــ واسمه آزر ــ بن ناحور بن ساروع ــ أو ساروغ ــ بن راعو بن فالخ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشد بن سام بن نوح ــ عليه السلام ــ بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ــ يقال هو إدريس عليه السلام ــ ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوشة بن شيث بن آدم عليهما السلام (٢).

الأسرة النبوية :

تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية ــ نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف ــ وإذن فلنذكر شيئا من أحوال هاشم ومن بعده .

(١) هاشم ــ وقد أسلفنا أن هاشما هو الذى تولى السقاية والرفادة من بنى عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما ، وهاشم كان موسراً ذا شرف كبير ، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمى هاشما إلا لهشمه الخبز ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

---

(١) قد جمع العلامة محمد سليمان المنصورفورى هذا الجزء من النسب برواية الكلبى ، وابن سعد بعد تحقيق دقيق . انظر رحمة للعالمين ٢ / ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ وفيه اختلاف كبير بين المصادر التاريخيه .

(٢) ابن هشام ١ / ٢ ، ٣ ، ٤ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦ ، خلاصة السير للطبرى ص ٦ ، ورحمة للعالمين ٢ / ١٨ واختلفت هذه المصادر فى تلفظ بعض هذه الأسماء وكذا سقط من بعض المصادر بعض الأسماء .

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجرا ، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار ، وأقام عندها ، ثم خرج إلى الشام ــ وهى عند أهلها قد حملت بعبد المطلب ــ فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين ، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧ م ، وسمته شيبة لشيبة كانت فى رأسه [١] ، وجعلت تربيه فى بيت أبيها فى يثرب ، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة وكان لهاشم أربعة بنين وهم : أسد ، وأبو صيفى ، ونضلة ، وعبد المطلب . وخمس بنات وهى : الشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وجنة [٢].

(٢) عبد المطلب ــ قد علمنا ممّا سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف (وكان شريفا مطاعا ذا فضل فى قومه ، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما شار شيبة ــ عبد المطلب ــ وصيفا أو فوق ذلك سمع به المطلب . فرحل فى طلبه ، فلما رآه فاضت عيناه ، وضمه ، وأردفه على راحلته ، فامتنع حتى تأذن له أمه ، فسألها المطلب أن ترسله معه ، فامتنعت فقال :

إنما يمضى إلى ملك أبيه ، وإلى حرم الله ، فأذنت له ، فقدم به مكة مردفه على بعيره ، فقال الناس : هذا عبد المطلب ، فقال ويحكم إنما هو ابن أخى هاشم .. فأقام عنده حتى ترعرع ، ثم إن المطلب هلك بردمان من أرض اليمن ، فولى بعده عبد المطلب ، فأقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون لقومهم ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم [٣].

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح عبد المطلب فغصبه إياها ،

---

(١) ابن هشام ١ / ١٣٧ ، رحمة للعالمين ١ / ٢٦ ، ٢ / ٢٤ .
(٢) ابن هشام ١ / ١٠٧ .
(٣) ابن هشام ١ / ١٣٧ ، ١٣٨ .

فسأل رجالا من قريش النصرة على عمه ، فقالوا لاندخل بينك وبين عمك . فكتب إلى أخواله من بنى النجار أبياتا يستنجدهم ، وسار خاله أبو سعد بن عدى فى ثمانين راكبا ، حتى نزل بالأبطح من مكة ، فتلقاه عبد المطلب ، فقال : المنزل ، ياخال ! فقال : لا والله حتى ألقى نوفلا ، ثم أقبل فوقف نوفل ، وهو جالس فى الحجر مع مشايخ قريش ، فسل أبو سعد سيفه وقال : ورب البيت لئن لم ترد على ابن أختى أركاحه لأمكنن منك هذا السيف ، فقال : رددتها عليه ، فأشهد عليه مشايخ قريش ، ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثاً ، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ، فلما جرى ذلك حالف نوفل بنى عبد شمس بن عبد مناف على بنى هاشم ، ولما رأت خزاعة نصر بنى النجار لعبد المطلب قالوا : نحن ولدناه كما ولدتموه ، فنحن أحق بنصره — وذلك أن أم عبد مناف منهم — فدخلوا دار الندوة ، وحالفوا بنى هاشم على بنى عبد شمس ونوفل ، وهذا الحلف الذى صار سببا لفتح مكة كما سيأتى [1].

ومن أهم ماوقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان [2] :
حفر بئر زمزم ووقعة الفيل

وخلاصة الأول أنه أمر فى المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام يحفر ، فوجد فيه الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أى السيوف والدروع والغزالين من الذهب ، فضرب الأسياف بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين ، وأقام سقاية زمزم للحجاج .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له : أشركنا قال ماأنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به ، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد ، ولم يرجعوا حتى أراهم الله فى الطريق مادلهم على تخصيص عبد المطلب بزمزم ، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء ، وبلغوا

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ص ٤١ ، ٤٢ .
(٢) ابن هشام ١ / ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة

وخلاصة الثانى أن أبرهة الصباح الحبشى ، النائب العام عن النجاشى على اليمن ، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، وسمع بذلك رجل من بنى كنانة ، فدخلها ليلا فلطخ قبلتها بالعذرة . ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه ، وسار بجيش عرمرم — عدده ستون ألف جندى — إلى الكعبة ليهدمها ، واختار لنفسه فيلا من أكبر الفيلة ، وكان فى الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلا ، وواصل سيره حتى بلغ المغمس ، وهناك عبأ جيشه ، وهيأ فيله ، وتهيأ لدخول مكة ، فلما كان فى وادى محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل ، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة ، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك ، فبينا هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أمثال الحمص ، لاتصيب منهم أحدا إلا صار تتقطع أعضاؤه ، وهلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يموج بعضهم فى بعض فتساقطوا بكل طريق ، وهلكوا على كل منهل ، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله ، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا فى الشعاب وتحرزوا فى رءوس الجبال ، خوفا على أنفسهم من معرة الجيش ، فلما نزل بالجيش مانزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين (١) .

وكانت هذه الوقعة فى شهر المحرم قبل مولد النبى ﷺ بخمسين يوما أو بخمسة وخمسين يوما — عند الأكثر — وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م ، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، لأنا حين ننظر إلى

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٣ إلى ٥٦ ، تفهيم القرآن ٦ / ٦ / ٤٦٢ إلى ٤٦٩ .

بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله تسلطوا على هذه القبلة ، وأهلها مسلمون كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ ق . م ، والرومان سنة ٧٠م ، ولكن الكعبة لم يسيطر عليها النصارى — وهم المسلمون إذ ذاك — مع أن أهلها كانوا مشركين .

وقد وقعت هذه الوقعة فى الظروف التى يبلغ نبأها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك ، فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان ، والفرس لايزالون لهم بالمرصاد ، يترقبون مانزل بالرومان وحلفائهم ، ولذلك سرعان ماجاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الوقعة ، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر . فهذه الوقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله ، وأنه هو الذى اصطفاه الله للتقديس ، فإذن لو قام أحد من أهله بدعوى النبّوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الوقعة ، وكان تفسيرا للحكمة الخفية التى كانت فى نصرة الله ، المشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب .

وكان لعبد المطلب عشرة بنين ، وهم : الحارث والزبير وأبو طالب ، وعبد الله ، وحمزة ، وأبو لهب ، والغيداق ، والمقوم ، وصفار ، والعباس ، وقيل : كانوا أحد عشر ، فزادوا ولدا اسمه قثم ، وقيل : كانوا ثلاثة عشر ، فزادوا عبد الكعبة وحجلا ، وقيل : إن عبد الكعبة هو المقوم ، وحجلا هو الغيداق ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم ، وأما البنات فست وهن : أم الحكيم — وهى البيضاء — وبرة وعاتكة وصفية وأروى وأميمة [1] .

(٣) عبد الله والد رسول الله ﷺ — أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة ، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب ، وأعفهم وأحبهم إليه ، وهو الذبيح ، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة ، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه ، فكتب أسماءهم فى القداح ، وأعطاهم قيم هبل ، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب ، وأخذ

---

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٨ ، ٩ ، رحمة للعالمين ٢ / ٥٦ ، ٦٦ .

الشفرة ، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه ، فمنعته قريش ولاسيما أخواله من بنى مخزوم وأخوه أبو طالب ، فقال عبد المطلب : فكيف أصنع بنذرى فأشاروا عليه أن يأتى عرافة فيستأمرها ، فأتاها ، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضى ربه ، فإن خرجت على الإبل نحرها ، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشرا عشرا ولاتقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها ، فنحرت عنه ، ثم تركها عبد المطلب لايرد عنها إنسانا ولا سبعا ، وكانت الدية فى قريش وفى العرب عشرا من الإبل ، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل ، وأقرها الإسلام ، وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » يعنى إسماعيل ، وأباه عبد الله [(١)].

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب ، وهى يومئذ تعد أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا ، وأبوها سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، فبنى بها عبد الله فى مكة ، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرا ، فمات بها ، وقيل : بل خرج تاجرا إلى الشام ، فأقبل فى عير قريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ، ودفن فى دار النابغة الجعدى ، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ ، وبه يقول أكثر المؤرخين ، وقيل : بل توفى بعد مولده بشهرين [(٢)]. ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثى ، قالت :

عفا جانبُ البطحاء من ابن هاشم ... وجاور لحدا خارجا فى الغماغم
دعتــه المنايـــا دعـــوة فأجابهـــا ... وماتركت فى الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريــــره ... تعـــاوره أصحابــه فى التزاحـــم

---

(١) ابن هشام ١ / ١٥١ إلى ١٥٥ ، رحمة للعالمين ٢ / ٨٩ ، ٩٠ مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ص ١٢ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ابن هشام ١ / ١٥٦ ، ١٥٨ ، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٥ ، رحمة للعالمين ٢ / ٩١ .

فإن تـك غالتـه المنايـا وريبهـا   فقد كان معطاء كثير الترحـم[1]

وجميع ماخلفه عبد الله خمسة أجمال ، وقطعة غنم ، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن ، وهي حاضنة رسول الله ﷺ[2].

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٦٢ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٢ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ صحيح مسلم ٢ / ٩٦ .

المولد وأربعون عاماً قبل النبوة

المولد :

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ م.حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصورفوري والمحقق الفلكي محمود باشا (١).

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت : لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام ، وروى أحمد عن العرباض بن سارية مايقارب ذلك (٢).

وقد روى أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخمدت النار التي يعبدها المجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت ، روى ذلك البيهقي(٣) ولايقره

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٢ ، رحمة للعالمين ١ / ٣٨ ، ٣٩ واختلافهم في تعيين تاريخ أبريل فرع للاختلاف في التقويمات الميلادية .

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ١٢ وابن سعد ١ / ٦٣ .

(٣) نفس المصدر الأول .

محمد الغزالى[1].

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشرا ودخل به الكعبة ، ودعا الله وشكر له ، واختار له اسم محمد — وهذا الاسم لم يكن معروفا في العرب — وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون[2].

وأول من أرضعته من المراضع — بعد أمه ﷺ — ثويبة مولاة أبى لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى[3].

في بني سعد :

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ، ابتعادا لهم عن أمراض الحواضر ؛ لتقوى أجسامهم ، وتشتد أعصابهم ، ويتقنوا اللسان العربى فى مهدهم ، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ الرضعاء ، واسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر — وهى حليمة بنت أبى ذؤيب — وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبى كبشة ، من نفس القبيلة .

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهى الشيماء — لقب غلب على اسمها —) وكانت تحضن رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ .

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعا فى بنى سعد بن بكر ،

---

(١) انظر فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٤٦ .

(٢) ابن هشام ١ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٢ وقيل إنه ولد مختونا ، انظر تلقيح مهوم أهل الأثر ص ٤ وقال ابن القيم : ليس فيه حديث ثابت . انظر زاد المعاد ١ / ١٨ .

(٣) تلقيح مهوم الأثر ص ٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٣ .

فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوما وهو عند أمه حليمة ، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين ، من جهة ثويبة ومن جهة السعدية[1].

ورأت حليمة من بركته ﷺ ماقصَّت منه العجب ، ولنتركها تروى ذلك مفصلا :

قال ابن إسحق : كانت حليمة تحدث : أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، قالت : فخرجت على أتان لي قمراء ، معنا شارف لنا ، والله ماتبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ،مافي ثديي مايغنيه ، وما في شارفنا مايغذيه ، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني لأكرهأن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . قال : لاعليك أن تفعلى ، عسى اللهأن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه ، فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوة حتى روى ، ثم نام ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا هى حافل ، فحلب منها ماشرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله ياحليمة ! لقد أخذت نسمة مباركة ،

---

(١) زاد المعاد ١ / ١٩ .

قالت : فقلت : والله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبت أنا أتاني ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب مالا يقدر عليه شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبي ليقلن لي : يابنة أبي ذؤيب ، ويحك ! أربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ! إنها لهي هي ، فيقلن : والله إن لها شأنا ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وماأعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب ، ومايحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ماتبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شبابا لايشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا ، قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه ، وقلت لها : لو تركت ابني عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا [(١)].

وهكذا بقي رسول الله ﷺ في بني سعد ، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة [(٢)] من مولده وقع حادث شق صدره ، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ــ يعني ظئره ــ فقالوا : إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون [(٣)].

---

(١) ابن هشام ١ / ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) هذا ما ذهب إليه عامة أهل السير ، ويقتضي سياق رواية ابن إسحاق أنه وقع في السنة الثالثة ، انظر ابن هشام ١ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) صحيح مسلم ، باب الإسراء ١ / ٩٢.

إلى أمه الحنون :

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه ، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين(١).

ورأت آمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيثرب ، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا ، ومعها ولدها اليتيم — محمد ﷺ — وخادمتها أم أيمن ، وقيمها عبد المطلب ، فمكثت شهرا ، ثم قفلت ، وبينما هي راجعة إذ يلاحقها المرض ، ويلح عليها في أوائل الطريق ، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة (٢).

إلى جده العطوف :

وعاد به عبد المطلب إلى مكة ، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم ، الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة ، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لايدعه لوحدته المفروضة ، بل يؤثره على أولاده ، قال ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلس معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ويسره مايراه يصنع . (٣)

---

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ ، ابن هشام ١ / ١٦٨ .

(٢) ابن هشام ١ / ١٦٨ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٣ ، فقه السيرة للغزالي ص ٥٠ .

(٣) ابن هشام ١ / ١٦٨ .

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفى جده عبد المطلب بمكة ، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه [1].

إلى عمه الشفيق :

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، وضمه إلى ولده ، وقدمه عليهم ، واختصه بفضل احترام وتقدير ، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ، ويبسط عليه حمايته ، ويصادق ويخاصم من أجله ، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها .

يستسقى الغمام بوجهه :

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : ياأبا طالب ! أقحط الوادى ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ؛ فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دجن ، تجلت عنه سحابة قتماء ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب ، فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ، وماق السماء قزعة ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا ، وأغدق واغدودق ، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل [2]

بحيرا الراهب :

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة ـ قيل وشهرين وعشرة

---

(1) تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ ، ابن هشام ١ / ١٦٩ .
(2) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى ص ١٥ ، ١٦ .

أيام[1] ــ ارتحل به أبو طالب تاجرا إلى الشام ، حتى وصل إلى بصرى ــ وهى معدودة من الشام وقصبة لحوران ، وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان ــ وكان فى هذا البلد راهب عرف ببحيرا واسمه جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم ، وأكرمهم بالضيافة ، وكان لايخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله ﷺ بصفته ، فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال أبو طالب : وماعلمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخرّ ساجدا ، ولا تسجد إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة ، وإنا نجده فى كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده ، ولايقدم به إلى الشام ، خوفا عليه من اليهود ، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة [2].

حرب الفجار :

ولخمس عشرة من عمره ﷺ كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان ، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سنا وشرفا ، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان فى وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس . وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها ، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ ، وكان ينبل على عمومته ، أى يجهز لهم النبل للرمى[3].

---

(١) قاله ابن الجوزى فى تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٦ ، وابن هشام ١ / ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ووقع فى كتاب الترمذى وغيره أنه بعث معه بلالا (تحفة الأحوذى) وهو من الغلط الواضح ، فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجودا ، وإن كان موجودا فلم يكن مع عمه ولا مع أبى بكر . زاد المعاد ١ / ١٧ .

(٣) ابن هشام ١ / ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، قلب جزيرة العرب ص ٢٦٠ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٣ .

حلف الفضول :

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول فى ذى القعدة فى شهر حرام ، تداعت إليه قبائل من قريش : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان التيمى لسنه وشرفه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لايجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ماأحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت [١].

وهذا الحلف روحه تنافى الحمية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها ، ويقال فى سبب هذا الحلف إن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، واشتراها منه العاص بن وائل السهمى ، وحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ، ومخزوما ، وجمحا ، وسهما ، وعديا ، فلم يكترثوا له ، فعلا جبل أبى قبيس ، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعا صوته ، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : مالهذا مترك ؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم فى حلف الفضول ، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدى بعد ما أبرموا الحلف [٢].

حياة الكدح :

ولم يكن له ﷺ عمل معين فى أول شبابه ، إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنما ، رعاها فى بنى سعد [٣]، وفى مكة لأهلها على قراريط [٤] وفى الخامسة

(١) ابن هشام ١ /١١٣ ، ١٣٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٠ ، ٣١ .
(٢) نفس المصدر الأخير ص ٣٠ ، ٣١ .
(٣) ابن هشام ١ / ١٦٦ .
(٤) فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٥٢ .

والعشرين من سنه خرج تاجرا إلى الشام فى مال خديجة رضى الله عنها ، قال ابن إسحق : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ مابلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام (١).

زواجه خديجة :

ولما رجع إلى مكة ، ورأت خديجة فى مالها من الأمانة والبركة مالم تر قبل هذا ، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين . وجدت ضالتها المنشودة — وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها ، فتأبى عليهم ذلك — فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية ، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة ، فرضى بذلك ، وكلم أعمامه ، فذهبوا إلى عم خديجة ، وخطبوها إليه ، وعلى إثر ذلك تم الزواج ، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين ، وأصدقها عشرين بكرة ، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبا وثروة و عقلا ، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت(٢).

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم ، ولدت له أولا القاسم — وبه كان يكنى — ثم زينب ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر ، ومات بنوه كلهم فى صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن

---

(١) ابن هشام ١ / ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) ابن هشام ١ / ١٨٩ ، ١٩٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٥٩ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ .

وهاجرن ، إلا أنهن أدركتهن الوفاة فى حياته ﷺ ، سوى فاطمة رضى الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ، ثم لحقت به[1]

بناء الكعبة وقضية التحكيم :

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة ، وذلك لأن الكعبة كانت رضما فوق القامة ، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذى كان فى جوفها ، وكانت مع ذلك قد تعرضت ـــ باعتبارها أثرا قديما ـــ للعوادى التى أدهت بنيانها ، وصدعت جدرانها ، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصا على مكانتها ، واتفقوا على أن لايدخلوا فى بنائها إلا طيبا ، فلا يدخلوا فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ، وكانوا يهابون هدمها ، فابتدأ بها الوليد ابن المغيرة المخزومى ، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شىء ، ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ، ثم أرادوا الأخذ فى البناء ، فجزأوا الكعبة ، وخصصوا لكل قبيلة جزءا منها ، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة ، وأخذوا يبنونها ، وتولى البناء بناء رومى اسمه باقوم ، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه ، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسا ، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه ، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، رضيناه ، هذا محمد . فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر طلب رداء ، فوضع الحجر وسطه ، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعا بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه ، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده ، فوضعه فى مكانه ، وهذا حل حصيف رضى به القوم .

(١) نفس المصدر الأول ١ / ١٩٠ ، ١٩١ ، والثانى ص ٦٠ ، و فتح البارى ٧ / ٥٠٧ وبين المصادر اختلاف يسير أخذنا ماهو الراجح عندنا .

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع ، وهى التى تسمى بالحجر والحطيم ، ورفعوا بابها من الأرض ؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا ، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعا سقفوه على ستة أعمدة .

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترا ، وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م ، والحجر موضوع على ارتفاع ١٫٥٠ م من أرضية المطاف . والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها ، متوسط ارتفاعها ٠٫٢٥ م ومتوسط عرضها ٠٫٣٠ م وتسمى بالشاذروان ، وهى من أصل البيت لكن قريشا تركتها [1].

السيرة الإجمالية قبل النبوة :

إن النبى ﷺ كان قد جمع فى نشأته خير مافى طبقات الناس من ميزات ، وكان طرازا رفيعا من الفكر الصائب ، والنظر السديد ، ونال حظا وافرا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف ، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناه الحق ، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات ، فعاف ماسواها من خرافة ، ونأى عنها ، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجد حسنا شارك فيه ، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة ، فكان لايشرب الخمر ، ولايأكل مما ذبح على النصب ، ولا يحضر للأوثان عيدا ، ولا احتفالا ، بل كان من أول نشأته نافرا من هذه المعبودات الباطلة ، حتى لم يكن شىء أبغض إليه منها ، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات

---

(١) انظر فى تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ١٢ / ١٩٢ إلى ١٩٧ ، وفقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٦٢ ، ٦٣ ، وصحيح البخارى باب فضل مكة و بنيانها ١ / ٢١٥ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٤ ، ٦٥ .

والعزى [١].

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا ، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها ، روى ابن الأثير « قال رسول الله ﷺ : ماهممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ماهممت به حتى أكرمني برسالته ، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ! فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت ماهذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع . فضرب الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبي فسألني ، فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة .. ثم ماهممت بسوء » [٢].

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق فقال : إزاري ، إزاري ، فشد عليه إزاره [٣] وفي رواية فما رؤيت له عورة بعد ذلك [٤].

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة ، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأعزهم جوارا ، وأعظمهم

---

(١) يدل عليه كلامه مع بحيرا . انظر ابن هشام ١ / ١٢٨ .

(٢) اختلفوا في صحة هذا الحديث فصححه الحاكم والذهبي وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية ٢ / ٢٨٧ .

(٣) صحيح البخاري باب بنيان الكعبة ١ / ٥٤٠ .

(٤) نفس المصدر مع شرح القسطلاني .

حلما ، وأصدقهم حديثا ، وألينهم عريكة ، وأعفهم نفسا ، وأكرمهم خيرا ، وأبرهم عملا ، وأوفاهم عهدا ، وآمنهم أمانة ، حتى سماه قومه « الأمين » ، لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية ، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها : يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق [1].

(1) صحيح البخارى ١ / ٣ .

فِي ظِلَالِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ

في غار حراء :

ولما تقاربت سنه ﷺ الأربعين ، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه ، حبب إليه الخلاء ، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور ، على مبعدة نحو ميلين من مكة ــ وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع ، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد ــ ومعه أهله قريبا منه ، فيقيم فيه شهر رمضان ، يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة ، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولامنهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه (١).

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له ، وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ولابد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى .. لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة ، وهموم الناس الصغيرة التى تشغل الحياة .

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٤٧ ، وابن هشام ١ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، في ظلال القرآن الجزء ٢٩ / ١٦٦ .

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات ، ينطلق في هذه العزلة شهرا من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ماوراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله (١).

جبريل ينزل بالوحي :

ولما تكامل له أربعون سنة — وهي رأس الكمال ، وقيل : ولها تبعث الرسل — بدأت آثار النبوة تلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة ، وتلك الآثار هي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، حتى مضت على ذلك ستة أشهر — ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة — فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض ، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن (٢).

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلا ، ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م ، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية ، وستة أشهر ، و١٢ يوما ، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و٢٢ يوما (٣).

---

(١) نفس المصدر الأخير ٢٩ / ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) قال ابن حجر : وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول ، بعد إكماله أربعين سنة ، وابتداء وحي اليقظة في رمضان (فتح الباري ١ / ٢٧) .

(٣) اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة ، وإنزال الوحي ، فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول ، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه رمضان ، وقيل هو شهر رجب (انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٧٥) ورجحنا الثاني — أي أنه شهر رمضان — لقوله تعالى : =

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضى الله تعالى عنها تروى لنا قصة هذه الوقعة التى كانت شعلة من نور اللاهوت ، أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال ، حتى غيرت مجرى الحياة ، وعدلت خط التاريخ . قالت عائشة رضى الله عنها :

أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ : فقلت : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق

﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ (٢ : ١٨٥) ولقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ (٩٧ : ١) ومعلوم أن ليلة القدر فى رمضان ، وهى المرادة بقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ﴾ (٤٤ : ٣) ولأن جواره ﷺ بحراء كان فى رمضان ، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف .

ثم اختلف القائلون ببدء نزول الوحى فى رمضان فى تحديد ذلك اليوم ، فقيل : هو اليوم السابع ، وقيل السابع عشر ، وقيل الثامن عشر (أنظر مختصر سيرة الرسول المذكور ص ٧٥ ، ورحمة للعالمين ١ / ٤٩) وقد أصر الخضرى فى محاضراته على أنه اليوم السابع عشر (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٩)

وإنما رجحنا أنه اليوم الحادى والعشرون مع أنا لم نر من قال به لأن أهل السيرة كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين ، ويؤيدهم مارواه أئمة الحديث عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين ، فقال : فيه ولدت فيه أنزل على ، وفى لفظ : ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل على فيه (صحيح مسلم ١ / ٣٦٨ ، أحمد ٥ / ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، البيهقى ٤ / ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، الحاكم ٢/ ٦٠٢) ويوم الاثنين فى رمضان من تلك السنة لايوافق إلا اليوم السابع ، والرابع عشر ، والحادى والعشرين ، والثامن والعشرين ، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلةالقدر لا تقع إلا فى وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالى ، فإذا قارنا بين قوله تعالى : إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وبين رواية أبى قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين وبين حساب التقويم العلمى فى وقوع يوم الاثنين فى رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان فى اليوم الحادى والعشرين من رمضان ليلا .

الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ﴾[1] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، مالى ، وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا ، والله مايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة — وكان امرءا تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى — فقالت له خديجة : ياابن عم ! اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزله الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى[2].

وروى الطبرى وابن هشام مايفيد أنه خرج من غار حراء بعدما فوجىء بالوحى ثم رجع وأتم جواره ، وبعد ذلك رجع إلى مكة ، ورواية الطبرى تلقى ضوءا على سبب خروجه وهاك نصها :

قال رسول الله ﷺ بعد ذكر مجيء الوحى : ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : إن الأبعد — يعنى نفسه — شاعر أو مجنون إلا تحدث بها عنى قريش أبدا! لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسى منه فلأقتلنها ، فلأستريحن ! قال :

---

(١) كان نزول الآيات إلى قوله تعالى : علم الإنسان مالم يعلم .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٢ ، ٣ ، وقد أخرجه البخارى مع اختلاف يسير فى اللفظ فى كتابى التفسير وتعبير الرؤيا .

فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد !! أنت رسول الله ، وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يامحمد ! أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ماأتقدم أمامي ، ولا أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مقامي ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي[1] حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا إليها (ملتصقا بها مائلا إليها) فقالت : ياأبا القاسم ! أين كنت ؟ فو الله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي ، ثم حدثتها بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يا ابن عم ، واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[2] ثم قامت فانطلقت إلى ورقة وأخبرته . فقال : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له : فليثبت ، فرجعت خديجة وأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف (إلى مكة) لقيه ورقة ، وقال بعد أن سمع منه خبره : والذى نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى[3].

فترة الوحي :

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس مايفيد أنها كانت أياما[4] وهذا الذى يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب . وأما

---

(١) نص الطبرى ٢ / ٢٠٧ .

(٢) نص ابن هشام ١ / ٢٣٧ ــ ٢٣٨ . .

(٣) ملخص من ابن هشام ١ / ٢٣٨ .

(٤) فتح البارى ١ / ٢٧ ، ١٢ / ٣٦٠ .

ماشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال ، وليس هذا موضع التفصيل فى رده .

وقد بقى رسول الله ﷺ فى أيام الفترة كئيبا محزونا ، تعتريه الحيرة والدهشة ، فقد روى البخارى فى كتاب التعبير مانصه :

وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى ﷺ فيما بلغنا حزنا عدا [1] منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يامحمد إنك رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك [2].

جبريل ينزل بالوحى مرة ثانية :

قال ابن حجر : وكان ذلك (أن انقطاع الوحى أياما) ، ليذهب ماكان ﷺ وجده من الروع ، وليحصل له التشوف إلى العود [3]، فلما تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف ﷺ معرفة اليقين أنه أضحى نبيا لله الكبير المتعال ، وأن ماجاءه سفير الوحى ينقل إليه خبر السماء وصار تشوفه وارتقابه لمجىء الوحى سببا فى ثباته واحتماله عندما يعود ، جاءه جبريل للمرة الثانية . روى البخارى عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى ، (قال :) .

فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه

---

(١) بالعين المهملة من العدو ، وهو الذهاب بسرعة ، وفى بعض النسخ « غدا » بالغين المعجمة .
(٢) صحيح البخارى كتاب التعبير باب أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة ٢ /١٠٣٤
(٣) فتح البارى ١ / ٢٧ .

حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني ، فزملوني ، فأنزل الله تعالى : يأيها المدثر إلى قوله : فاهجر ، ثم حمي الوحي وتتابع[1] .

استطراد في بيان أقسام الوحي :

قبل أن نأخذ في تفصيل حياة الرسالة والنبوة ، نرى أن نتعرف أقسام الوحي الذى هو مصدر الرسالة ومدد الدعوة . قال ابن القيم ــ وهو يذكر مراتب الوحي :

إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه ﷺ

الثانية : ماكان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبي ﷺ : إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ماعند الله لاينال إلا بطاعته .

الثالثة : أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعى عنه مايقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ماشاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

السادسة : ماأوحاه الله إليه ، وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب والرجز فاهجر ٢ / ٧٣٣

الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن . وثبوتها لنبينا ﷺ هو فى حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهى تكليم الله له كفاحا من غير حجاب ، وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف . انتهى مع تلخيص يسير فى بيان المرتبة الأولى والثامنة [1] والحق أن هذه الأخيرة ليست بثابتة .

(١) انظر زاد المعاد ١ / ١٨ .

أمر القيام بالدعوة إلى الله، وموادها

تلقى النبي ﷺ أوامر عديدة في قوله تعالى ﴿ يأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر ، وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولاتمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ﴾ أوامر بسيطة ساذجة فى الظاهر ، بعيدة المدى والغاية ، قوية الأثر والفعل فى الحقيقة ونفس الأمر .

١ — فغاية القيام بالإنذار أن لايترك أحدا ممن يخالف مرضاة الله فى عالم الوجود إلا وينذره بعواقبه الوخيمة حتى تقع رجفة وزلزال فى قلبه وروعه .

٢ — وغاية تكبير الرب أن لايترك لأحد كبرياء فى الأرض إلا وتكسر شوكتها ، وتقلب ظهرا لبطن ، حتى لا يبقى فى الأرض إلا كبرياء الله تعالى .

٣ — وغاية تطهير الثياب وهجران الرجز أن يبلغ فى تطهير الظاهر والباطن وفى تزكية النفس من جميع الشوائب والألواث إلى أقصى حد وكمال يمكن لنفس بشرية تحت ظلال رحمة الله الوارفة وحفظه وكلئه وهدايته ونوره ، حتى يكون أعلى مثل فى المجتمع البشرى ، تجتذب إليه القلوب السليمة ، وتحس بهيبته وفخامته القلوب الزائغة ، حتى ترتكز إليه الدنيا بأسرها وفاقا أو خلافا .

٤ — وغاية عدم الاستكثار بالمنة أن لا يعد فعالاته وجهوده فخيمة عظيمة ، بل لا يزال يجتهد فى عمل بعد عمل ، ويبذل الكثير من الجهد والتضحية والفناء ، ثم ينسى كل ذلك ، بل يفنى فى الشعور بالله بحيث لا يحس

ولا يشعر بما بذل وقدم .

٥ ــ وفى الآية الأخيرة إشارة إلى ما سيلقاه من أذى المعاندين من المخالفة والاستهزاء والسخرية إلى الحد والاجتهاد فى قتله وقتل أصحابه ، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين ، يأمر الله تعالى أن يصبر على كل من ذلك بقوة وجلادة ، لا لينال حظا من حظوظ نفسه ، بل لمجرد مرضاة ربه .

الله أكبر ! ماأبسط هذه الأوامر فى صورتها الظاهرة . وماأروعها فى إيقاعاتها الهادئة الخلابة ، ولكن ماأكبرها وأفخمها وأشدها فى العمل ، وماأعظمها إثارة لعاصفة هوجاء تحضر جوانب العالم كله ، وتتركها يتلاحم بعضها فى بعض .

والآيات نفسها تشتمل على مواد الدعوة والتبليغ ، فالإنذار نفسه يقتضى أن هناك أعمالا لها عاقبة سوأى يلقاها أصحابها ، ونظراً لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لايجازى فيها بكل مايعمل الناس ، بل ربما لايمكن المجازاة بجميع الأعمال . فالإنذار يقتضى يوما للمجازاة غير أيام الدنيا ، وهو الذى يسمى بيوم القيامة ويوم الجزاء والدين ، وهذا يستلزم حياة أخرى غير الحياة التى نعيشها فى الدنيا .

وسائر الآيات تطلب من العباد التوحيد الصريح ، وتفويض الأمور كلها إلى الله تعالى ، وترك مرضاة النفس ، ومرضاة العباد إلى مرضاة الله تعالى .

فإذن تتلخص هذه المواد فى :

(أ) التوحيد .

(ب) الإيمان بيوم الآخرة .

(ج) القيام بتزكية النفس بأن تتناهى عن المنكرات والفواحش التى تفضى إلى سوء العاقبة ، وبأن تقوم باكتساب الفضائل والكمالات وأعمال الخير .

(د) تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى .

(هـ) وكل ذلك بعد الإيمان برسالة محمد ﷺ وتحت قيادته النبيلة

وتوجيهاته الرشيدة .

ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوى — فى صوت الكبير المتعال — بانتداب النبى ﷺ لهذا الأمر الجلل ، وانتزعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة : يأيها المدثر ، قم فأنذر ، كأنه قيل : إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا ، أما أنت الذى تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم ؟ وما لك والراحة ؟ ومالك والفراش الدافىء ؟ والعيش الهادىء ؟ والمتاع المريح ! قم للأمر العظيم الذى ينتظرك ،.والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والنصب ، والكد والتعب . قم فقد مضى وقت النوم والراحة ، وماعاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل ، والجهاد الطويل الشاق . قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد .

إنها لكلمة عظيمة رهيبة ، تنزعه ﷺ من دفء الفراش فى البيت الهادىء والحضن الدافى ، لتدفع به فى الخضم ، بين الزعازع والأنواء ، وبين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء .

وقام رسول الله ﷺ ، فظل قائما بعدها أكثر من عشرين عاما ! لم يسترح ولم يسكن ، ولم يعش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائما على دعوة الله ، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به ، عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، عبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى ، عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً . لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوى الجليل ، وتلقى منه التكليف الرهيب ... جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء.[1]

وليست الأوراق الآتية إلا صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذى قام به رسول الله ﷺ خلال هذا الأمد .

---

(١) فى ظلال القرآن تفسير سورتى المزمل والمدثر ، ج٢٩ / ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٢ .

أدوار الدعوة ومراحلها

يمكن أن نقسم عهد الدعوة المحمدية ـــ على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ـــ إلى دورين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهما :

(١) الدور المكى ، ثلاث عشرة سنة تقريبا .

(٢) الدور المدنى ، عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من الدورين على مراحل لكل منها خصائص تمتاز بها عن غيرها ، ويظهر ذلك جليا بعد النظر الدقيق فى الظروف التى مرت بها الدعوة خلال الدورين .

ويمكن تقسيم الدور المكى إلى ثلاث مراحل :

١ ـــ مرحلة الدعوة السرية ، ثلاث سنين .

٢ ـــ مرحلة إعلان الدعوة فى أهل مكة ، من بداية السنة الرابعة من النبوة الى أواخر السنة العاشرة .

٣ ـــ مرحلة الدعوة خارج مكة ، وفشوها فيهم ، من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة .

أما مراحل الدور المدنى فسيجىء تفصيلها فى موضعه .

المرحلة الأولى
جهاد الدعوة

ثلاث سنوات من الدعوة السرية :

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب ، وكان بها سدنة الكعبة ، والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب ، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسرا وشدة عما لو كان بعيدا عنها . فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث ، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة فى بدء أمرها سرية ، لئلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم .

الرعيل الأول :

وكان من الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولا على ألصق الناس به وآل بيته ، وأصدقائه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه خيرا ممن يعرفهم ويعرفونه ، يعرفهم بحب الله الحق والخير ، ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح ، فأجابه من هؤلاء — الذين لم تخالجهم ريبة قط فى عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره — جمع عرفوا فى التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين ، وفى مقدمتهم زوجة النبى ﷺ أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد ، ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي[1] وابن عمه على بن أبي طالب — وكان صبيا يعيش فى كفالة الرسول — وصديقه الحميم أبو بكر الصديق . أسلم هؤلاء فى أول يوم من أيام الدعوة [2].

ثم نشط أبو بكر فى الدعوة إلى الإسلام ، وكان رجلا مألفا محببا سهلا ، ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموى ، والزبير بن العوام الأسدى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان ، وطلحة بن عبيد الله التيمى . فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام .

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشى ، ثم تلاهم أمين هذه الأمة[3] أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد العدوى ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود الهذلى وخلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً [4]. وفى ذكر بعضهم فى السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء

(١) كان قد أسر ورق ، فملكته خديجة ، ووهبته لرسول الله ﷺ ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته ، فاختار عليهما رسول الله ﷺ ، فتبناه حسب قواعد العرب ، وكان لذلك يقال : زيد بن محمد ، حتى جاء الإسلام فأبطل التبنى .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٥٠ .

(٣) انظر لتسميته بهذا اللقب صحيح البخارى مناقب أبى عبيدة بن الجراح ١ / ٥٣٠ .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٥ إلى ٢٦٢ .

حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به [1].

أسلم هؤلاء سرا ، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيا ؛ لأن الدعوة كانت لاتزال فردية وسرية ، وكان الوحي قد تتابع وحمى نزوله بعد نزول أوائل المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتمل على تحسين تزكية النفوس ، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا ، تصف الجنة والنار كأنهما رأى عين ، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك .

الصلاة :

وكان في أوائل مانزل الأمر بالصلاة ، قال مقاتل بن سليمان : فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، لقول تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ (٤٠ : ٥٥) وقال ابن حجر : كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعا ، وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا ؟ فقيل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . انتهى . وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولا عن زيد بن حارثة : أن رسول الله ﷺ في أول ماأوحي إليه أتاه جبريل ، فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه . وقد روى ابن ماجة بمعناه . وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس : وكان ذلك من أول الفريضة [2].

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي

---

(١) نفس المصدر ١ / ٢٦٢ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٨٨ .

ﷺ وعليا يصليان مرة ، فكلمهما فى ذلك ، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات [1] .

الخبر يبلغ إلى قريش إجمالا :

يبدو بعد النظر فى نواح شتى من الوقائع أن الدعوة — فى هذه المرحلة — وإن كانت سرية وفردية ، لكن بلغت أنباءها إلى قريش ، بيد أنها لم تكترث بها .

قال محمد الغزالى : وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما ، ولعلها حسبت محمدا أحد أولئك الديانين ، الذين يتكلمون فى الألوهية وحقوقها ، كما صنع أمية بن أبى الصلت ، وقس بن ساعدة ، وعمرو بن نفيل وأشباههم ، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته [2] .

° ° °

مرت ثلاث سنين والدعوة لم تزل سرية وفردية ، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون ، وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها ثم تنزل الوحى يكلف رسول الله ﷺ بمعالنته قومه ، ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم .

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٤٧ .

(٢) فقه السيرة ص ٧٦ .

المرحلة الثانية
الدعوة جهاراً

أول أمر بإظهار الدعوة :

أول مانزل بهذا الصدد قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (٢٦ : ٢١٤) والسورة التى وقعت فيها الآية ـــ وهى سورة الشعراء ـــ ذكرت فيها أولا قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل ، ونجاتهم من فرعون وقومه ، وإغراق آل فرعون معه ، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التى مر بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله .

أرى أن هذا التفصيل إنما جىء به حين أمر الرسول ﷺ بدعوة قومه إلى الله ، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجا لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة ، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم .

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل ، من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة ـــ علاوة على ماذكر من أمر فرعون وقومه ـــ ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم وبما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على

التكذيب ، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين .

الدعوة فى الأقربين :

وأول مافعل رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أنه دعا بنى هاشم فحضروا ، ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلا . فبادره أبو لهب وقال : وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصُّباة . واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك ، فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ماأنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئت به ، فسكت رسول الله ﷺ ، ولم يتكلم فى ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : « الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . ثم قال : إن الرائد لايكذب أهله والله الذى لا إله إلا هو ، إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا » . فقال أبو طالب : ماأحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم إلى ماتحب ، فامض لما أمرت . فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسى لاتطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعه مابقينا [1] .

---

(١) ابن الأثير ، فقه السيرة ص ٧٧ ، ٧٨ .

على جبل الصفا :

وبعدما تأكد النبى ﷺ من تعهد أبى طالب بحمايته ، وهو يبلغ عن ربه ، قام يوما على الصفا فصرخ : ياصباحاه : فاجتمع إليه بطون قريش ، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر . وقد روى البخارى طرفا من هذه القصة عن ابن عباس . قال : لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبى ﷺ على الصفا ، فجعل ينادى يابنى فهر !. يابنى عدى ! لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو ؟ فجاء أبو لهب وقريش . فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقا ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ (1).

وروى مسلم طرفا آخر من هذه القصة عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعم وخص . فقال : يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى كعب ! أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة بنت محمد ! أنقذى نفسك من النار ، فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها (2).

هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم . وأن عصبية القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله .

الصدع بالحق وردود فعل المشركين :

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه فى أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى

---

(1) صحيح البخارى ٢ / ٧٠٢ ، ٧٤٣ ، والرواية مخرجة فى صحيح مسلم أيضا ١ / ١١٤ .

(2) صحيح مسلم ١ / ١١٤ ، صحيح البخارى ١ / ٣٨٥ ، ٢ / ٧٠٢ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٦٠ .

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (١٥ : ٩٤) فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات الشرك وترهاته ، ويذكر حقائق الأصنام ومالها من قيمة في الحقيقة ، يضرب بعجزها الأمثال ، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين .

انفجرت مكة بمشاعر الغضب ، وماجت بالغرابة والاستنكار ، حين سمعت صوتا يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام ، كأنه صاعقة قصفت السحاب ، فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادىء ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها .

قامت لأنها عرفت أن معنى الإيمان بنفي الألوهية عما سوى الله ، ومعنى الإيمان بالرسالة وباليوم الآخر هو الانقياد التام والتفويض المطلق ، بحيث لا يبقى لهم خيار في أنفسهم وأموالهم ، فضلا عن غيرهم . ومعنى ذلك انتقاء سيادتهم وكبريائهم على العرب ، التي كانت بالصبغة الدينية ، وامتناعهم عن تنفيذ مرضاتهم أمام مرضاة الله ورسوله ، وامتناعهم عن المظالم التي كانوا يفترونها على الأوساط السافلة ، وعن السيئات التي كانوا يجترحونها صباح مساء . عرفوا هذا المعنى فكانت نفوسهم تأبى عن قبول هذا الوضع « المخزى » لا لكرامة وخير ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ (٧٥ : ٥) .

عرفوا كل ذلك جيدا ، ولكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين ، أعلى مثل للقيم البشرية ومكارم الأخلاق ، لم يعرفوا له نظيرا ولا مثيلا خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام ؟ ماذا سيفعلون ؟ تحيروا في ذلك ، وحق لهم أن يتحيروا .

وبعد إدارة فكرتهم لم يجدوا سبيلا إلا أن يأتوا إلى عمه أبي طالب ، فيطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عما هو فيه ، ورأوا لإلباس طلبهم لباس الجد والحقيقة أن يقولوا : إن الدعوة إلى ترك آلهتهم ، والقول بعدم نفعها وقدرتها سبة قبيحة وإهانة شديدة لها ، وفيه تسفيه وتضليل لآبائهم الذين كانوا على هذا

الدين ، وجدوا هذا السبيل فتسارعوا إلى سلوكها .

وفد قريش إلى أبي طالب :

قال ابن إسحاق : مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ماهو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه .[1]

المجلس الاستشارى لكف الحجاج عن استماع الدعوة :

وخلال هذه الأيام أهم قريشا أمر آخر ، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج ، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم ، فرأت أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب ، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة ، فقال لهم الوليد : أجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فأنت فقل ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لا والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، ماهو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا :

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٥ .

فتقول : ساحر . قال : ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر . جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك (١).

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ماعرضوا له ، قالوا : أرنا رأيك الذى لا غضاضة فيه ، فقال لهم : أمهلونى حتى أفكر فى ذلك ، فظل الوليد يفكر ويفكر ، حتى أبدى لهم رأيه الذى ذكر آنفا (٢).

وفى الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر (من ١١ إلى ٢٦) وفى خلالها صور كيفية تفكيره ، فقال : ﴿ إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ﴾ .

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا فى تنفيذه ، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره (٣).

والذى تولى كبر ذلك هو أبو لهب ، فقد كان رسول الله ﷺ يتبع الناس إذا وافى الموسم فى منازلهم وفى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، يدعوهم إلى الله ، وأبو لهب وراءه يقول : لاتطيعوه فإنه صابىء كذاب (٤).

---

(١) نفس المصدر ١ / ٢٧١ .

(٢) انظر فى ظلال القرآن ٢٩ ، ١٨٨ .

(٣) ابن هشام ١ / ٢٧١ .

(٤) روى فعله هذا الترمذى عن يزيد بن رومان و .. عن طارق بن عبد الله المحارف ورواه الإمام أحمد فى مسنده ٣ / ٤٩٢ ، ٤ / ٣٤١ .

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

أساليب شتى لمجابهة الدعوة :

ولما رأت قريش أن محمدا ﷺ لايصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك . فكروا مرة أخرى ، واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تتلخص فيما يأتي :

١ ـــ السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك ، قصدوا بها تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة ، وشتائم سفيهة ، فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿ وقالوا يأيها الذى نزّل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (١٥ : ٦) ويصمونه بالسحر والكذب ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ (٣٨ : ٤) وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة ، وعواطف منفعلة هائجة ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ (٦٨ : ٥١) وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا : هؤلاء جلساؤه ﴿ مّن الله عليهم من بيننا ﴾ (٦ : ٥٣) قال تعالى : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ (٦ : ٥٣) وكانوا كما قص الله علينا ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وماأرسلوا عليهم حافظين ﴾ (٨٣ : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

٢ ـــ تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات ، وبث الدعايات الكاذبة ، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال فى تدبر دعوته ، فكانوا يقولون عن القرآن : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ (٢٥ : ٥) ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ (٢٥ : ٤) وكانوا يقولون ﴿ إنما

يعلمه بشر ﴾ (١٦ : ١٠٣) وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ ﴿ مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾ (٢٥ : ٧) وفى القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها .

٣ ـــ معارضة القرآن بأساطير الأولين ، وتشغيل الناس بها عنه . فقد ذكروا أن النضر بن الحارث قال مرة لقريش : يامعشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر . لا والله ماهو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن . لا والله ماهو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعر . لا والله ماهو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجة ورجزه ، وقلتم : مجنون . لا والله ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يامعشر قريش فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب النضر إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ، ويقول : والله ما محمد بأحسن حديثا منى ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى(١) .

وتفيد رواية ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قينات ، فكان لا يسمع برجل مال إلى النبى ﷺ إلا سلط عليه واحدة منها ، تطعمه وتسقيه ، وتغنى له ، حتى لايبقى له ميل إلى الإسلام ، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٥٨ ، وتفهيم القرآن ٤ / ٨ ، ٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١١٧ ، ١١٨ .

الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ (١).

٤ ــ مساومات حاولوا بها أن يلتقى الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ماهم عليه ، ويترك النبى ﷺ بعض ماهو عليه ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ (٦٨ : ٩) فهناك رواية رواها ابن جرير والطبرانى تفيد أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم عاما ، ويعبدون ربه عاما . ورواية أخرى لعبد بن حميد تفيد أنهم قالوا : لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك (٢).

وروى ابن إسحاق بسنده ، قال : اعترض رسول الله ﷺ ــ وهو يطوف بالكعبة ــ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية ابن خلف والعاص بن وائل السهمى ــ وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ــ فقالوا يامحمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد مانعبد فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ قل يأيها الكافرون . لا أعبد ماتعبدون ﴾ السورة كلها (٣).

وحسم الله مفاوضتهم المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة .

ولعل اختلاف الروايات لأجل أنهم حاولوا هذه المساومة مرة بعد أخرى .

الاضطهادات :

أعمل المشركون الأساليب التى ذكرناها شيئا فشيئاً لكف الدعوة بعد

---

(١) تفهيم القرآن ٤ / ٩ .
(٢) تفهيم القرآن ٦ / ٥٠١ ، ٢٠٥ .
(٣) ابن هشام ١ / ٣٦٢ .

ظهورها فى بداية السنة الرابعة من النبوة ، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب ، لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب ، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لا تجدى لهم نفعا فى كف الدعوة الإسلامية ؛ اجتمعوا مرة أخرى ، وكونوا منهم لجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجلا من سادات قريش ، رئيسها أبو لهب عم رسول الله ﷺ ، وبعد التشاور والتفكر اتخذت هذه اللجنة قرارا حاسما ضد رسول الله ﷺ ، وضد أصحابه . فقررت أن لا تألوا جهدا فى محاربة الإسلام ، وإيذاء رسوله ، وتعذيب الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام [1].

اتخذوا هذا القرار وصمموا على تنفيذه . أما بالنسبة إلى المسلمين — ولا سيما المستضعفين منهم — فكان ذلك سهلا جدا . وأما بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فإنه كان رجلا شهما وقورا ذا شخصية فذة ، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء ، بحيث لا يقابل مثلها إلا بالإجلال والتشريف ، ولا يجترىء على اقتراف الدنايا والرذائل ضده إلا أرذال الناس وسفهاؤهم ، ومع ذلك كان فى منعة أبى طالب ، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين ، كان معظما فى أصله ، معظما بين الناس ، فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته ، إن هذا الوضع أقلق قريشا وأقامهم وأقعدهم ، ولكن إلام هذا الصبر الطويل أمام دعوة تتشوف إلى القضاء على زعامتهم الدينية ، وصدارتهم الدنيوية .

وبدأوا الاعتداءات ضد النبى ﷺ ، وعلى رأسهم أبو لهب ، فقد اتخذ موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول قبل أن تهم قريش بذلك . وقد أسلفنا مافعل بالنبى ﷺ فى مجلس بنى هاشم ، ومافعل على الصفا ، وقد ورد فى بعض الروايات أنه — حينما كان على الصفا — أخذ حجرا ليضرب به النبى ﷺ [2].

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) روى ذلك الترمذى .

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة ، حتى طلقاهما [1].

ولما مات عبد الله — الابن الثاني لرسول الله ﷺ — استبشر أبو لهب ، وهرول إلى رفقائه يبشرهم بأن محمداً صار أبتر [2].

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه ، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب ، بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه [3].

وكانت امرأة أبي لهب — أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان — لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلا ، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها ، وتطيل عليه الافتراء والدس ، وتؤجج نار الفتنة ، وتثير حربا شعواء على النبي ﷺ ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

ولما سمعت مانزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ ، فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : ياأبا بكر ! أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إني لشاعرة . ثم قالت :

مذمما عصينا . وأمره أبينا ، ودينه قلينا

---

(١) في ظلال القرآن ٣٠ / ٢٨٢ ، تفهيم القرآن ٦ / ٥٢٢ .

(٢) تفهيم القرآن ٦ / ٤٩٠ .

(٣) جامع الترمذي .

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يارسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتني ، لقد أخذ الله يبصرها عني[1].

وروى أبو بكر البزار هذه القصة . وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت : « أبا بكر هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ماينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق » .

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره ، كان بيته ملصقا ببيته ، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته .

قال ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدى بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي ـ وكانوا جيرانه ـ لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص[2]، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرا ليستتر به منهم إذا صلى ، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يابني عبد مناف ! أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق[3].

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)[4] فجاء به فنظر ، حتى إذا سجد النبي لله وضع على ظهره بين كتفيه ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
(٢) هو أبو الخليفة الأموي مروان بن الحكم .
(٣) ابن هشام ١ / ٤١٦ .
(٤) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ١ / ٥٤٣ .

وأنا أنظر ، لا أغني شيئا ، لو كانت لى منعة ، قال : فجعلوا يضحكون ، ويحيل بعضهم على بعض (أى يتمايل بعضهم على بعض مرحا وبطرا) ، ورسول الله ﷺ ساجد ، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة ، فطرحته عن ظهره ، فرفع رأسه ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وقال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ، ثم سمى اللهم عليك بأبي جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة . وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ــ وعد السابع فلم يحفظه ــ فو الذى نفسي بيده لقد رأيت الذي عدّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب ، قليب بدر[1].

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه . وفيه نزل : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قال ابن هشام : الهمزة : الذى يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ، ويغمز به . واللمزة : الذى يعيب الناس سرا ويؤذيهم[2].

أما أخوه أبى بن خلف فكان هو وعقبة بن أبى معيط متصافيين . وجلس عقبة مرة إلى النبى ﷺ وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أبيا أنّبه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل . وأبى بن خلف نفسه فت عظما رميما ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ[3].

وكان الأخنس بن شريق الثقفى ممن ينال من رسول الله ﷺ ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ماكان عليه ، وهى فى قوله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشآء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم ﴾ (٦٨ : ١٠ : ١١ : ١٢ : ١٣) .

وكان أبو جهل يجيء أحيانا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن،ثم

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الوضوء ، باب إذا ألقى على المصلى قذر أو جيفة ١ / ٣٧ .
(٢) ابن هشام ١ / ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
(٣) نفس المصدر ١ / ٣٦١ ، ٣٦٢ .

يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالا بما يفعل ، فخورا بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئاً يذكر ، وفيه نزل : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ إلخ[1] وكان يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى فى الحرم ، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال : يامحمد ألم أنهك عن هذا ، وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره . فقال : يامحمد بأى شيء تهددنى ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادى ناديا . فأنزل ﴿ فليدع ناديه ﴾[2] وفى رواية أن النبى ﷺ أخذ بخناقه ، وهزه ، وهو يقول له ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ فقال عدو الله : أتوعدني يامحمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا ، وإني لأعز من مشى بين جبليها[3] .

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار ، بل ازداد شقاوة فيما بعد . أخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم ! فقال : واللات والعزى ، لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ، زعم ليطأ رقبته ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، فقالوا : مالك ياأبا الحكم ؟ قال : إن بينى وبينه لخندقا من نار وهؤلاء أجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا[4].

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة إلى النبى ﷺ مع ما لشخصيته الفذة من وقار وجلال فى نفوس العامة والخاصة ، ومع ما له من منعة أبى طالب أعظم رجل محترم فى مكة ، أما بالنسبة إلى المسلمين — ولا سيما الضعفاء منهم — فإن الإجراءات كانت أقسى من ذلك وأمر ، ففى نفس الوقت قامت كل قبيلة

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٩ / ٢١٢ .
(٢) نفس المصدر ٣٠ / ٢٠٨ .
(٣) نفس المصدر ٢٩ / ٢١٢ .
(٤) رواه مسلم فى صحيحه .

تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب ، ومن لم يكن له قبيلة فأجرت عليهم الأوباش والسادات ألوانا من الاضطهاد ، يفزع من ذكرها قلب الحليم .

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال ، والجاه ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به (١).

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته (٢).

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته ، وكان من أنعم الناس عيشا ، فتخشف جلده تخشف الحية (٣).

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي ، فكان أمية يضع في عنقه حبلا ، ثم يسلمه إلى الصبيان ، يطوفون به في جبال مكة ، حتى كان يظهر أثر الحبل في عنقه ، وكان أمية يشده شدا ثم يضربه بالعصا ، وكان يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول — وهو في ذلك — أحد ، أحد ، حتى مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به ، فاشتراه بغلام أسود ، وقيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقه (٤).

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون — وعلى رأسهم أبو جهل — يخرجونهم إلى الأبطح

---

(١) ابن هشام ١ / ٣٢٠ .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٥٧ .

(٣) نفس المصدر ١ / ٥٨ ، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠ .

(٤) رحمة للعالمين ١ / ٥٧ ، تلقيح الفهوم ص ٦١ ، ابن هشام ١ / ٣١٧ ، ٣١٨ .

إذا حميت الرمضاء ، فيعذبونهم بحرها . ومر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال : صبرا آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر فى العذاب ، وطعن أبو جهل سمية — أم عمار — فى قبلها بحربة فماتت ، وهى أول شهيدة فى الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى ، وبالتغريق أخرى . وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمدا ، أو تقول : فى اللات والعزى خيرا ، فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء باكيا معتذرا إلى النبى ﷺ ،فأنزل الله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ الآية (١٦ : ١٠٦) [١].

وكان أبو فكيهة — واسمه أفلح — مولى لبنى عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الحبل ، ثم يجرونه على الأرض [٢].

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذيقونه أنواعا من التنكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا ، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة ، ثم وضعوا عليه حجرا ؛ حتى لا يستطيع أن يقوم [٣].

وكانت زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس إماء أسلمن ، وكان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ماذكرنا . وأسلمت جارية لبنى مؤمل — وهم حى من بنى عدى — فكان عمر بن الخطاب — وهو يومئذ مشرك — يضربها ، حتى إذا مل قال : إنى لم أترك إلا ملالة [٤].

وابتاع أبو بكر هذه الجوارى فأعتقهن ، كما أعتق بلالا وعامر بن فهيرة [٥] .

---

(١) ابن هشام ١ / ٣١٩ ، ٣٢٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٨٢ وروى بعض ذلك العوفى عن ابن عباس، انظر مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩٢ .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٥٧ ، من إعجاز التنزيل ص ٥٣ .

(٣) نفس المصدر ١ / ٥٧ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠ .

(٤) رحمة للعالمين ١ / ٥٧ ، ابن هشام ١ / ٣١٩ .

(٥) ابن هشام ١ / ٣١٨ ، ٣١٩ .

وكان المشركون يلفون بعض الصحابة فى إهاب الإبل والبقر ، ثم يلقونه فى حر الرمضاء ، ويلبسون بعضا آخر درعا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة [(١)].

وقائمة المعذبين فى الله طويلة ومؤلمة جدا ، فما من أحد علموا بإسلامه إلا تصدوا له وآذوه .

دار الأرقم :

كان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله ﷺ المسلمين عن إعلان إسلامهم قولا أو فعلا ، وأن لا يجتمع بهم إلا سرا ؛ لأنه إذا اجتمع بهم علنا فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين مايريد من تزكية المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وربما يفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين ، بل وقع ذلك فعلا فى السنة الرابعة من النبوة ، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانو يجتمعون فى الشعاب ، فيصلون فيها سرا ، فرآهم نفر من كفار قريش ، فسبوهم وقاتلوهم ، فضرب سعد بن أبى وقاص رجلا فسال دمه ، وكان أول دم أهريق فى الإسلام [(٢)].

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم ، فكان من الحكمة الاختفاء ، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم ، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهرانى المشركين ، لا يصرفه عن ذلك شيء ، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرا ؛ نظرا لصالحهم وصالح الإسلام ، وكانت دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى على الصفا . وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم ، فكان أن اتخذها مركزا لدعوته ، ولاجتماعه بالمسلمين من السنة الخامسة من

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٥٨ .

(٢) ابن هشام ١ / ٢٦٣ ، مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب ص ٦٠ .

النبوة [1].

الهجرة الأولى إلى الحبشة :

كانت بداية الاضطهادات فى أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة ، بدأت ضعيفة ،ثم لم تزل يوما فيوما وشهرا فشهرا حتى اشتدت وتفاقمت فى أواسط السنة الخامسة ، حتى نبا بهم المقام فى مكة ، وأوعزتهم أن يفكروا فى حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم ، وفى هذه الساعة الضنكة الحالكة نزلت سورة الكهف ،ردودا على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبى ﷺ ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص ، فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين ، فقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين ، متوكلا على الله ﴿ وإذ اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ﴾ (١٨ : ١٦) .

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجرى ولا تنتج حسب الظاهر دائما ، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر . ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تماما ، وسيصادر هؤلاء الطغاة المشركون — إن لم يؤمنوا — أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين .

وقصة ذى القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء . وأن الفلاح إنما هو فى سبيل الإيمان دون الكفر ، وأن الله لا يزال يبعث من عباده — بين آونة وأخرى — من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه ، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هو عباد الله الصالحون . ثم نزلت

---

(١) نفس المصدر الأخير ص ٦١ .

سورة الزمر تشير إلى الهجرة ، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (٣٩ : ١٠) وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشى ملك الحبشة ملك عادل ، لا يظلم عنده أحد ، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من الفتن .

وفى رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة . كان مكونا من اثنى عشر رجلا وأربع نسوة ، رئيسهم عثمان بن عفان ، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ ، وقد قال النبى ﷺ فيهما : إنهما أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام [١].

كان رحيل هؤلاء تسللا فى ظلمة الليل ـــ حتى لا تفطن لهم قريش ـــ خرجو إلى البحر ، ويمموا ميناء شعيبة ، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة ، وفطنت لهم قريش ، فخرجت فى آثارهم ، لكن لما بلغت إلى الشاطىء كانوا قد انطلقوا آمنين ، وأقام المسلمون فى الحبشة فى أحسن جوار [٢].

وفى رمضان من نفس السنة خرج النبى ﷺ إلى الحرم ، وهناك جمع كبير من قريش ، كان فيه ساداتها وكبراؤها ، فقام فيهم ، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة ، إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك ، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضا ، من قولهم ﴿ لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (٤١ : ٢٦) فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم كلام إلهى رائع خلاب ـــ لايحيط بروعته وجلالته البيان ـــ تفانوا عما هم فيه ، وبقى كل واحد مصغيا إليه ، لا يخطر

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٩٢ ، ٩٣ ، زاد المعاد ١ / ٢٤ ، رحمة للعالمين ١ / ٦١ .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٦١ ، زاد المعاد ١ / ٢٤ .

بباله شيء سواه ، حتى إذا تلا فى خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ (٥٣ : ٦٢) ثم سجد ، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجدا ، وفى الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد فى نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين[1].

وسقط فى أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم ، فارتكبوا عين ماكانوا يبذلون قصارى جهدهم فى محوه وإفنائه ، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ، ممن لم يحضر هذ المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير ، وأنه قال عنها « تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى » ، جاءوا بهذا الإفك المبين ، ليعتذروا عن سجودهم مع النبى ﷺ ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب ، ويطيلون الدس والافتراء .[2]

بلغ هذا الخبر إلى مهاجرى الحبشة ، ولكن فى صورة تختلف تماما عن صورته الحقيقية ، بلغهم أن قريشا أسلمت ، فرجعوا إلى مكة فى شوال من نفس السنة ، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار ، وعرفوا جلية الأمر ، رجع منهم من رجع إلى الحبشة ، ولم يدخل فى مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيا ، أو فى جوار رجل من قريش[3].

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسطت بهم عشائرهم ، فقد كان صعب على قريش مابلغها عن النجاشى من حسن الجوار ، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة

---

(١) روى البخارى قصة السجود مختصرا عن ابن مسعود وابن عباس ، انظر باب سجدة النجم وباب سجود المسلمين والمشركين ١ / ١٤٦ ، وباب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٣ .

(٢) تفهيم القرآن ٥ / ٢٨٨ وإلى هذا التوجيه جنح المحققون فى حديث الغرانيق .

(٣) نفس المصدر ٥ / ١٨٨ . زاد المعاد ١ / ٢٤ ، ٢ / ٤٤ ، وابن هشام ١ / ٣٦٤ .

أخرى ، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع ، ويسر الله لهم السفر ، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا .

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا إن كان فيهم عمار ، فإنه يشك فيه ، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة [1]. وبالأول جزم العلامة محمد سليمان المنصورفوري [2].

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة :

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم ، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين ، وهما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة ـــ قبل أن يسلما ـــ وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته ، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة ، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون ، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم ، حضرا إلى النجاشي ، وقدما له الهدايا ثم كلماه ، فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

وقالت البطارقة : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم .

ولكن رأى النجاشي أنه لابد من تمحيص القضية ، وسماع أطرافها

---

(١) انظر زاد المعاد ١ / ٢٤ ، رحمة للعالمين ١ / ٦١ .

(٢) انظر المصدر الأخير .

جميعا ، فأرسل إلى المسلمين ، ودعاهم ، فحضروا ، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنا ماكان . فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب ــ وكان هو المتكلم عن المسلمين ــ : أيها الملك ،كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل منا القوى الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ،وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ــ فعدد عليه أمور الإسلام ــ فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ماجاءنا به من دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ . فقرأ عليه صدراً من ﴿ كهيعص ﴾ فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون ــ يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه ــ فخرجا ، وقال عمرو بن العاص لعبد الله بن ربيعة : والله لآتينهم غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم .

فقال له عبد الله بن ربيعة : لا تفعل ، فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا ، ولكن أصر عمرو على رأيه .

فلما كان الغد قال للنجاشي : أيها الملك ! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ، ففزعوا ، ولكن أجمعوا على الصدق ، كائنا ما كان ، فلما دخلوا عليه ، وسألهم قال له جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عودا من الأرض ، ثم قال : والله ماعدا عيسى بن مريم ماقلت هذا العود ، فتناخرت بطارقته ، فقال : وإن نخرتم والله .

ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي — والشيوم : الآمنون بلسان الحبشة — من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، مأأحب أن لي دبرا من ذهب وأني آذيت رجلا منكم — والدبر الجبل بلسان الحبشة .

ثم قال لحاشيته : ردّوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لي بها ، فو الله ماأخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه .

قالت أم سلمة التي تروى هذه القصة : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ماجاءوا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار [(١)].

هذه رواية ابن إسحق ، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر ، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين [(٢)] لكن الأسئلة والأجوبة التي ذكروا أنها دارت بين النجاشي وجعفر في الوفادة الثانية

---

(١) ابن هشام ملخصا ١ / ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، وفي تلك الصفحات تفصيل الأسئلة والأجوبة .

هى نفس الأسئلة والأجوبة التى ذكرها ابن إسحق تقريبا ، ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت فى أول مرافعة قدمت إلى النجاشى .

أخفقت حيلة المشركين ، وفشلت مكيدتهم ، وعرفوا أنهم لا يشيعون ضغينتهم إلا فى حدود سلطانهم ، ونشأت فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة . رأوا أن التفصى عن هذه « الداهية » لايمكن إلا بكف رسول الله ﷺ عن دعوته تماما ، وإلا فبإعدامه ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأبو طالب يحوطه ويحول بينه وبينهم ؟ رأوا أن يواجهوا أبا طالب فى هذا الصدد .

قريش يهددون أبا طالب :

جاءت سادات قريش إلى أبى طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا . وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لانصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبى طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : ياابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعُف عن نصرته ، فقال : ياعم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر — حتى يظهره الله أو أهلك فيه — ماتركته ، ثم استعبر وبكى ، وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا [1]

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة وأبشر وقر بذاك منك عيونا (١)

قريش بين يدى أبى طالب مرة أخرى :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض فى عمله ؛ وعرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم فى ذلك ، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له : يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسوموننى ، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه . هذا والله مالا يكون أبدا . فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله ياأبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال : والله ما أنصفتمونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ ، فاصنع مابدا لك (٢).

لا تذكر المصادر التاريخية زمن هاتين الوفادتين ، لكن يبدو بعد التأمل فى القرائن والشواهد أنهما كانتا فى أواسط السنة السادسة من النبوة ، وأن الفصل بين الوفادتين لم يكن إلا يسيرا .

فكرة الطغاة فى إعدام النبى ﷺ :

وبعد فشل قريش وخيبتهم فى الوفادتين عادوا إلى ضراوتهم وتنكيلهم

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ص ٦٨ .
(٢) ابن هشام ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

بأشد مما كان قبل ذلك ، وخلال هذه الأيام نشأت فى طغاتهم فكرة إعدامه ﷺ بطريق أخرى ، وكانت هذه الفكرة وتلك الضراوة هى التى سببت فى تقوية الإسلام ببطلين جليلين من أبطال مكة ، وهما : حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

فمن تلك الضراوة أن عتيبة بن أبى لهب أتى يوما إلى رسول الله ﷺ فقال : أنا أكفر بـ « النجم إذا هوى » و « بالذى دنا فتدلى » ثم تسلط عليه بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل فى وجهه ، إلا أن البزاق لم يقع عليه ، وحينئذ دعا عليه النبى ﷺ وقال . اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، وقد استجيب دعاؤه ﷺ ، فقد خرج عتيبة مرة فى نفر من قريش ، حتى نزلوا فى مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتيبة يقول : ياويل أخى ، هو والله آكلى كما دعا محمد علىّ ، قتلنى وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه [(١)].

ومنها ماذكر أن عقبة بن أبى معيط وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان [(٢)].

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ مارواه ابن إسحق فى حديث طويل ، قال : قال أبو جهل :

يامعشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ماترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشىء أبدا ، فامض لما تريد .

---

(١) تفهيم القرآن ٦ / ٥٢٢ ، من الاستيعاب ، والإصابة ، ودلائل النبوة ، والروض الانف ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٣٥ .
(٢) نفس المصدر الأخير ص ١١٣ .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، فقام يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ، ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه ، مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : مالك ياأبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ماقلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، لا والله مارأيت مثل هامته ، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهمّ بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحق : فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه (١).

وبعد ذلك فعل أبو جهل برسول الله ﷺ ، ماأدى إلى إسلام حمزة رضى الله عنه وسيأتى .

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة الإعدام تنضج فى قلوبهم ، روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمعوا فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا : مارأينا مثل ماصبرنا عليه من أمر هذا الرجل ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجهه ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يامعشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن مايجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ماكنت جهولا .

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٨ — ٢٩٩ .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه . قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد مارأيت قريشا نالوا منه قط (١). انتهى ملخصا .

وفى رواية البخارى عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبى ﷺ ، قال : بينا النبي ﷺ يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبى ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ (٢).

وفى حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبى بكر ، فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ؟ فلهوا عنه ، وأقبلوا على أبى بكر ، فرجع إلينا لا نمس شيئا من غدائره إلا رجع معنا (٣).

إسلام حمزة رضى الله عنه :

خلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق نور للمقهورين طريقهم ، ألا وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، أسلم فى أواخر السنة السادسة من النبوة ، والأغلب أنه أسلم فى شهر ذى الحجة .

وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يوما عند الصفا ، فآذاه ونال منه ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه ، ثم ضربه أبو جهل بحجر فى رأسه

(١) ابن هشام ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٢) صحيح البخارى ـ باب ذكر ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٤ .
(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١١٣ .

فشجه،حتى نزف منه الدم ، ثم انصرف عنه إلى نادى قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها على الصفا ترى ذلك ، وأقبل حمزة من القنص متوشحا قوسه ، فأخبرته المولاة بما رأت من أبى جهل ، فغضب حمزة — وكان أعز فتى فى قريش وأشده شكيمة — فخرج يسعى ، لم يقف لأحد ، معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد قام على رأسه ، وقال له : يامصفر استه ، تشتم ابن أخى وأنا على دينه ؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة ، فثار رجال من بنى مخزوم — حى أبى جهل — وثار بنو هاشم — حى حمزة — فقال : أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى سببت ابن أخيه سبا قبيحا [1].

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبى أن يهان مولاه . ثم شرح الله صدره ، فاستمسك بالعروة الوثقى [2]، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز .

إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

وخلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق آخر أشد بريقا وإضاءة من الأول ، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب ، أسلم فى ذى الحجة سنة ست من النبوة [3]. بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضى الله عنه [4]. وكان النبى ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه ، فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر ، وصححه ، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود وأنس أن النبى ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام »

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٦ ، رحمة للعالمين ١ / ٦٨ ، ابن هشام ١ / ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢) تدل عليه رواية ذكرها الشيخ عبد الله النجدى فى مختصر السيرة ص ١٠١ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١١ .

(٤) ستأتى رواية فى ذلك .

فكان أحبهما إلى الله عمر رضى الله عنه [١]

وبعد إدارة النظر فى جميع الروايات التى رويت فى إسلامه يبدو أن نزول الإسلام فى قلبه كان تدريجا ، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به رضى الله عنه من العواطف والمشاعر .

كان رضى الله معروفا بحدة الطبع وقوة الشكيمة ، وطالما لقى المسلمون منه ألوان الأذى ، والظاهر أنه كانت تصطرع فى نفسه مشاعر متناقضة ، احترامه للتقاليد التى سنها الآباء والأجداد ، واسترساله مع شهوات السكر واللهو التى ألفها ، ثم إعجابه بصلابة المسلمين واحتمالهم البلاء فى سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التى كانت تساوره — كأى عاقل — فى أن مايدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره ، ولهذا ما إن يثور حتى يخور . قاله محمد الغزالى [٢].

وخلاصة الروايات مع الجمع بينها — فى إسلامه رضى الله عنه أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته ، فجاء إلى الحرم ، ودخل فى ستر الكعبة ، والنبى ﷺ قائم يصلى وقد استفتح سورة « الحاقة » فجعل عمر يستمع إلى القرآن ، ويعجب من تأليفه ، قال : فقلت — أى فى نفسى — هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ ﴿ إنه لقول رسول كريم ، وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ﴾ (٦٩ : ٤٠ ، ٤١) قال : قلت : كاهن . قال : ﴿ ولا بقول كاهن . قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين ﴾ إلى آخر السورة . قال فوقع الإسلام فى قلبى [٣].

---

(١) الترمذى ، أبواب المناقب ، مناقب أبى حفص عمر بن الخطاب ٢ / ٢٠٩ .

(٢) قاله محمد الغزالى فى فقه السيرة .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦ ، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد . لكن فى آخره ما يخالف ذلك . انظر ابن هشام ١ / ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ويقرب من هذا أيضا ما أورده ابن الجوزى عن جابر ، وفى آخره أيضا ما يخالف هذه الرواية انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ٩ — ١٠ .

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام فى قلبه ، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية ، والعصبية التقليدية ، والتعاظم بدين الآباء هى غالبة على مخ الحقيقة التى كان يتهمس بها قلبه ، فبقى مجدا فى عمله ضد الإسلام ، غير مكترث بالشعور الذى يكمن وراء هذه القشرة .

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يوما متوشحا سيفه ، يريد القضاء على النبى ﷺ ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوى[1] ، أو رجل من بنى زهرة [2]، أو رجل من بنى مخزوم [3] فقال : أين تعمد ياعمر ؟ قال . أريد أن أقتل محمدا قال : كيف تأمن من بنى هاشم ومن بنى زهرة وقد قتلت محمدا ؟ فقال له عمر : ماأراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذى كنت عليه ، قال أفلا أدلك على العجب ياعمر ! إن أختك وختنك قد صبوا ، وتركا دينك الذى أنت عليه ، فمشى عمر دامرا حتى أتاهما ، وعندهما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها ﴿ طه ﴾ يقرئهما إياها ـــ وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن ـــ فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت ، وسترت فاطمة ـــ أخت عمر ـــ الصحيفة ، وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما ، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم ؟ فقالا : ماعدا حديثا تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما قد صبوتما . فقال له ختنه : ياعمر أرأيت إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدا . فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده ، فدمى وجهها ـــ وفى رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها ـــ فقالت ـــ وهى غضبى ـــ : ياعمر إن كان الحق فى غير دينك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

---

(١) وهذا على رواية ابن إسحاق ، انظر ابن هشام ١ / ٣٤٤ .

(٢) روى ذلك أنس بن مالك رضى الله عنه . انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠ ، ومختصر سيرة الرسول الشيخ عبد الله بن محمد النجدى ص ١٠٣ .

(٣) روى ذلك ابن عباس انظر المصدر الأخير ص ١٠٢ .

فلما يئس عمر ، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحي ، وقال : أعطوني هذا الكتاب الذى عندكم فأقرؤه ، فقالت أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : أسماء طيبة طاهرة . ثم قرأ ﴿ طه ﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلوة لذكرى ﴾ فقال : ماأحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دلونى على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام) ورسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا .

فأخذ عمر سيفه ، فتوشحه ، ثم انطلق حتى أتى الدار ، فضرب الباب ، فقام رجل ينظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف ، فأخبر رسول الله ﷺ ، واستجمع القوم ، فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا : عمر ، فقال : وعمر ، افتحوا له الباب ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه ، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه فخرج إلى عمر حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، ثم جبذه جبذة شديدة فقال : أما أنت منتهيا ياعمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال مانزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم ! هذا عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . وأسلم فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.(١)

كان عمر رضى الله عنه ذا شكيمة لايرام ، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين بالذلة ، والهوان ، وكسا المسلمين عزة وشرفا وسرورا .

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧ ، ١٠ ، ١١ . مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ابن هشام ١ / ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : لما أسلمت تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة ، قال : قلت : أبو جهل ، فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلىَّ ، وقال : أهلا وسهلا ، ماجاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك الله ، وقبح ماجئت به (١).

وذكر ابن الجوزى أن عمر رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال ، فيضربونه ويضربهم ، فجئت — أى حين أسلمت — إلى خالى — وهو العاصى بن هاشم — فأعلمته فدخل البيت ، قال : وذهبت إلى رجل من كبراء قريش — لعله أبو جهل — فأعلمته فدخل البيت (٢).

وذكر ابن هشام وكذا ابن الجوزى مختصرا ، أنه لما أسلم أتى إلى جميل بن معمر الجمحى — وكان أنقل قريش لحديث — فأخبره أنه أسلم ، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ . فقال عمر :— وهو خلفه — كذب ، ولكنى قد أسلمت ، فثاروا إليه ، فمازال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم ،وطلح ،أى أعيا عمر ، فقعد ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا (٣).

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله . روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال : بينما هو — أى عمر — فى الدار خائفا ، إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو ، وعليه حلة سبرة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بنى سهم ، وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال له : مالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونى أن أسلمت ، قال لا سبيل إليك — بعد أن قالها أمنت — فخرج

---

(١) المصدر الأخير ١ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ .
(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٨ .
(٣) نفس المصدر ص ٨ وابن هشام ١ / ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

العاص ، فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فقال أين تريدون ؟ فقالوا : هذا ابن الخطاب الذى قد صبأ ، قال : لا سبيل إليه ، فكر الناس [١] وفى لفظ ، فى رواية ابن إسحاق : والله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه [٢].

هذا بالنسبة إلى المشركين ، أما بالنسبة إلى المسلمين ؛ فروى مجاهد عن ابن عباس قال : سألت عمر بن الخطاب ، لأى شيء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام — ثم قص عليه قصة إسلامه وقال فى آخره — قلت : — أى حين أسلمت — يارسول الله ! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى ! والذى نفسى بيده ، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم ، قال : قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن ، فأخرجناه فى صفين ، حمزة فى أحدهما ، وأنا فى الآخر ، له كديد ككديد الطحين ، حتى دخلنا المسجد ، قال : فنظرت إلى قريش وإلى حمزة ، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسمانى رسول الله ﷺ « الفاروق » يومئذ [٣].

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر [٤].

وعن صهيب بن سنان الرومى رضى الله عنه ، قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حِلقا ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به [٥].

وعن عبد الله بن مسعود قال : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر [٦].

(١) صحيح البخارى ، باب إسلام عمر بن الخطاب ١ / ٥٤٥ .
(٢) ابن هشام ١ / ٣٤٩ .
(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦ ، ٧ .
(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٠٣ .
(٥) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١٣ .
(٦) صحيح البخارى ، باب إسلام عمر بن الخطاب ١ / ٥٤٥ .

ممثل قريش بين يدى الرسول ﷺ :

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين ــ حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ــ أخذت السحائب تتقشع ، وأفاق المشركون عن سكرهم فى إدلاء العذاب والنكال إلى المسلمين ، وحاولوا مساومة مع النبى ﷺ بإغداق كل ماهو يمكن أن يكون مطلوبا له ؛ ليكفوه عن دعوته . ولم يكن يدرى هؤلاء المساكين أن كل ماتطلع عليه الشمس لا يساوى جناح بعوضة أمام دعوته ، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا .

قال ابن إسحاق : حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيدا ، قال يوما ، وهو فى نادى قريش ، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد ؟ فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يكثرون ويزيدون ، فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلمه ، فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : ياابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السطة[1] فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال رسول الله ﷺ : قل ياأبا الوليد اسمع ، قال : ياابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لانقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك

---

(١) هى المنزلة الرفيعة المهيبة .

منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ــ أو كما قال له ــ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع منى ، قال : أفعل ، فقال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ﴾.ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد،ثم قال : قد سمعت ياأبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه ، فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم [1].

وفى رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول ﷺ ، إلى قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فقام مذعورا ، فوضع يده على فم رسول الله ﷺ ، يقول : أنشدك الله والرحم ! وذلك مخافة أن يقع النذير ، وقام إلى القوم فقال ماقال [2].

أبو طالب يجمع بنى هاشم وبنى عبد المطلب :

تغير مجرى الظروف وتبدلت الأوضاع والأحوال ، ولكن أبا طالب لم

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

يزل يتوجس من المشركين خيفة على ابن أخيه ، إنه كان ينظر فى الحوادث الماضية — إن المشركين هددوه بالمنازلة ، ثم حاولوا مساومة ابن أخيه بعمارة ابن الوليد ليقتلوه ، وإن أبا جهل ذهب إلى ابن أخيه بحجر يرضخه ، وإن عقبة بن أبى معيط خنق ابن أخيه بردائه وكاد يقتله ،وإن ابن الخطاب كان قد خرج بالسيف ليقضى على ابن أخيه — كان أبو طالب يتدبر فى هذه الحوادث ، ويشم منها رائحة شر يرجف له فؤاده ، وتأكد عنده أن المشركين عازمون على إخفار ذمته ، عازمون على قتل ابن أخيه ، ومايغنى حمزة أو عمر أو غيرهما إن انقض أحد من المشركين على ابن أخيه بغتة .

تأكد ذلك عند أبى طالب ، ولم يكن إلا حقا ، فإنهم كانوا قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، وإلى هذا الإجماع إشارة فى قوله تعالى ﴿ أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون ﴾ (٤٣ : ٧٩) فماذا يفعل أبو طالب إذن .

إنه لما رأى تألب قريش على ابن أخيه قام فى أهل بيته من بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف ، ودعاهم إلى ماهو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه ، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم ، حمية للجوار العربى ، إلا ما كان من أخيه أبى لهب ، فإنه فارقهم ، وكان مع قريش [1].

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجدى ص ١٠٦ .

المقاطعة العامة

وقعت أربع حوادث ضخمة ــ بالنسبة إلى المشركين ــ خلال أربعة أسابيع ، أو فى أقل مدة ، منها : أسلم حمزة ، ثم أسلم عمر ، ثم رفض محمد ﷺ مساومتهم ، ثم تواثق بنو المطلب ، وبنو هاشم كلهم مسلمهم وكافرهم ، على حياطة محمد ﷺ ومنعه ، حار المشركون ، وحقت لهم الحيرة ، إنهم عرفوا أنهم لو قاموا بقتل محمد ــ ﷺ ــ يسيل وادى مكة دونه بدمائهم ، بل ربما يفضى إلى استئصالهم . عرفوا ذلك فانحرفوا إلى ظلم آخر دون القتل ، لكن أشد مضاضة عما فعلوا بعد .

ميثاق الظلم والعدوان :

اجتمعوا فى خيف بنى كنانة من وادى المحصب فتحالفوا ، على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يجالسوهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، ولا يكلموهم ، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق « أن لا يقبلوا من بنى هاشم صلحا أبدا ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل » قال ابن القيم : يقال : كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، ويقال : نضر بن الحارث ، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت

يده (١).

تم هذا الميثاق ، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم ـــ إلا أبا لهب ـــ وحبسوا فى شعب أبى طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة .

ثلاثة أعوام فى شعب أبى طالب :

واشتد الحصار ، وقطعت عنهم الميرة والمادة ، فلم يكن المشركون يتركون طعاما يدخل مكة ولابيعا إلا بادروه فاشتروه ، حتى بلغهم الجهد ، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود ، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرا ـــ وكانوا ـــ لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا فى الأشهر الحرم ، وكانوا يشترون من العير التى ترد مكة من خارجها ، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم فى السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الشراء .

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحا إلى عمته خديجة ـــ رضى الله عنها ـــ وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه ، فتدخل بينهما أبو البخترى ، ومكنه من حمل القمح إلى عمته .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمره أن يأتى بعض فرشهم .

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون فى أيام الموسم ، فيلقون الناس ، ويدعونهم إلى الإسلام ، وقد أسلفنا ماكان يأتى به أبو لهب .

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٦ .

نقض صحيفة الميثاق :

مرت ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك ، وفى المحرم [1] سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق ، وذلك أن قريشا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له ، فسعى فى نقض الصحيفة من كان كارها لها .

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى — وكان يصل بنى هاشم فى الشعب مستخفيا بالليل بالطعام — فإنه ذهب إلى زهير بن أبى أمية المخزومى — وكانت أمة عاتكة بنت عبد المطلب — وقال : يازهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتشرب الشراب ، وأخوالك بحيث تعلم ؟ فقال : ويحك ، فما أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها ، قال : قد وجدت رجلا . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : ابغنا رجلا ثالثا .

فذهب إلى المطعم بن عدى ، فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف ، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم ، فقال المطعم : ويحك ، ماذا أصنع ؟ إنما انا رجل واحد ، قال : قد وجدت ثانيا ،قال من هو ؟ قال : أنا قال : ابغنا ثالثا . قال قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، قال : ابغنا رابعا .

فذهب إلى أبى البختري بن هشام ، فقال له نحوا مما قال للمطعم ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك ، قال : ابغنا خامسا .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه ، وذكر له

---

(١) الدليل على هذا أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر ، والصحيح فى موت أبى طالب أنه فى شهر رجب . ومن يقول : إنه مات فى رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفة بثمانية أشهر وأيام .

قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم ثم سمى له القوم ، فاجتمعوا عند الحجون ، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ــ وكان فى ناحية المسجد ــ : كذبت ، والله لا تشق . فقال : زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب . مارضينا كتابتها حيث كتبت . قال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها .

وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، تُشوورَ فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد . إنما جاءهم لأن الله كان قد اطلع رسوله على أمر الصحيفة ، وأنه أرسل عليها الأرضة ، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل ، فأخبر بذلك عمه ، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا ، فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه ، وإن كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا ، قالوا : قد أنصفت .

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبى جهل ، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » . وماكان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله .

ثم نقض الصحيفة ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب ، وقد

رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته ، ولكنهم كما أخبر الله عنهم ، ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ﴾ (٥٤ : ٢) أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم [١] .

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخارى ، باب نزول النبى ﷺ بمكة ١ / ٢١٦ ، وباب تقاسم المشركين على النبى ﷺ ١ / ٥٤٨ ، وزاد المعاد ٢ / ٤٦ ، وابن هشام ١ / ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ورحمة للعالمين ١ / ٦٩ ، ٧٠ ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ومختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، وبين هذه المصادر اختلاف يسير ، أخذنا ما ترجح عندنا بعد النظر فى القرائن .

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب ، وجعل يعمل على شاكلته ، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة ، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين ، والصد عن سبيل الله ، أما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه ، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه ، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات ــ لاسيما حصار الشعب ــ قد وهنت وضعفت مفاصله ، وكسرت صلبه ، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات ، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به ــ وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم فى العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه ، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبى ﷺ بين يديه ، ويعطوا بعض مالم يرضوا إعطاءه قبل ذلك ، فقاموا بوفادة هى آخر وفادتهم إلى أبى طالب .

قال ابن إسحاق وغيره : لما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب ، فليأخذ على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا[1] أمرنا ، وفى لفظ : فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ ، فيكون إليه شىء فتعيرنا به العرب ، يقولون تركوه ، حتى إذا مات عمه تناولوه

(١) ابتزه أمره : سلبه إياه وغلبه عليه .

مشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ؛ عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم — وهم خمس وعشرون تقريبا — فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ماترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب ، فجاءه ، فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليأخذوا منك ، ثم أخبره بالذى قالوا له وعرضوا عليه ، من عدم تعرض كل فريق للآخر . فقال لهم رسول الله ﷺ : أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها ، ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم ، وفي لفظ أنه قال مخاطبا لأبي طالب : أريدهم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، وفي لفظ آخر قال : ياعم ، أفلا تدعوهم إلى ماهو خير لهم ؟ قال : وإلى ما تدعوهم ؟ قال : أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم ، ولفظ رواية ابن إسحاق : كلمة واحدة تعطونها ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فلما قال هذه المقالة ، توقفوا وتحيروا ، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد ، ثم قال أبو جهل : ماهي ؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها ، قال : تقولون : لاإله إلا الله ، وتخلعون ماتعبدون من دونه . فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن أمرك لعجب .

ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا .

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ ص . والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا في عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص . وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا

واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ﴾ (٣٨ : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) [١] .

(١) ابن هشام ١ / ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، تفهيم القرآن ٤ / ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ . مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩١ .

عام الحزن

وفاة أبي طالب :

ألح المرض بأبى طالب ، فلم يلبث أن وافته المنية ، وكانت وفاته فى رجب[1] سنة عشر من النبوة ، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر[2] . وقيل : توفى فى رمضان قبل وفاة خديجة رضى الله عنها بثلاثة أيام .

وفى الصحيح عن المسيب : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل ، فقال : أى عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب . فقال النبى ﷺ : لأستغفرن لك مالم أنه عنك ، فنزلت : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ (٩ : ١١٣) ونزلت ﴿ إنك لا تهدى من

---

(١) تاريخ إسلام للشاه أكبر خان النجيب آبادى ١ / ١٢٠ ، وفى المصادر اختلاف كبير فى الشهر الذى توفى فيه أبو طالب، وهذا الذى رجحناه إنما رجحناه لأن أكثر المصادر متفقة على أن موته كان بعد ستة أشهر من الخروج من الشعب ، وأن الحصار كان ثلاثة أعوام ، وأن بدء الحصار كان ليلة هلال المحرم سنة سبع ، وإذن فموته فى رجب سنة عشر من النبوة .

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ١١١ .

أحببت ﴾[1] (٢٨ : ٥٦) .

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع ، فقد كان الحصن الذى تحتمى به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء ، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده ، فلم يفلح كل الفلاح . ففى الصحيح عن العباس بن عبد المطلب ، قال للنبى ﷺ : ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار [2].

وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ — وذكر عنده عمه — فقال : لعله تنفعه شفاعتى يوم القيام ، فيجعل فى ضحضاح من النار تبلغ كعبيه [3].

خديجة إلى رحمة الله :

وبعد وفاة أبى طالب بنحو شهرين أو بثلاثة — على اختلاف القولين — توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضى الله عنها ، كانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشرة من النبوة ، ولها خمس وستون سنة ، ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره [4].

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه ، وتؤازره فى أحرج أوقاته ، وتعينه على إبلاغ رسالته ، وتشاركه فى مغارم الجهاد المر ، وتواسيه بنفسها ومالها ، يقول رسول الله ﷺ : « آمنت بى حين كفر بى الناس ، وصدقتنى حين كذبنى

(١ — ٢ — ٣) صحيح البخارى ، باب قصة أبى طالب ١ / ٥٤٨ .

(٤) نص على موتها فى رمضان من تلك السنة ابن الجوزى فى التلقيح ص ٧ ، والعلامة المنصور فورى فى رحمة للعالمين ٢ / ١٦٤ وغيرهما .

الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها ، وحرم ولد غيرها (١) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله هذه خديجة ، قد أتت ، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب (٢) .

تراكم الأحزان :

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة ، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه ، فقد كانوا تجرأوا عليه ، وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب ، فازداد غما على غم ، حتى يئس منهم ، وخرج إلى الطائف ، رجاء أن يستجيبوا لدعوته أو يؤووه وينصروه على قومه ، فلم ير من يؤوي ولم ير ناصراً ، وآذوه مع ذلك أشد الأذى ، ونالوا منه ما لم ينله قومه .

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبي ﷺ ، اشتدت على أصحابه ، حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة ، فخرج حتى بلغ برك الغماد ، يريد الحبشة ، فأرجعه ابن الدغنة في جواره (٣) .

قال ابن إسحاق : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى مالم تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا ، ودخل بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : لا

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦ / ١١٨ .
(٢) صحيح البخاري . باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ١ / ٥٣٩ .
(٣) صرح الشاه أكبر خان النجيب آبادي بأن هذه الوقعة كانت في هذه السنة انظر تاريخ إسلام ١ / ١٢٠ ، والقصة بطولها مروية في ابن هشام ١ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، وفي صحيح البخاري ١ / ٥٥٢ ، ٥٥٣

تبكي يا بنية ، فإن الله مانع أباك . قال : ويقول بين ذلك : ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب[1].

ولأجل توالى مثل هذه الآلام فى هذا العام سماه رسول الله ﷺ عام الحزن ، وبهذا اللقب صار معروفا فى التاريخ .

الزواج بسودة رضى الله عنها :

وفى شوال من هذه السنة — سنة ١٠ من النبوة — تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة ، كانت ممن أسلم قديما ، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وكان زوجها السكران بن عمرو ، وكان قد أسلم وهاجر معها ، فمات بأرض الحبشة ، أو بعد الرجوع إلى مكة ، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها ، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة ، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة [2].

---

(١) ابن هشام ١ / ٤١٦

(٢) رحمة للعالمين ٢ / ١٦٥ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠ .

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران ، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم : ماهى الأسباب والعوامل التى بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى ، والحد المعجز من الثبات ؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التى تقشعر لسماعها الجلود ، وترجف لها الأفئدة ؟ ونظرا إلى هذا الذى يتخالج القلوب ، نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة :

١ ــ إن السبب الرئيسى فى ذلك أولا وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة ، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش ، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واشتدت ــ يراها فى جنب إيمانه ــ طحالب عائمة فوق سيل جارف جاء ليكسر السدود المنيعة والقلاع الحصينة ، فلا يبالى بشىء من تلك المتاعب ، أمام ما يجده من حلاوة إيمانه وطراوة إذعانه وبشاشة يقينه ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ (١٣ : ١٧) .

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوى هذا الثبات والمصابرة وهى :ـــ

٢ ــ قيادة تهوى إليها الأفئدة ، فقد كان النبى ﷺ ــ وهو القائد

الأعلى للأمة الإسلامية بل وللبشرية جمعاء ــ يتمتع من جمال الخلق وكمال النفس ، ومكارم الأخلاق ، والشيم النبيلة والشمائل الكريمة ، بما تتجاذب إليه القلوب ، وتتفانى دونه النفوس ، وكانت أنصبته من الكمال الذى يعشق لم يرزق بمثلها بشر ، وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل والخير والفضل ، وكان من العفة والأمانة والصدق ، ومن جميع سبل الخير على مالم يتمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلا عن محبيه ورفقائه ، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها .

اجتمع ثلاثة نفر من قريش ، كان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سرا عن صاحبيه ثم انكشف سرهم ، فسأل أحدهم أبا جهل ــ وكان من أولئك الثلاثة ــ ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : لنا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه (١).

وكان أبو جهل يقول : يا محمد إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ (٢).

وغمزه الكفار يوما ثلاث مرات ، فقال فى الثالثة : يامعشر قريش ، جئتكم بالذبح ،فأخذتهم تلك الكلمة ، حتى إن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده .

ولما ألقوا عليه سلا جذور وهو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك،وساورهم الهم والقلق ، وأيقنوا أنهم هالكون .

ودعا على عتيبة بن أبي لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه ،

---

(١) ابن هشام ١ / ٣١٦

(٢) رواه الترمذى فى تفسير سورة الأنعام ٢ / ١٣٢ .

حتى إنه حين رأى الأسد قال : قتلني والله ـــ محمد ـــ وهو بمكة .

وكان أبي بن خلف يتوعده بالقتل . فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أبيا في عنقه يوم أحد ـــ وكان خدشا غير كبير ـــ كان أبيٌّ يقول : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك . فوالله لو بصق علي لقتلني (1) ـــ وسيأتي .

وقال سعد بن معاذ ـــ وهو بمكة ـــ لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم ـــ أي المسلمين ـــ قاتلوك ، ففزع فزعا شديدا ، وعهد أن لايخرج عن مكة ، ولما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليمكنه من الفرار ، وقالت له امرأته : يا أبا صفوان ، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ قال : لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا (2).

هكذا كان حال أعدائه ﷺ ، أما أصحابه ورفقاؤه فقد حل منهم محل الروح والنفس ، وشغل منهم مكان القلب والعين ، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الحدور ، وكانت النفوس تنجذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس .

فصورته هيولى كل جسم ومغناطيس أفئدة الرجال

وكان من أثر هذا الحب والتفاني أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر أو يشاك شوكة .

وطيء أبو بكر بن أبي قحافة يوما بمكة ، وضرب ضربا شديدا ، دنا منه عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر ، حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب ، حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ، فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم

---

(1) ابن هشام ٢ / ٨٤ .

(2) انظر صحيح البخاري ٢ / ٥٦٣

الخير : انظرى أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله لا علم لى بصاحبك ، فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل ، فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت ، قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا ، فدنت أم جميل ، وأعلنت بالصياح ، وقالت : والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع ، قال : فلا شىء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، فقال : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ﷺ ، فأمهلتا ، حتى إذا هدأت الرجل ، وسكن الناس ، خرجتا به ، يتكىء عليهما ، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ (١) .

وسننقل نوادرالحب والتفانى فى مواقع شتى من هذه المقالة ، ولا سيما ما وقع فى يوم أحد ، وما وقع من خبيب وأمثاله .

٣ ــ الشعور بالمسئولية ــ فكان الصحابة يشعرون شعورا تاما ما على كواهل البشر من المسئولية الفخمة الضخمة ، وأن هذه المسئولية لايمكن عنها الحياد والانحراف بحال ، فالعواقب التى تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضررا عما هم فيه من الاضطهاد ، وأن الخسارة التى تلحقهم ــ وتلحق البشرية جمعاء ــ بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التى كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل .

٤ ــ الإيمان بالآخرة ــ وهو مما كان يقوى هذا الشعور ــ الشعور بالمسئولية ــ فقد كانوا على يقين جازم من أنهم يقومون لرب العالمين ، يحاسبون

---

(١) البداية والنهاية ٣ / ٣٠ .

بأعمالهم دقها وجلها ، صغيرها وكبيرها ، فإما إلى النعيم المقيم ، وإما إلى عذاب خالد في سواء الجحيم ، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء ، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه ، وكانوا ﴿ يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لاتساوى جناح بعوضة في جنب الآخرة ، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها ، حتى لم يكونوا يكترثون لها ويلقون إليها بالا .

٥ ـــ القرآن ـــ وفي هذه الفترات العصيبة الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على مبادىء الإسلام ـــ التي كانت الدعوة تدور حولها ـــ بأساليب منيعة خلابة ، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها أعظم وأروع مجتمع بشرى في العالم ـــ وهو المجتمع الإسلامي ـــ وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد ، تضرب لذلك الأمثال ، وتبين لهم ما فيه من الحكم : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ (٢ : ٢١٤) ﴿ ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (٢٩ : ١ ، ٢ ، ٣) .

كما كانت تلك الآيات ترد على إيرادات الكفار والمعاندين ردا مفحما ، ولا تبقى لهم حيلة ، ثم تحذرهم مرة عن عواقب وخيمة ـــ إن أصروا على غيهم وعنادهم ـــ في جلاء ووضوح ، مستدلا بأيام الله ، والشواهد التاريخية التي تدل على سنة الله في أوليائه وأعدائه ، وتلطفهم مرة ، وتؤدى حق التفهيم والإرشاد والتوجيه ، حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين .

وكان القرآن يسير بالمسلمين في عالم آخر ، ويبصرهم من مشاهد الكون ، وجمال الربوبية ، وكمال الألوهية ، وآثار الرحمة والرأفة ، وتجليات الرضوان ما يحنون إليه حنينا لا يقوم له أي عقبة .

وكانت فى طى هذه الآيات خطابات للمسلمين ، فيها يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين ، يحاكمون ، ويصادرون ، ثم يسحبون فى النار على وجوههم ، ذوقوا مس سقر .

٦ ـــ البشارات بالنجاح ـــ ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد ـــ بل ومن قبله ـــ أن الدخول فى الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف . بل إن الدعوة الإسلامية تهدف ـــ منذ أول يومها ـــ إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم ، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السياسى فى العالم ، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله . وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله .

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات ـــ مرة بالتصريح وأخرى بالكناية ـــ ففى تلك الفترات القاصمة التى ضيقت الأرض على المسلمين ، وكادت تخنقهم ، وتقضى على حياتهم ، كانت تنزل الآيات بما جرت بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم ، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التى تطابق تماما أحوال مسلمى مكة وكفارها ، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين ، وإيراث عباد الله الأرض والديار . فكانت فى هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة فى المستقبل ، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية .

وفى هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ، فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ (٣٧ ، ١٧١ ـــ ١٧٧) وقال : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ (٥٤ : ٤٥) وقال : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ (٣٨ : ١١) ونزلت فى الذين هاجروا إلى الحبشة : ﴿ والذين هاجروا

فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (١٦ : ٤١) وسألوه عن قصة يوسف فأنزل الله فى طيها . ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ (١٢ : ٧) أى فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانه من الفشل ، ويستسلمون كاستسلامهم ، وقال وهو يذكر الرسل : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ (١٤ : ١٣ ، ١٤) وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان ، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفتهم مشركين ، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله والرسل والوحى والكتب واليوم الآخر وكانت الغلبة للفرس ، أنزل الله بشارة غلبة الروم فى بضع سنين ، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة ، بل صرح ببشارة أخرى وهى نصر الله للمؤمنين حيث قال : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ (٣٠ : ٤ ، ٥) .

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى ، فكان إذا وافى الموسم ، وقام بين الناس فى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، لتبليغ الرسالة ، لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب ، بل يقول لهم بكل صراحة ، يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا متم كنتم ملوكا فى الجنة [1] .

وقد أسلفنا ما أجاب به النبى ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا ، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام .

وكذلك ما أجاب به النبى ﷺ آخر وفد جاء إلى أبى طالب ، فقد صرح لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها ، تدين لهم العرب ، ويملكون العجم .

قال خباب بن الأرت : أتيت النبى ﷺ وهو متوسد برده ، وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد ، وهو محمر وجهه ، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم

---

(١) رواه الترمذى وقد مضى مرارا .

وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله ـــ زاد بيان الراوى ـــ والذئب على غنمه[1] وفى رواية ولكنكم تستعجلون[2] .

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة ، بل كانت فاشية مكشوفة ، يعلمها الكفرة ، كما كان يعلمها المسلمون ، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبى ﷺ تغامزوا بهم ، وقالوا : قد جاءكم ملوك الأرض ، سيغلبون على ملوك كسرى وقيصر ، ثم يصفرون ويصفقون[3].

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير فى الدنيا ، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية فى الفوز بالجنة ، كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التى تتوالى عليهم من كل جانب ، والمصائب التى تحيط بهم من كل الأرجاء ، ليست إلا : « سحابة صيف عن قليل تقشع » .

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذى أرواحهم برغائب الإيمان ، ويزكى نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن ، ويربيهم تربية دقيقة عميقة ، يحلو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح ، ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات ، والمقاومة للشهوات ، والنزوع إلى رب الأرض والسماوات ، ويذكى جمرة قلوبهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس ، فازدادوا رسوخا فى الدين ، وعزوفا عن الشهوات ، وتفانيا فى سبيل المرضاة ، وحنينا إلى الجنة ، وحرصا على العلم ، وفقها فى الدين ، ومحاسبة للنفس وقهراً للنزعات ، وغلبة على العواطف ، وتسيطرا على الثائرات والهائجات ، وتقيدا بالصبر والهدوء والوقار .

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٤٣ .
(٢) نفس المصدر ١ / ٥١٠ .
(٣) فقه السيرة ص ٨٤ .

المرحلة الثالثة
دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول ﷺ فى الطائف :

فى شوال[1] سنة عشر من النبوة (فى أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩ م) خرج النبى ﷺ إلى الطائف ، وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلا ، سارها ماشيا على قدميه جيئة وذهوبا ، ومعه مولاه زيد بن حارثة ، وكان كلما مر على قبيلة فى الطريق دعاهم إلى الإسلام ، فلم تجب إليه واحدة منها . فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف ، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وإلى نصرة الإسلام ، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) ، إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحدا غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، إن كنت رسولا لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ماينبغى أن أكلمك . فقام عنهم رسول الله ﷺ ، وقال لهم : إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى .

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام ، لا يدع أحدا من

---

(١) صرح بذلك النجيب آبادى فى تاريخ إسلام ١ / ١٢٢ ، وهو الراجح عندى .

أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من بلادنا ، وأغروا به سفهاءهم ، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، فوقفوا له سماطين (أى صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه ، ورجموا عراقيبه ، حتى اختضب نعلاه بالدماء . وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج فى رأسه ، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، على ثلاثة أميال من الطائف ، فلما التجأ إليه رجعوا عنه ، وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة من عنب ، فجلس تحت ظلها إلى جدار فلما جلس إليه واطمأن ، دعا بالدعاء المشهور الذى يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنا مما لقى من الشدة ، وأسفا على أنه لم يؤمن به أحد ، قال :

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا ، يقال له عداس ، وقالا له : خذ قطفا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلا : «باسم الله» ، ثم أكل .

فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصرانى ، من أهل « نينوى » . فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . قال له : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى ، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء

عداس قالا له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدى ، ما فى الأرض شىء خير من هذا الرجل ، لقد أخبرنى بأمر لايعلمه إلا نبى ، قالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

ورجع رسول الله ﷺ فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبا محزونا كسير القلب ، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة .

وقد روى البخارى تفصيل القصة ــ بسنده ــ عن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضى الله عنها حدثته أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت ــ وأنا مهموم ــ على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ــ وهو المسمى بقرن المنازل ــ فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك . وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال : يامحمد ، ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ــ أى لفعلت ، والأخشبان : هما جبلا مكة ، أبو قبيس والذى يقابله وهو قعيقعان ــ قال النبى ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا(١) .

وفى هذا الجواب الذى أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة ، وما كان عليه من الخلق العظيم الذى لا يدرك غوره

وأفاق رسول الله ﷺ ، واطمأن قلبه ؛ لأجل هذا النصر الغيبى الذى أمده الله

---

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق ١ / ٤٥٨ ، مسلم . باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢ / ١٠٩ .

عليه من فوق سبع سماوات ، ثم تقدم فى طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة ، وأقام فيه أياما . وفى وادى نخلة موضعان يصلحان للإقامة ــ السيل الكبير والزيمة ــ لما بهما من الماء والخصب ، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته ﷺ فيه .

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفرا من الجن ، ذكرهم الله فى موضعين من القرآن ، فى سورة الأحقاف : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ (٤٦ : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) .

وفى سورة الجن : ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ إلى تمام الآية الخامسة عشرة .

ومن سياق هذه الآيات ــ وكذا من سياق الروايات التى وردت فى تفسير هذا الحادث ــ يتبين أن النبى ﷺ لم يعرف بحضور ذلك النفر من الجن ، وإنما علم ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات ، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة ، ويقتضى سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مرارا .

وحقا كان هذا الحادث نصرا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التى لايعلمها إلا هو ، ثم إن الآيات التى نزلت بصدد هذا الحادث كانت فى طيها بشارات بنجاح دعوة النبى ﷺ ، وأن أى قوة من قوات الكون لاتستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها : ﴿ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين ﴾ (٤٦ : ٣٢) ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا ﴾ (٧٢ : ١٢) .

أمام هذه النصرة ، وأمام هذه البشارات ، أقشعت سحابة الكآبة والحزن

واليأس ، التى كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودا مدحورا ، حتى صمم على العود إلى مكة ، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى فى عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجد وحماس .

وحينئذ قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعنى قريشا ، فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء ، وبعث رجلا من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال : أنا حليف ، والحليف لايجير . فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدى ، فقال المطعم : نعم ، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال : البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمدا ، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ : أن ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعما : أمجير أنت أم متابع ـــ مسلم ـــ ؟ قال : بل مجير . قال : قد أجرنا من أجرت (١) .

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع ، فقال فى أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له (٢) .

---

(١) التقطنا تفصيل حادث الطائف من ابن هشام ١ / ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، وزاد المعاد ٢ / ٤٦ ، ٤٧ ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ورحمة للعالمين ١ / ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، وتاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٣ .

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

في ذي القعدة سنة عشر من النبوة ــ في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م ــ عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد ، ولاقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، لقضاء فريضة الحج ، وليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا الله في أيام معلومات ، فانتهز رسول الله ﷺ هذه الفرصة ، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ، ويدعوهم إليه ، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة ..

القبائل التي عرض عليها الإسلام :

قال الزهري : وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وبنو نصر ، وبنو البكاء ، وكندة ، وكلب ، والحارث بن كعب ، وعذرة ، والحضارمة ، فلم يستجب منهم أحد [1].

وهذه القبائل التي سماها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة

---

(١) روى ذلك الترمذي ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤٩ .

واحدة ، ولا في موسم واحد ، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة . ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة ، نعم هناك قبائل قد جزم العلامة المنصور فورى أن عرض الإسلام عليهم كان في موسم السنة العاشرة (١). وقد ذكر ابن إسحاق كيفية العرض وردودهم ، وهاك ملخصا :

١ ــ بنو كلب ــ أتى النبي ﷺ إلى بطن منهم ، يقال لهم بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يا بني عبد الله ، إن الله قد أحسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

٢ ــ بنو حنيفة ــ أتاهم في منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم .

٣ ــ وأتى إلى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم) : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم ، لكبر سنه ، وقالوا له : جاءنا فتى من قريش من بني عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ، ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، فوضع الشيخ يديه على رأسه ، ثم قال : يابني عامر هل لها من تلاف ؟ لذُناباها(٢) من مطلب ؟ والذى نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم(٣) ؟

(١) رحمة للعالمين ١ / ٧٤ ، وبه جزم النجيب آبادى . انظر تاريخ إسلام ١ / ١٢٥ .

(٢) مثل يضرب لما فات ، وأصله من ذنابى الطائر إذا أفلت من حباله فطلبت الأخذ بذناباه .

(٣) ابن هشام ١ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

المؤمنون من غير أهل مكة :

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود ، عرض على الأفراد والأشخاص ، وحصل من بعضهم على ردود صالحة ، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل . وهناك لوحة منهم :

١ ـــ سويد بن صامت ـــ كان شاعرا لبيبا من سكان يثرب ، يسميه قومه الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، جاء مكة حاجا أو معتمرا ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فقال : لعل الذى معك مثل الذى معى . فقال له رسول الله ﷺ : وما الذى معك . قال : حكمة لقمان . قال : اعرضها على . فعرضها ، فقال له رسول الله ﷺ : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فأسلم ، وقال : إن هذا لقول حسن . فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعاث [١]. وكان إسلامه فى أوائل سنة ١١ من النبوة [٢].

٢ ـــ إياس بن معاذ ـــ كان غلاما حدثا من سكان يثرب ، قدم فى وفد من الأوس ، جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، وذلك قبيل حرب بعاث فى أوائل سنة ١١ من النبوة ، إذ كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين القبيلتين ـــ وكان الأوس أقل عددا من الخزرج ـــ فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم ، وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد ، أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علىّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع ـــ رجل كان فى الوفد ـــ حفنة من تراب

(١) نفس المصدر ١ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، رحمة للعالمين ١ / ٧٤ .
(٢) تاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٥ .

البطحاء فرمى بها وجه إياس ، وقال : دعنا عنك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش .

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك ، وكان يهلل ويكبر ويحمد ، ويسبح عند موته ، فلا يشكون أنه مات مسلما (١) .

٣ ــ أبو ذر الغفارى ــ وكان من سكان نواحي يثرب ، ولما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبى ﷺ بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع فى أذن أبى ذر أيضا ، وصار سببا لإسلامه (٢) .

روى البخارى عن ابن عباس قال : قال أبو ذر : كنت رجلا من غفار ، فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فقلت : لأخى انطلق إلى هذا الرجل وكلمه ، وأتنى بخبره ، فانطلق ، فلقيه ، ثم رجع ، فقلت : ماعندك ؟ فقال : والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، فقلت له : لم تشفنى من الخبر ، فأخذت جرابا وعصا ، ثم أقبلت إلى مكة ، فجعلت لا أعرفه ، وأكره أن أسأل عنه ، وأشرب من ماء زمزم وأكون فى المسجد . قال : فمر بى علىّ . فقال : كأن الرجل غريب ؟ قال : قلت : نعم . فقال : فانطلق إلى المنزل ، فانطلقت معه ، لا يسألنى عن شيء ولا أسأله ولا أخبره . فلما أصبحت غدوت إلى المسجد ؛ لأسأل عنه ، وليس أحد يخبرنى عنه بشيء . قال : فمر بى على فقال : أما زال للرجل يعرف منزله بعد ؟ قال : قلت لا . قال : فانطلق معى ، قال : فقال : ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : قلت له : إن كتمت علىّ أخبرتك ، قال : فإنى أفعل ، قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبى الله ، فأرسلت أخى يكلمه ، فرجع ولم يشفنى من الخبر ، فأردت

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، وتاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٦ .
(٢) نفس المصدر الأخير ١ / ١٢٨ .

أن ألقاه .

فقال له : أما إنك قد رشدت ، هذا وجهي إليه ، ادخل حيث أدخل ، فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي ، وامض أنت ، فمضى ، ومضيت معه حتى دخل ، ودخلت معه على النبي ﷺ ، فقلت له : اعرض على الإسلام ، فعرضه ، فأسلمت مكاني ، فقال لي : يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل . فقلت : والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم ، فجئت إلى المسجد وقريش فيه ، فقلت : يا معشر قريش ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابيء . فقاموا ، فضربت لأموت ، فأدركني العباس ، فأكب على ، ثم أقبل عليهم فقال ، ويلكم تقتلون رجلا من غفار ؟ ومتجركم وممركم على غفار . فأقلعوا عنى ، فلما أن أصبحت الغد ، رجعت ، فقلت مثل ما قلت بالأمس ، فقالوا قوموا إلى هذا الصابيء ، فصنع بي ما صنع بالأمس ، فأدركني العباس ، فأكب على وقال مثل مقالته بالأمس [1].

٤ ــ طفيل بن عمرو الدوسي ــ كان رجلا شريفا شاعرا لبيبا رئيس قبيلة دوس ، وكان لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن ، قدم مكة في عام ١١ من النبوة ، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها ، وبذلوا له أجل تحية وأكرم التقدير ، وقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئا .

يقول طفيل : فو الله مازالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا ؛ فرقا من أن يبلغني

(١) صحيح البخاري باب قصة زمزم ١ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ وباب إسلام أبي ذر ١ / ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

شيء من قوله ، قال فغدوت إلى المسجد ، فإذا هو قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت قريبا منه ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أمى ، والله إنى رجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ، فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمى ، وتخويف الناس إياى ، وسد الأذن بالكرسف ، ثم سماع بعض كلامه ، وقلت له : اعرض على أمرك ، فعرض على الإسلام ، وتلا على القرآن ، فو الله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت له : إنى مطاع فى قومى ، وراجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية ، فدعا .

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نورا فى وجهه مثل المصباح ، فقال : اللهم فى غير وجهى ، أخشى أن يقولوا : هذه مثلة ، فتحول النور إلى سوطه ، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما ، وأبطأ عليه قومه فى الإسلام لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق[1] ومعه سبعون أو ثمانون بيتا من قومه ، وقد أبلى فى الإسلام بلاء حسنا ، وقتل شهيدا يوم اليمامة[2].

٥ ــ ضماد الأزدى ــ كان من أزد شنوءة من اليمن ، وكان يرقى من هذا الريح ، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون : إن محمدا مجنون ، فقال : لو أنى أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى ، فلقيه ، فقال : يا محمد ، إنى أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد .

---

(١) بل وبعد الحديبية ، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر . انظر ابن هشام ١ / ٣٨٥ .

(٢) ابن هشام ١ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، رحمة للعالمين ١ / ٨١ ، ٨٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٤٤ ، تاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٧ .

فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه (١).

ست نسمات طيبة من أهل يثرب :

وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة ــ يوليو سنة ٦٢٠ م ــ وجدت الدعوة الإسلامية بذورا صالحة ، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ، اتقى المسلمون فى ظلالها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام .

وكان من حكمته ﷺ ــ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله ــ أنه كان يخرج إلى القبائل فى ظلام الليل ، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين(٢) .

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعلى ، فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم فى الإسلام . وقد دارت بين أبى بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة ، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة ، غير أنهم توقفوا فى قبول الإسلام (٣)

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى ، فسمع أصوات رجال يتكلمون(٤) ، فعمدهم حتى لحقهم ، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب ، كلهم من الخزرج ،

---

(١) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ، باب علامات النبوة ٢ / ٥٢٥ .
(٢) تاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٩ .
(٣) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ .
(٤) رحمة للعالمين ١ / ٨٤ .

وهم :

(١) أسعد بن زرارة	(من بنى النجار)
(٢) عوف بن الحارث بن رفاعة ، ابن عفراء	(من بنى النجار)
(٣) رافع بن مالك بن العجلان	(من بنى زريق)
(٤) قطبة بن عامر بن حديدة	(من بنى سلمة)
(٥) عقبة بن عامر بن نابى	(من بنى حرام بن كعب)
(٦) جابر بن عبد الله بن رئاب	(من بنى عبيد بن غنم)

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيا من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان ، سيخرج فنتبعه ، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم [١].

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ، قالوا : نفر من الخزرج ، قال : من موالى اليهود ؟ أى حلفائهم ، قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم ، إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا .

وكانوا من عقلاء يثرب ، أنهكتهم الحرب الأهلية التى مضت من قريب ، والتى لايزال لهيبها مستعرا ، فأملوا أن تكون دعوته سببا لوضع الحرب ، فقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٠ ، وابن هشام ١ / ٤٢٩ ، ٥٤١ .

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ (١).

استطراد ــ تزويج رسول الله ﷺ بعائشة :

وفي شوال من هذه السنة ــ سنة ١١ من النبوة ــ تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها ، وهي بنت ست سنين وبنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين (٢).

(١) نفس المصدر ١ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠ ، صحيح البخاري ١ / ٥٥١ .

الإسراء والمعراج

وبينا النبي ﷺ في هذه المرحلة التي كانت دعوته تشق فيها طريقا بين النجاح والاضطهاد ، وكانت تتراءى نجوما ضئيلة تتلمح في آفاق بعيدة ، وقع حادث الإسراء والمعراج .

واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى :

(١) فقيل : كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة ، اختاره الطبري .
(٢) وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين ، رجح ذلك النووي والقرطبي .
(٣) وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة ، واختاره العلامة المنصورفوري .
(٤) وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهرا ، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة .
(٥) وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة .
(٦) وقيل : قبل الهجرة بسنة ، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .

وردت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة ، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء[١] . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحدا منها ، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على

---

(١) انظر لهذه الأقوال زاد المعاد ٢ / ٤٩ . مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٤٨ ، ١٤٩ ، رحمة للعالمين ١ / ٧٦ وتاريخ إسلام للنجيب آبادي ١ / ١٢٤ .

أن الإسراء متأخر جدا .

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الوقعة . وفيما يلي نسردها بإيجاز :

قال ابن القيم : أسرى برسول الله ﷺ ، بجسده على الصحيح ، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، راكبا على البراق ، صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام ، فنزل هناك ، وصلى بالأنبياء إماما ، وربط البراق بحلقة باب المسجد .

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبريل ، ففتح له ، فرأى هنالك آدم أبا البشر ، فسلم عليه ، فرحب به ، ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، وأراه الله أرواح الشهداء عن يمينه ، وأرواح الأشقياء عن يساره .

ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم ، فلقيهما وسلم عليهما ، فردا عليه ، ورحبا به ، وأقرا بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف ، فسلم عليه ، فرد عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، فسلم عليه ، ورحب به وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى بن عمران ، فسلم عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

فلما جاوزه بكى موسى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى لأن غلاما بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فلقى فيها إبراهيم عليه السلام ، فسلم

عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور .

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مرّ على موسى ، فقال له : بم أمرك ؟ قال بخمسين صلاة : قال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت إلى جبريل ، كأنه يستشيره فى ذلك ، فأشار : أن نعم ، إن شئت ، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى ، وهو فى مكانه — هذا لفظ البخارى فى بعض الطرق — فوضع عنه عشرا ، ثم أنزل حتى مر بموسى ، فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ، حتى جعلها خمسا ، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييت من ربى ، ولكنى أرضى وأسلم ، فلما بعد نادى مناد : قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى — انتهى [1] .

ثم ذكر ابن القيم خلافا فى رؤيته ﷺ ربه تبارك وتعالى ، ثم ذكر كلاما لابن تيمية بهذا الصدد ، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلا وهو قول لم يقله أحد من الصحابة . وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقا ورؤيته بالفؤاد فالأول لا ينافى الثانى .

ثم قال : وأما قوله تعالى فى سورة النجم ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ (٥٣ : ٨) فهو غير الدنو الذى فى قصة الإسراء ، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبريل ، وتدليه ، كما قالت عائشة وابن مسعود ، والسياق يدل عليه ، وأما الدنو والتدلى فى حديث الإسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه ، ولا تعرض فى سورة النجم لذلك ، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . وهذا هو جبريل ، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين : مرة

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٧ ، ٤٨ .

فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . والله أعلم [١] انتهى .

وقد وقع حادث شق صدره ﷺ هذه المرة أيضا ، وقد رأى ضمن هذه الرحلة أمور عديدة :

عرض عليه اللبن والخمر ، فاختار اللبن ، فقيل : هديت الفطرة أو أصبت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

ورأى أربعة أنهار فى الجنة : نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، والظاهران هما : النيل والفرات ، ومعنى ذلك أن رسالته ستتوطن الأودية الخصبة فى النيل والفرات ، وسيكون أهلها حملة الإسلام جيلا بعد جيل ، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة .

ورأى مالك خازن النار ، وهو لا يضحك ، وليس على وجهه بشر وبشاشة ، وكذلك رأى الجنة والنار .

ورأى أكلة أموال اليتامى ظلما لهم مشافر كمشافر الإبل ، يقذفون فى أفواههم قطعا من نار كالأفهار ، فتخرج من أدبارهم .

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة ، لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن مكانهم ، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم .

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث المنتن ، ويتركون الطيب السمين .

ورأى النساء اللاتى يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم ، راهن معلقات بثديهن .

ورأى عيرا من أهل مكة فى الإياب والذهاب ، وقد دلهم على بعير ندّ

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٧ ، ٤٨ ، وانظر صحيح البخارى ١ / ٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٨١ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٢ / ٦٨٤ ، وصحيح مسلم ١ / ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

لهم ، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون ، ثم ترك الإناء مغطى ، وقد صار ذلك دليلا على صدق دعواه فى صباح ليلة الإسراء (١).

قال ابن القيم : فلما أصبح رسول الله ﷺ فى قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى ، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه ، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس ، فجلاه الله له ، حتى عاينه ، فطفق يخبرهم عن آياته ، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئا ، وأخبرهم عن عيرهم فى مسراه ورجوعه ، وأخبرهم عن وقت قدومها ، وأخبرهم عن البعير الذى يقدمها وكان الأمر كما قال ، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا ، وأبى الظالمون إلا كفورا (٢).

يقال سمى أبو بكر رضى الله عنه صديقا ؛ لتصديقه هذه الوقعة حين كذبها الناس (٣).

وأوجز وأعظم ما ورد فى تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ (١٧ : ١) وهذه سنة الله فى الأنبياء ، قال : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين ﴾ (٦ : ٧٥) وقال لموسى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ (٢٠ : ٢٣) وقد بين مقصود هذه الإرادة بقوله : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ فبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين مالا يقادر قدره ، وليس الخبر كالمعاينة ، فيتحملون فى سبيل الله مالا يتحمل غيرهم ، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب .

والحكم والأسرار التى تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة ، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من ينابيع هذه الرحلة

---

(١) المصادر السابقة وابن هشام ١ / ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .
(٢) زاد المعاد ١ / ٤٨ ، وانظر أيضا صحيح البخارى ٢ / ٦٨٤ ، وصحيح مسلم ١ / ٩٦ ، وابن هشام ١ / ٤٠٢ ، ٤٠٣
(٣) نفس المصدر الأخير ١ / ٣٩٩

المباركة وتتدفق إلى حدائق أزهار السيرة النبوية — على صاحبها الصلاة والسلام والتحية — أرى أن أسجل بعضا منها بالإيجاز :

يرى القارىء في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط ، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم ، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ، فربما يظن القارىء أن الآيتين ليس بينهما ارتباط ، والأمر ليس كذلك ، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس ؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية ؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب ، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى رسوله ﷺ ، ويجمع له مركزى الدعوة الإبراهيمية كليهما ، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة ، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان ، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات ، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القرآن الذي يهدى للتي هي أقوم .

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة ، والرسول يطوف في جبال مكة مطرودا بين الناس ، هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى ، وهي أن دورا من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام ، وسيبدأ دور آخر يختلف عن الأول في مجراه ، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ (١٧ : ١٦) ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ (١٧ : ١٧) وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامي ، كأنهم قد أووا إلى الأرض ، تملكوا فيها أمورهم من جميع النواحي ، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع ، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجأ ومأمنا يستقر فيه أمره ، ويصير مركزا لبث دعوته في أرجاء الدنيا . هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة ، يتصل ببحثنا ، فآثرنا ذكره .

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين ، والله أعلم .

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا فى موسم الحج سنة ١١ من النبوة ، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته فى قومهم .

وكان من جراء ذلك أن جاء فى الموسم التالى — موسم الحج سنة ١٢ من النبوة يوليو سنة ٦٢١ م — اثنا عشر رجلا ، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ فى العام السابق — والسادس الذى لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب — وسبعة سواهم . وهم :

(١) معاذ بن الحارث ، ابن عفراء	من بنى النجار	(من الخزرج)
(٢) ذكوان بن عبد القيس	من بنى زريق	(من الخزرج)
(٣) عبادة بن الصامت	من بنى غنم	(من الخزرج)
(٤) يزيد بن ثعلبة	من حلفاء بنى غنم	(من الخزرج)
(٥) العباس بن عبادة بن نضلة	من بنى سالم	(من الخزرج)
(٦) أبو الهيثم بن التيهان	من بنى عبد الأشهل	(من الأوس)
(٧) عويم بن ساعدة	من بنى عمرو بن عوف	(من الأوس)

الأخيران من الأوس ، والبقية كلهم من الخزرج .[1]

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٨٥ وابن هشام ١ / ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣

اتصل هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى ، فبايعوه بيعة النساء ، أى وفق بيعتهن التى نزلت عند فتح مكة .

• روى البخارى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : تعالوا ، بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله ، فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . قال : فبايعته — وفى نسخة فبايعناه — على ذلك[1] .

سفير الإسلام فى المدينة :

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبى ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير فى يثرب ، ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك ، واختار لهذه السفارة شابا من شباب الإسلام من السابقين الأولين ، وهو مصعب بن عمير العبدرى رضى الله عنه .

النجاح المغتبط :

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة ، وأخذا يبثان الإسلام فى أهل يثرب بجد وحماس ، وكان مصعب يعرف بالمقرىء .

---

(١) صحيح البخارى ، باب بعد باب حلاوة الإيمان ١ / ٧ ، باب وفود الأنصار ١ / ٥٥٠ ، ٥٥١ واللفظ من هذا الباب ، وباب قوله تعالى : إذا جاءك المؤمنات ٢ / ٧٢٧ ، باب الحدود كفارة ٢ / ١٠٠٣ .

ومن أروع ما يروى من نجاحه فى الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يوما يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر ، فدخلا فى حائط من حوائط بنى ظفر ، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق ، واجتمع إليهما رجال من المسلمين — وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل يومئذ على الشرك — فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد : اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانههما عن أن يأتيا دارينا ، فإن أسعد ابن زرارة ابن خالتى ، ولولا ذلك لكفيتك هذا .

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . وجاء أسيد فوقف عليهما متشتما ، وقال : ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فقال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . قال : فو الله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتهلله ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟

قالا له : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . فقام واغتسل ، وطهر ثوبه ، وتشهد وصلى ركعتين ، ثم قال : إن ورائى رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرشده إليكما الآن — سعد ابن معاذ — ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد فى قومه ، وهم جلوس فى ناديهم ، فقال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال : كلمت الرجلين فو الله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت .

وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه — وذلك

أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ـــ ليخفروك ، فقام سعد مغضبا للذى ذكر له ، فأخذ حربته ، وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى ، تغشانا فى دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسعد قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد ، فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفت ، ثم ركز حربته فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن نتكلم ، فى إشراقه وتهلله ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قالا : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . ففعل ذلك .

ثم أخذ حربته ، فأقبل إلى نادى قومه ، فلما رأوه قالوا : نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة إلا رجل واحد ـــ وهو الأصيرم ـــ تأخر إسلامه إلى يوم أحد ، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل ، ولم يسجد لله سجدة ، فقال النبى ﷺ : « عمل قليلا وأجر كثيرا » .

وأقام مصعب فى بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل ، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر ـــ وكانوا يطيعونه ـــ فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من

الهجرة .

وقبل حلول موسم الحج التالى ــ أى حج السنة الثالثة عشر ــ عاد مصعب بن عمير إلى مكة ، يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب ، وما فيها من مواهب الخير ، وما لها من قوة ومنعة [1].

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، و ٢ / ٩٠ ، وزاد المعاد ٢ / ٥١

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشر من النبوة ـــ يونيو سنة ٦٢٢ م ـــ حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب ، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين ، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم ـــ وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق ـــ حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية ، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى ، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل .

ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي . الذي حول مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام . يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه :

** خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها . ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام ، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ـــ وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ـــ فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر ،

إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيبا » .

* قال كعب : « فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من نسائنا ؛ نسيبة بنت كعب ــ أم عمارة ــ من بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو ــ أم منيع ــ من بنى سلمة » .

فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ، ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب ــ وهو يومئذ على دين قومه ــ إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، وتوثق له ، وكان أول متكلم[1] .

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية :

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الدينى والعسكرى ، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ . تكلم ليشرح لهم ــ بكل صراحة ــ خطورة المسئولية التى ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف . قال :

« يا معشر الخزرج ــ وكان العرب يسمون الأنصار خزرجا ، خزرجها وأوسها كليهما ــ إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١

إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده » .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت (١).

وهذا الجواب يدل على ماكانوا عليه من عزم وتصميم وشجاعة وإيمان وإخلاص فى تحمل هذه المسئولية العظيمة ، وتحمل عواقبها الخطيرة .

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه ، ثم تمت البيعة .

بنود البيعة :

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلا . قال جابر : قلنا : يا رسول الله على ما نبايعك ؟ قال :

(١) على السمع والطاعة فى النشاط والكسل .
(٢) وعلى النفقة فى العسر واليسر .
(٣) وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .
(٤) وعلى أن تقوموا فى الله ، لا تأخذكم فى الله لومة لائم .
(٥) وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة (٢).

وفى رواية كعب ــ التى رواها ابن إسحاق ــ البند الأخير فقط من هذه البنود ، ففيه « قال كعب . فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى

---

(١) نفس المصدر ١ / ٤٤١ ، ٤٤٢

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، وصححه الحاكم وابن حبان ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٥٥ ، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت ، وفيه بند زائد ، وهو « أن لاننازع الأمر أهله » انظر ابن هشام ١ / ٤٥٤ .

الله ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق (نبيا) لنمنعنك مما نمنع أُزُرَنا[1] منه ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا (عن كابر) .

قال : فاعترض القول ـــ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـــ أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها ـــ يعنى اليهود ـــ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم[2].

التأكيد من خطورة البيعة :

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة ، وأجمعوا على الشروع فى عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا فى مواسم سنتى ١١ ، ١٢ من النبوة ، قام أحدهما تلو الآخر ، ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية ، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر ، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية ويتأكدا من ذلك .

قال ابن إسحاق : لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نضلة : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ،

---

(١) العرب تكنى عن المرأة بالإزار وتكنى أيضا بالإزار عن النفس .

(٢) ابن هشام ١ / ٤٤٢ .

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة . قالوا ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه(١)

وفي رواية جابر (قال) : فقمنا نبايعه ، فأخذ بيده أسعد بن زرارة — وهو أصغر السبعين — فقال رويدا يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله (٢).

عقد البيعة :

وبعد إقرار بنود البيعة ، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة ، قال جابر — بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة — : فقالوا يا أسعد ، أمط عنا يدك ، فو الله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقيلها(٣) .

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل ، وتأكد منه — وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير ، وبالطبع فكان هو الرئيس الديني على هؤلاء المبايعين — فكان هو السابق إلى هذه البيعة . قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده(٤).

---

(١) نفس المصدر ١ / ٤٤٦ .

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث جابر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) قال ابن إسحاق : وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان ، وقال كعب بن مالك : بل

وبعد ذلك بدأت البيعة العامة ؛ قال جابر : فقمنا إليه رجلا رجلا فأخذ علينا البيعة ، يعطينا بذلك الجنة (١).

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولا . ماصافح رسول الله ﷺ إمرأة أجنبية قط (٢)

اثنا عشر نقيبا :

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ انتخاب اثنى عشر زعيما يكونون نقباء على قومهم ، يكفلون المسئولية عنهم فى تنفيذ بنود هذه البيعة ، فقال للقوم : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ؛ ليكونوا على قومكم بما فيهم .

فتم انتخابهم فى الحال ، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهاك أسماؤهم :

نقباء الخزرج :

(١) أسعد بن زرارة بن عدس .
(٢) سعد بن الربيع بن عمرو .
(٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة .
(٤) رافع بن مالك بن العجلان .
(٥) البراء بن معرور بن صخر .
(٦) عبد الله بن عمرو بن حرام .

= البراء بن معرور (ابن هشام ١ / ٤٤٧) قلت : لعلهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول ﷺ بيعة ، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذا ذاك هو أسعد بن زرارة . والله أعلم .

(١) مسند الإمام أحمد .

(٢) أنظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ٢ / ١٣١ .

(٧) عبادة بن الصامت بن قيس

(٨) سعد بن عبادة بن دليم .

(٩) المنذر بن عمرو بن خنيس .

نقباء الأوس :

(١) أسيد بن حضير بن سماك .

(٢) سعد بن خيثمة بن الحارث .

(٣) رفاعة بن عبد المنذر بن زبير.[١]

ولما تم انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبى ﷺ ميثاقا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين .

قال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى — يعنى المسلمين — قالوا : نعم.[٢]

شيطان يكتشف المعاهدة :

ولما تم إبرام المعاهدة ، وكان القوم على وشك الانفضاض ، اكتشفها أحد الشياطين ، وحيث جاء هذا الاكتشاف فى اللحظة الأخيرة ، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سرا ليباغتوا المجتمعين وهم فى الشعب ؛ قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض ، وصاح بأنفذ صوت سمع قط : « يأهل الأخاشب ـ المنازل — هل لكم فى محمد والصباة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم » .

فقال رسول الله ﷺ « هذا أزب العقبة ، أما والله ياعدو الله لأتفرغن

(١) زبير بالباء الموحدة ، وقيل : بالنون . وقد قيل بدل رفاعة ، أبو الهيثم بن التيهان .
ابن هشام ١ / ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ .

لك » . ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم.[1]

استعداد الأنصار لضرب قريش :

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة : « والذى بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا » . فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا.[2]

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب :

ولما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم ، فما إن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب ، ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة . فقد قال :

« يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ».[3]

ولماكان مشركو الخزرج لايعرفون شيئا عن هذه البيعة ؛ لأنها تمت فى سرية تامة ، وفى ظلام الليل ، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله : ما كان من شىء ، وما علمناه ، حتى أتوا عبد الله بن أبى بن سلول ، فجعل يقول : هذا

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥١ .

(٢) ابن هشام ١ / ٤٤٨

(٣) نفس المصدر ١ / ٤٤٨ .

باطل ، وما كان هذا ، وماكان قومي ليفتاتوا على مثل هذا ، لوكنت بيثرب ماصنع قومي هذا حتى يؤامروني .

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم لاذوا بالصمت ، فلم يتحدث أحد منهم بنفي أو إثبات .

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين ، فرجعوا خائبين .

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين :

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر ، لكنهم لم يزالوا يتنطسونه ــ يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه ــ حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح ، والبيعة قد تمت فعلا . وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم ، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين ، ولكن بعد فوات الأوان ، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، فطاردوهما ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فألقوا القبض عليه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة ، فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم . إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة ، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فوصل القوم جميعا إلى المدينة (١)

هذه هي بيعة العقبة الثانية ــ التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى ــ وقد تمت في جو تعلوه عواطف الحب والولاء والتناصر بين أشتات المؤمنين ، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل ، فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة ، ويتعصب له ، ويغضب من ظالمه ، وتجيش في حناياه

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥١ ، ٥٢ ، ابن هشام ١ / ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

مشاعر الود لهذا الأخ الذى أحبه بالغيب فى ذات الله .

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام ، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، إيمان لايزول أمام أى قوة من قوات الظلم والعدوان ، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب فى العقيدة والعمل ،وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالا ، ويتركوا عليها آثارا ، خلا عن نظائرها الغابر والحاضر ، وسوف يخلو المستقبل .

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ، ونجح الإسلام فى تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة ــ وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته ــ أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن .

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح ، والتضحية بالأموال ، والنجاة بالشخص فحسب ، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لايدرى مايتمخض عنه من قلاقل وأحزان .

وبدأ المسلمون يهاجرون ، وهم يعرفون كل ذلك ، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم ، لـماكانوا يحسون من الخطر ، وهاك نماذج من ذلك :

(١) كان من أول المهاجرين أبو سلمة ــ هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ماقاله ابن إسحاق ــ وزوجته وابنه ، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟فأخذوامنه زوجته ، وغضب آل أبى سلمة لرجلهم ، فقالوا : لانترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده ، وذهبوا به . وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، وكانت أم سلمة بعد ذهاب

زوجها ، وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تمسي ، ومضى على ذلك نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها وقال : ألاتخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها : الحقي بزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبته ، وخرجت تريد المدينة ــ رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا ــ وليس معها أحد من خلق الله ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة ، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة ، فلما نظر إلى قباء قال : زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة(١) .

(٢) ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لايكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي ، أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم . قال : فإني قد جعلت لكم مالي ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب .(٢)

(٣) وتواعد عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاصي بن وائل موضعا يصبحون عنده ، ثم يهاجرون إلى المدينة ، فاجتمع عمر وعياش وحبس عنهما هشام .

ولما قدما المدينة ونزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش ــ وأم الثلاثة واحدة ــ فقالا له : إن أمك قد نذرت أن لايمس رأسها مشط ، ولاتستظل بشمس حتى تراك ، فرق لها . فقال له عمر : ياعياش ، أنه والله إن يريدك القوم إلاليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فو الله لو آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فأبى عياش إلا الخروج معهما ؛ ليبر قسم أمه ، فقال له عمر : أما إذ قد فعلت مافعلت فخذ ناقتي هذه

(١) ابن هشام ١ / ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .
(٢) نفس المصدر ١ / ٤٧٧ .

فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها . فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يابن أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهارا موثقا ، وقالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفيهنا هذا .(1)

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك . ولكن مع كل ذلك خرج الناس أرسالا يتبع بعضهم بعض . وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي — أقاما بأمره لهما — وإلا من احتبسه المشركون كرها . وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج ، وأعد أبو بكر جهازه .(2)

روى البخاري عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ للمسلمين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين — وهما الحرتان — فهاجر من هاجر قبل المدينة . ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ على رسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لي . فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر — وهو الخبط — أربعة أشهر .(3)

---

(1) بقي هشام وعياش في قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يوما : من لي بعياش وهشام ؟ فقال الوليد بن الوليد : أنا لك يارسول الله بهما ، فقدم الوليد مكة مستخفيا ، ولقي امرأة تحمل إليهما طعاما فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور الجدار ، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة انظر ابن هشام ١ / ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، وكان قدوم عمر المدينة في عشرين من الصحابة (صحيح البخاري ١ / ٥٥٨) .

(2) زاد المعاد ٢ / ٥٢

(3) صحيح البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ١ / ٥٥٣ .

فِي دَارِ النَّدْوَةِ «بَرْلَمَانُ قُرَيْشٍ»

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا ، وحملوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج ، وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، وأخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقى العظيم ، الذى يهدد كيانهم الوثنى والاقتصادى ، فقد كانوا يعلمون مافى شخصية محمد ـ ﷺ ـ من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد ، ومافى أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء فى سبيله ، ثم مافى قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة ، ومافى عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح ، والتداعى إلى نبذ الأحقاد فيما بينهما ، بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر .

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجى بالنسبة إلى المحجة التجارية التى تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام . وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويا ، سوى ماكان لأهل الطائف وغيرها . ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن فى تلك الطريق .

فلا يخفى ماكان لقريش من الخطر البالغ فى تمركز الدعوة الإسلامية فى يثرب ، ومجابهة أهلها ضدهم .

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذى كان يهدد كيانهم ، فصاروا يبحثون

عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر ، الذى مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ .

وفى يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة ، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م [(١)] — أى بعد شهرين ونصف تقريبا من بيعة العقبة الكبرى — عقد برلمان مكة (دار الندوة) فى أوائل النهار[(٢)] أخطر اجتماع له فى تاريخه ، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية ، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعا على حامل لواء الدعوة الإسلامية ، وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائيا .

وكانت الوجوه البارزة فى هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش :

(١) أبو جهل بن هشام ، عن قبيلة بنى مخزوم .
(٢) جبير بن مطعم ، وطعيمة بن عدى ، والحارث بن عامر ، عن بنى نوفل ابن عبد مناف .
(٣) شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، عن بنى عبد شمس بن عبد مناف .
(٤) النضر بن الحارث (وهو الذى كان ألقى على رسول الله ﷺ سلا جزور) عن بنى عبد الدار .
(٥) أبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام عن بنى أسد بن عبد العزى .
(٦) نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، عن بنى سهم .
(٧) أمية بن خلف ، عن بنى جمح .

---

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات التى سجلها العلامة محمد سليمان المنصور فورى فى رحمة للعالمين ١ / ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ٢ / ٤٧١ .

(٢) يدل على انعقاد الاجتماع فى أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جبريل أخبر النبى ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن فى الهجرة . ثم ما رواه البخارى من حديث عائشة أن النبى ﷺ جاء أبا بكر فى نحر الظهيرة وقال له : « قد أذن فى الخروج » وسيأتى .

ولماجاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل ، عليه بتلة ، ووقف على الباب ، فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لايعدمكم منه رأيا ونصحا . قالوا : أجل ، فادخل ، فدخل معهم .

النقاش البرلمانى والإجماع على قرار غاشم بقتل النبى ﷺ :

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول ، ودار النقاش طويلا . قال أبو الأسود : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ، ولانبالى أين ذهب ، ولاحيث وقع ، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدى : لا والله ماهذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ، ثم يسير بهم إليكم — بعد أن يتابعوه — حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، ويروا فيه رأيا غير هذا .

قال أبو البخترى : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ماأصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله — زهيرا والنابغة — ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

قال الشيخ النجدى : لا والله ماهذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه — كما تقولون — ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوا على أمركم . ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره .

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه ، تقدم به كبير مجرمى مكة أبو جهل بن هشام . قال أبو جهل : « والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وماهو ياأبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم

سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدى : القول ماقال الرجل ، هذا الرأى الذى لاأرى غيره . ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع ، ورجع النواب إلى بيوتهم ، وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فورا .[1]

(١) انظر ابن هشام ١ / ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ .

هجرة النبي

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي ربه تبارك وتعالى ، فأخبره بمؤامرة قريش ، وأن الله قد أذن له في الخروج ، وحدد له وقت الهجرة قائلا : لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه[1].

وذهب النبي ﷺ في الهاجرة إلى أبي بكر رضي الله عنه ؛ ليبرم معه مراحل الهجرة ، قالت عائشة رضي الله عنها : بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ - متقنعاً ، في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ماجاء به في هذه الساعة إلا أمر .

قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك . فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبي أنت يارسول الله . قال : فإني قد أذن لي في الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يارسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم .[2]

وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، ينتظر مجيء الليل .

تطويق منزل الرسول ﷺ :

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التي

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٨٢ ، زاد المعاد ٢ / ٥٢ .

(٢) صحيح البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ١ / ٥٥٣ .

أبرمها برلمان مكة « دار الندوة » صباحا ، واختير لذلك أحد عشر رئيسا من هؤلاء الأكابر ، وهم :ـــ

(١) أبوجهل بن هشام .

(٢) الحكم بن أبى العاص .

(٣) عقبة بن أبى معيط .

(٤) النضر بن الحارث .

(٥) أمية بن خلف .

(٦) زمعة بن الأسود .

(٧) طعيمة بن عدى .

(٨) أبو لهب .

(٩) أبى بن خلف .

(١٠) نبيه بن الحجاج .

(١١) أخوه منبه بن الحجاج .[١]

قال ابن إسحاق : فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام ، فيثبون عليه.[٢]

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنية ، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء ، وقال مخاطبا لأصحابه المطوقين فى سخرية واستهزاء : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نارا تحرقون فيها .[٣]

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٢ .

(٢) ابن هشام ١ / ٤٨٢ .

(٣) نفس المصدر ١ / ٤٨٣ .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل ، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر ، ولكن الله غالب على أمره ، بيده ملكوت السماوات والأرض ، يفعل مايشاء ، وهو يجير ولايجار عليه ، فقد فعل ماخاطب به الرسول ﷺ فيما بعد : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين ﴾ (٨ : ٣٠) .

الرسول ﷺ يغادر بيته :

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلا فاحشا . ففي هذه الساعة الحرجة قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب : نم على فراشي ، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام .[١]

ثم خرج رسول الله ﷺ ، واخترق صفوفهم ، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رءوسهم ، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه ، وهو يتلو : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون ﴾ (٣٦ : ٩) فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ومضى إلى بيت أبي بكر ، فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلا حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمن .[٢]

وبقي المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر ، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل ، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم ، ورآهم ببابه فقال : ماتنتظرون ؟ قالوا محمدا . قال : خبتم وخسرتم ، قد والله مر بكم ، وذر على رءوسكم التراب ، وانطلق لحاجته ، قالوا والله ماأبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم .

ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا عليا ، فقالوا والله إن هذا لمحمد نائما ،

---

(١) نفس المصدر ١ / ٤٨٢ ، ٤٨٣ .
(٢) نفس المصدر ١ / ٤٨٣ ، زاد المعاد ٢ / ٥٢ .

عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . وقام عليٌّ عن الفراش ، فسقط فى أيديهم ، وسألوه عن رسول الله ﷺ ، فقال : لاعلم لى به .[1]

من الدار إلى الغار :

غادر رسول الله ﷺ بيته فى ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة الموافق ١٢ / ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م[2]. وأتى إلى دار رفيقه — وأمن الناس عليه فى صحبته وماله — أبى بكر رضى الله عنه . ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفى ، ليخرجا من مكة على عجل ، وقبل أن يطلع الفجر .

ولما كان النبى ﷺ يعلم أن قريشا ستجد فى الطلب ، وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسى المتجه شمالا ، فقد سلك الطريق الذى يضاده تماما ، وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والمتجه نحو اليمن . سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال ، حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور ، وهذا جبل شامخ ، وعر الطريق ، صعب المرتقى ، ذا أحجار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله ﷺ ، وقيل : بل كان يمشى فى الطريق على أطراف قدميه كى يخفى أثره فحفيت قدماه ، وأيا ما كان ؛ فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل ، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار فى قمة الجبل ، عرف فى التاريخ بغار ثور[3] .

إذ هما فى الغار :

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : والله لاتدخله حتى أدخله قبلك ، فإن

(١) نفس المصدرين السابقين .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٩٥ — ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشر من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم ، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذى أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة ، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشر قطعا . وعامة من يكتب فى السيرة ربما يختار هذا ، وربما يختار ذلك ، فكثيرا ما يتخبط فى ترتيب الوقائع ، ويقع فى أغلاط ونظرا إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم .

(٣) رحمة للعالمين ١ / ٩٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٦٧ .

كان فيه شيء أصابني دونك ، فدخل فكسحه ، ووجد في جانبه ثقبا فشق إزاره وسدها به ، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل . فدخل رسول الله ﷺ ، ووضع رأسه في حجره ونام ، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ ، فقال : مالك ياأبا بكر ؟ قال لدغت ، فداك أبي وأمي ، فتفل رسول الله ﷺ ، فذهب ما يجده [١] .

وكمنا في الغار ثلاث ليال ، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد [٢] . وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما . قالت عائشة : وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام . و(كان) يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسل ــ وهو لبن منحتهما ورضيفهما ــ حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث [٣] . وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفي عليه [٤] .

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة . فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليا ، وسحبوه إلى الكعبة ، وحبسوه ساعة ، علهم يظفرون بخبرهما [٥] .

ولما لم يحصلوا من عليّ على جدوى جاءوا إلى بيت أبي بكر ، وقرعوا

---

(١) رواه رزين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيه ثم انتقض عليه (أي رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته . انظر مشكاة المصابيح ، باب مناقب أبي بكر ٢ / ٥٥٦ .

(٢) انظر فتح الباري ٧ / ٣٣٦ .

(٣) صحيح البخاري ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

(٤) ابن هشام ١ / ٤٨٦ .

(٥) رحمة للعالمين ١ / ٩٦ .

بابه ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر ، فقالوا لها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدرى والله أين أبى ؟ فرفع أبو جهل يده — وكان فاحشا خبيثا — فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها [1].

وقررت قريش فى جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التى يمكن بها القبض على الرجلين ، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (فى جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة ، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين ، كائنا من كان . [2]

وحينئذ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر فى الطلب ، وانتشروا فى الجبال والوديان ، والوهاد والهضاب ، لكن من دون جدوى وبغير عائدة .

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار ، ولكن الله غالب على أمره ، روى البخارى عن أنس عن أبى بكر قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرفعت رأسى ، فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت يانبى الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا . قال : اسكت ياأبا بكر ، اثنان الله ثالثهما ، وفى لفظ : ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما [3] .

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٨٧ .

(٢) انظر صحيح البخارى ١ / ٥٥٤ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥١٦ ، ٥٥٨ ، ولم يكن فزع أبى بكر مخافة على نفسه ، بل سببه الوحيد هو ماروى أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال : إن قتلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، فعندها قال له رسول الله ﷺ ﴿ لاتحزن إن الله معنا ﴾انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٦٨ .

فى الطريق إلى المدينة :

وحين خمدت نار الطلب ، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش ، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى ، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة .

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثى ، وكان هاديا خريتا ـــ ماهرا بالطريق ـــ وكان على دين كفار قريش ، وأمناه على ذلك ، وسلما إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما ، فلما كانت ليلة الإثنين ـــ غرة ربيع الأول سنة ١هـ / ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢ م ـــ جاءهما عبد الله ابن أريقط بالراحلتين وحينئذ قال أبو بكر للنبى ﷺ : بأبى أنت يارسول الله ، خذ إحدى راحلتى هاتين . وقرب إليه أفضلهما . فقال رسول الله ﷺ : بالثمن .

وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام ، فشقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر ، فسميت ذات النطاقين (١) .

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه ، وارتحل معهما عامر بن فهيرة ، وأخذ بهم الدليل ـــ عبد الله بن أريقط ـــ على طريق السواحل .

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن فى اتجاه الجنوب نحو اليمن ، ثم اتجه غربا نحو الساحل ، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالا على مقربة من شاطىء البحر الأحمر ، وسلك طريق لم يكن يسلكه أحد إلا نادرا .

وقد ذكر بن إسحاق المواضع التى مر بها رسول الله ﷺ فى هذا الطريق قال : لما خرج بهماالدليل سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحا

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٥ وابن هشام ١ / ٤٨٦ .

حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديدا ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار ، ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفا ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح ، ثم سلك بهما مرجح محاج ، ثم تبطن بهما مرجح ذى الغضوين ، ثم بطن ذى كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم ، من بطن أعداء مدلجة تعهن ، ثم على العبابيد ، ثم أجاز بهما الفاجة ، ثم هبط بهما العرج ، ثم سلك بهما ثنية العائر — عن يمين ركوبة — حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما على قباء [1]. وهاك بعض ما وقع فى الطريق :

(١) روى البخارى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق ، لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس ، فنزلنا عنده ، وسويت للنبى ﷺ مكانا بيدى ، ينام عليه ، وبسطت عليه فروة ، وقلت : نم يارسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام ، وخرجت أنفض ما حوله ، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة ، يريد منها مثل الذى أردنا ، فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة . قلت : أفى غنمك لبن ؟ قال : نعم . قلت : أفتحلب ؟ قال : نعم . فأخذ شاة ، فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقذى . فحلب فى كعب كثبة من لبن ، ومعى إداوة حملتها للنبى ﷺ ، يرتوى منها ، يشرب ويتوضأ ، فأتيت النبى ﷺ ، فكرهت أن أوقظه ، فوافقته حين استيقظ ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله ، فقلت : اشرب يارسول الله ، فشرب حتى رضيت ، ثم قال : ألم يأن الرحيل ؟ قلت : بلى ، قال : فارتحلنا [2].

(٢) كان من دأب أبى بكر رضى الله عنه أنه كان ردفا للنبى ﷺ ، وكان شيخا يعرف ، ونبى الله ﷺ شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : من

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٩١ ، ٤٩٢ .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥١٠ .

هذا الرجل الذى بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهدينى الطريق ، فيحسب الحاسب أنه يعنى به الطريق ، وإنما يعنى سبيل الخير (١) .

(٣) وتبعهما فى الطريق سراقة بن مالك . قال سراقة : بينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ، ونحن جلوس ، فقال : ياسراقة ، إنى رأيت آنفا أسودة بالساحل ، أراها محمدا وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم . فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا ، ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى ، وهى من وراء أكمة ، فتحبسها على ، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه الأرض ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسى ، فركبتها ، فعرفتها تقرب بى حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى فخررت عنها ، فقمت ، فأهويت يدى إلى كنانتى ، فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها ، أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره ، فركبت فرسى وعصيت الأزلام ، تقرب بى ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ ـــ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ـــ ساخت يدا فرسى فى الأرض ، حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسى حتى جئتهم ، ووقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له ، إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ، ولم يسألانى إلا أن قال : أخف عنا ، فسألته أن يكتب لى كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة ، فكتب لى فى رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ (٢) .

وفى رواية عن أبى بكر قال : ارتحلنا ، والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا منهم أحد

---

(١) روى ذلك البخارى عن أنس ١ / ٥٥٦ .

(٢) نفس المصدر ١ / ٥٥٤ ـــ وكان مقر بنى مدلج بالقرب من رابغ ، وتبعهما سراقة حينما كانا مصعدين من قديد ـــ زاد المعاد ٢ / ٥٣ ـــ فالأغلب أنه تبعهما فى اليوم الثالث من رحيلهما .

غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله ، فقال : ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ (١) .

ورجع سراقة ، فوجد الناس فى الطلب ، فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر ، قد كفيتم ما ههنا . وكان أول النهار جاهدا عليهما ، وآخره حارسا لهما (٢) .

(٤) ومر فى مسيره ذلك حتى مر بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الخيمة ، ثم تطعم وتسقى من مر بها ، فسألاها : هل عندها شيء ؟ فقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب ، وكانت سنة شهباء .

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك . فقال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبى وأمى ، إن رأيت بها حلبا فاحلبها . فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا ، فتفاجت عليه ودرت ، فدعا بإناء لها يربض الرهط ، فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانيا ، حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها فارتحلوا .

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلا ، فلما رأى اللبن عجب ، فقال : من أين لك هذا ؟ والشاة عازب ، ولا حلوبة فى البيت ؟ فقالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، ومن حاله كذا وكذا ، قال : إنى والله أراه صاحب قريش الذى تطلبه ، صفيه لى يا أم معبد ، فوصفته بصفاته الرائعة بكلام رائع كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه — وسننقله فى بيان صفاته ﷺ فى أواخر المقالة — فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥١٦ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٥٣ .

إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة عاليا يسمعونه ولا يرون القائل :

جزى الله رب العرش خير جزائه — رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به — وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى ما زوى الله عنكم — به من فعال لا يحاذى وسؤدد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم — ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها — فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

قالت أسماء : ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات ، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه ، حتى خرج من أعلاها . قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهه إلى المدينة [١] .

(٥) وفى الطريق لقى النبى ﷺ أبا بريدة ، وكان رئيس قومه ، خرج فى طلب النبى ﷺ وأبى بكر ؛ رجاء أن يفوز بالمكافأة الكبيرة التى كان قد أعلن عنها قريش ، ولما واجه رسول الله ﷺ وكلمه أسلم مكانه مع سبعين رجلا من قومه ، ثم نزع عمامته ، وعقدها برمحه ، فاتخذها راية تعلن بأن ملك الأمن والسلام قد جاء ليملأ الدنيا عدلا وقسطا [٢] .

(٦) وفى الطريق لقى رسول الله ﷺ الزبير ، وهو فى ركب المسلمين ، كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابا بيضاء [٣].

النزول بقباء :

وفى يوم الإثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة — وهى السنة الأولى من

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) رحمة للعالمين ١ / ١٠١ .
(٣) روى ذلك البخارى عن عروة بن الزبير ١ / ٥٥٤ .

الهجرة ـــ الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م نزل رسول الله ﷺ بقباء [١]

قال عروة بن الزبير : سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته يامعاشر العرب ، هذا جدكم الذى تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح [٢] .

قال ابن القيم : وسمعت الوجبة والتكبير فى بنى عمرو بن عوف ، وكبر المسلمون فرحا بقدومه ، وخرجوا للقائه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحى نزل عليه : ﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ (٦٦ : ٤) [٣] .

قال عروة بن الزبير : فتلقوا رسول الله ﷺ ، فعدل بهم ذات اليمين ، حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول . فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى ـــ وفى نسخة : يجيىء ـــ أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك [٤] .

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال ، وكان يوما مشهودا لم تشهد

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ ـــ وفى هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثة وخمسين عاما كاملا لا وكس ولا شطط ، وتم على نبوته ثلاثة عشر عاما كاملا عند من يقول : إنه أكرم بالنبوة فى ٩ ربيع الأول فى سنة ٤١ من عام الفيل ، وأما من يقول : إنه أكرم بالنبوة فى رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته ـــ فى ذلك اليوم ـــ اثنى عشر عاما وخمسة أشهر و١٨ يوماً أو ٢٢ يوما .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥٥٥ .

(٣) زاد المعاد ٢ / ٥٤ .

(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٥٥ .

المدينة مثله فى تاريخها ، وقد رأى اليهود صدق بشارة حبقوق النبى : إن الله جاء من التيمان ، والقدوس من جبال فاران (١).

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم ، وقيل : بل على سعد بن خيثمة ، والأول أثبت ، ومكث على بن أبى طالب بمكة ثلاثا ، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ، ثم هاجر ماشيا على قدميه ، حتى لحقهما بقباء ، ونزل على كلثوم بن الهدم (٢).

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام : الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس (٣). وأسس مسجد قباء وصلى فيه ، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، فلما كان اليوم الخامس ــ يوم الجمعة ــ ركب بأمر الله له ، وأبو بكر ردفه ، وأرسل إلى بنى النجار ــ أخواله ــ فجاءوا متقلدين سيوفهم ، فسار نحو المدينة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فجمع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وكانوا مائة رجل (٤).

الدخول فى المدينة :

وبعد الجمعة دخل النبى ﷺ المدينة ــ ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب

---

(١) صحيفة حبقوق (٣ : ٣) .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٥٤ . ابن هشام ١ / ٤٩٣ ، رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ .

(٣) هذا ما رواه ابن إسحاق ، انظر ابن هشام ١ / ٤٩٤ وهو الذى اختاره العلامة المنصور فورى انظر رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ ، وفى صحيح البخارى أنه أقام بقباء أربعا وعشرين ليلة (١ / ٦١) وبضع عشرة ليلة (١ / ٥٥٥) وأربع عشرة ليلة (١ / ٥٦٠) وهذا الأخير هو الذى اختاره ابن القيم ، وقد صرح هو نفسه أن نزوله بقباء كان يوم الإثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٢ / ٥٤ ، ٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومى الدخول والخروج ، ومعهما لا يزيد على اثنى عشر يوما إذا كانا من اسبوعين .

(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢ / ٥٥ ، ابن هشام ١ / ٤٩٤ رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ .

بمدينة الرسول ﷺ ، ويعبر عنها بالمدينة مختصرا ـــ وكان يوما تاريخيا أغر ، فقد كانت البيوت والسكك ترتج بأصوات التحميد والتقديس ، وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحا وسرورا [1]:

أشرق البـدر علينـــا   من ثنيـــات الـــوداع
وجب الشكـر علينـــا   ما دعـــــــا لله داع
أيها المبعـوث فينـــا   جئت بالأمـر المطـــاع

والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة ؛ إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه . فكان لايمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته : هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة ، فكان يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلا ، ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول ، فنزل عنها ، وذلك فى بنى النجار ـــ أخواله ـــ ﷺ . وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ فى النزول عليهم ، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : المرء مع رحله ، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته ، وكانت عنده [2] .

وفى رواية أنس عند البخارى ، قال نبى الله ﷺ : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يارسول الله ، هذه دارى ، وهذا بابى . قال : فانطلق فهىء لنا مقيلا ، قال : قوما على بركة الله [3] .

---

(١) ذكر ابن القيم أن إنشاد هذه الأشعار كان عند مرجعه ﷺ من تبوك ، ووهم من يقول : إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ٣ / ١٠) لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهيم بدليل يشفى ، وقد رجح العلامة المنصور فورى أن ذلك كان عند مقدمه المدينة ، ومعه دلائل لا يمكن ردها انظر رحمة للعالمين ١ / ١٠٦ .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ١٠٦ ، زاد المعاد ٢ / ٥٥ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٥٦ .

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة ، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وأسامة بن زيد ، وأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة ، وبقيت زينب عند أبي العاص ، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر (١) .

قالت عائشة : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : يا أبه كيف تجدك ، ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ... بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردنْ يوما مياه مجنة ... وهل يبْدُوَنْ لى شامة وطفيل

قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ ، فأخبرته ، فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حبا ، وصححها ، وبارك فى صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة (٢).

إلى هنا انتهى قسم من حياته ﷺ ، وتم دور من الدعوة الإسلامية ، وهو الدور المكى .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٥ .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

الحياة في المدينة

يمكن تقسيم العهد المدنى إلى ثلاث مراحل :

١ــ مرحلة أثيرت فيها القلاقل والفتن ، وأقيمت فيها العراقيل من الداخل ، وزحف فيها الأعداء إلى المدينة لاستئصال خضرائها من الخارج . وهذه المرحلة تنتهى إلى صلح الحديبية فى ذى القعدة سنة ٦من الهجرة .

٢ــ مرحلة الهدنة مع الزعامة الوثنية ، وتنتهى بفتح مكة ، فى رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وهى مرحلة دعوة الملوك إلى الإسلام .

٣ــ مرحلة دخول الناس فى دين الله أفواجاً ، وهى مرحلة توافد القبائل والأقوام إلى المدينة ، وهذه المرحلة تمتد إلى انتهاء حياة الرسول ﷺ فى ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة .

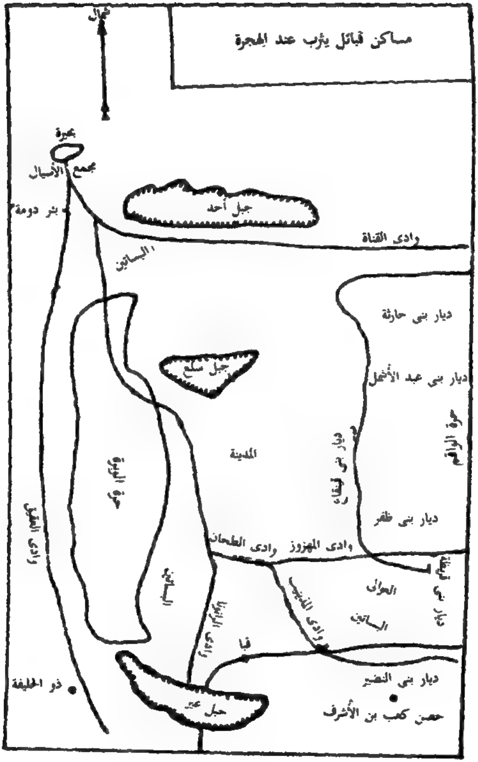
مساكن قبائل يثرب عند الهجرة
بحيرة
مجمع الأسيال
بئر دومة
جبل أحد
وادى القناة
البساتين
ديار بنى حارثة
جبل سلع
ديار بنى عبد الأشهل
حرة الواقم
المدينة
حرة الوبرة
ديار بنى ظفر
وادى الطحان
وادى المهزوز
وادى العقيق
العوالى
البساتين
وادى مذينيب
قبا
ديار بنى النضير
ذو الحليفة
حصن كعب بن الأشرف

المرحلة الأولى
الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة هو التخلص من الفتنة والاستهزاء فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاونا على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن . ولذلك أصبح فرضا على كل مسلم قادر أن يسهم فى بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده فى تحصينه ورفعة شأنه .

ولا شك أن رسول الله ﷺ هو الإمام والقائد والهادى فى بناء هذا المجتمع ، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع .

والأقوام التى كان يواجهها رسول الله ﷺ فى المدينة كانت على ثلاثة أصناف ، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافا واضحا ، وكان يواجه بالنسبة إلى كل صنف منها مسائل عديدة غير المسائل التى كان يواجهها بالنسبة إلى الأخرى . وهذه الأصناف الثلاثة هى :

(١) أصحابه الصفوة الكرام البررة رضى الله عنهم .

(٢) المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .

(٣) اليهود .

أ ــ والمسائل التى كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماما عن الظروف التى مروا بها فى مكة ،

فهم في مكة وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة ، وكانوا يستهدفون إلى أهداف متفقة ، إلا أنهم كانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، لم يكن لهم من الأمر شيء ، وإنما كان الأمر بيد أعدائهم في الدين ، فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن يقيموا مجتمعا إسلاميا جديدا بمواده التي لا يستغنى عنها أى مجتمع إنسانى في العالم ، ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادىء الإسلامية ، وعلى التشريعات التي يمكن العمل بها لكل فرد وحده ، وعلى الحث على البر والخير ومكارم الأخلاق ، والاجتناب عن الرذائل والدنايا .

أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم ، ولم يكن عليهم سيطرة أحد من الناس ، فقد آن لهم أن يواجهوا بمسائل الحضارة والعمران ، وبمسائل المعيشة والاقتصاد ، وبمسائل السياسة والحكومة ، وبمسائل السلم والحرب ، وبالتنقيح الكامل في مسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وما إلى ذلك من مسائل الحياة .

كان قد آن لهم أن يكونوا مجتمعا جديداً ، مجتمعا إسلاميا ، يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، ويمتاز عن أى مجتمع يوجد في العالم الإنسانى ، ويكون ممثلا للدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألوانا من النكال والعذاب طيلة عشر سنوات .

ولا يخفى أن تكوين أى مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يستتب في يوم واحد ، أو شهر واحد ، أو سنة واحدة ، بل لابد له من زمن طويل ، يتكامل فيه التشريع والتقنين مع التثقيف والتدريب والتربية تدريجيا ، وكان الله كفيلا بهذا التشريع ، وكان رسول الله ﷺ قائما بتنفيذه ، والإرشاد إليه ، وتربية المسلمين وِفْقَهُ ﴿ هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ : (٦٢ : ٢) .

وكان الصحابة رضى الله عنهم مقبلين عليه بقلوبهم ، يتحلون بأحكامه ويستبشرون بها ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ (٨:٢) وليس

تفصيل هذه المسائل كلها من مباحث موضوعنا فنقتصر منها على قدر الحاجة .

كان هذا أعظم ما يواجهه رسول الله ﷺ بالنسبة إلى المسلمين ، وهذا الذى كان هو المقصود — على نطاق واسع — من الدعوة الإسلامية ، والرسالة المحمدية ، ولكن لم يكن هذا قضية طارئة . نعم كانت هناك مسائل — دون ذلك — كانت تقتضى الاستعجال .

كانت جماعة المسلمين مشتملة على قسمين : قسم هم فى أرضهم وديارهم وأموالهم ، لا يهمهم من ذلك إلا ما يهم الرجل وهو آمن فى سربه ، وهم الأنصار ، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد . وكان بجانب هؤلاء قسم آخر — وهم المهاجرون — فاتهم كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ، ليس لهم ملجأ يأوون إليه ، ولا عمل يعملونه لمعيشتهم ، ولا مال يبلغون به قواما من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، وكانوا يزيدون يوما فيوما ، فقد كان أوذن بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله . ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، فتزعزع ميزانها الاقتصادى ، وفى هذه الساعة الحرجة قامت القوات المعادية للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية ، قلت لأجلها المستوردات ، وتفاقمت الظروف .

ب — أما القوم الثانى — وهم المشركون من صميم قبائل المدينة — فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ، ويتردد فى ترك دين الآباء ، ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله .

وكان فيهم من يبطن شديد الإحن والعداوة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين ، ولكن لم يكن يستطيع أن يناوئهم ، بل كان مضطرا إلى إظهار الودّ والصفاء نظرا إلى الظروف ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبى ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بعاث ، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله . وكانوا قد نظموا له الخرز ، ليتوجوه ويملكوه ، وكان على وشك أن يصير ملكا على أهل المدينة إذ باغت مجىء رسول الله ﷺ ،

وانصراف قومه عنه إليه ، فكان يرى أنه استلبه ملكا ، فكان يبطن شديد العداوة ضده ــ ولما رأى الظروف لا تساعده على شركه ، وأنه يحرم الفوائد الدنيوية أظهر الإسلام بعد بدر ، ولكن بقى مستبطنا الكفر ، وكان لايجد مجالا للمكيدة برسول الله ﷺ وبالمسلمين إلا ويأتى بها ــ وكان أصحابه ــ من الرؤساء الذين حرموا المناصب المرجوة فى ملكه ــ يساهمونه ويدعمونه فى تنفيذ خططه ، وربما كانوا يتخذون بعض الأحداث ، وضعاف العقول من المسلمين عملاء لهم ؛ لتنفيذ خططهم .

ج ــ أما القوم الثالث ــ وهم اليهود ــ فقد كانوا انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشورى والرومانى كما أسلفنا ، وكانوا فى الحقيقة عبرانيين ، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز صبغوا بالصبغة العربية فى الزى واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم أو أفرادهم عربية ، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر ، إلا أنهم تحفظوا بعصبيتهم الجنسية ، ولم يندمجوا فى العرب قطعا ، بل كانوا يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية ــ اليهودية ــ وكانوا يحتقرون العرب احتقارا بالغا حتى كانوا يسمونهم أميين بمعنى أنهم وحوش سذج ، وأراذل متأخرون ، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم ، يأكلونها كيف شاءوا ، ﴿ قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ (٣ : ٧٥) ولم يكن لهم تحمس فى نشر دينهم وإنما جل بضاعتهم الدينية هى : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها ، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية .

وكانوا مهرة فى فنون الكسب والمعيشة ، فكانت فى أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب ، كانوا يوردون الثياب والحبوب والخمر ، ويصدرون التمر ، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافا مضاعفة ، ثم لم يكونوا يقتصرون على ذلك ، بل كانوا أكالين للربا ، كانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم ، ليكتسب هؤلاء الرؤساء مدائح من الشعراء ، وسمعة بين الناس بعد إنفاقها من غير جدوى ولا طائلة ، ثم كانوا يرتهنون أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم

وحوائطهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواما حتى يتملكونها .

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفى لم تكن تشعره تلك القبائل ، فلا تزال فى حروب دامية متواصلة ، ولاتزال أنامل اليهود تؤجج نيرانها كلما رأتها تقارب الخمود والانطفاء ، وبعد هذا التحريض والإغراء كانوا يقعدون على جانب ، يرون ساكتين ما يحل بهؤلاء العرب ، نعم كانوا يزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة ، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين ، كانوا يتحفظون على كيانهم اليهودى ، وينفقون سوق الربا ، ليأكلوه أضعافا مضاعفة ، ويكسبوا ثروات طائلة .

وكانت فى يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة :

(١) بنو قينقاع ، كانوا حلفاء الخزرج ، وكانت ديارهم داخل المدينة .

(٢) بنو النضير .

(٣) بنو قريظة ، وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس ، وكانت ديارهما بضواحى المدينة .

وهذه القبائل هى التى كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد ، وقد ساهمت بأنفسها فى حرب بعاث ، كل مع حلفائها .

وطبعا فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد ، فالرسول لم يكن من جنسهم حتى ليسكن جأش عصبيتهم الجنسية التى كانت متغلبة على نفسياتهم وعقليتهم ، ثم دعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب ، وتطفىء نار العداوة والبغضاء ، وتدعو إلى التزام الأمانة فى الشئون ، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال ، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستتألف فيما بينها ، وحينئذ لابد من أن تفلت من براثن اليهود ، فيفشل نشاطهم التجارى ، ويحرموا أموال

الربا الذى كانت تدور عليه رحى ثروتهم ، بل ربما يحتمل أن تتيقظ تلك القبائل ، فتدخل فى حسابها الأموال الربوية التى أخذها اليهود ، فتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التى أضاعتها إلى اليهود فى تأدية الربا .

كان اليهود يدخلون كل ذلك فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار في يثرب ، ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة ضد الإسلام ، وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين .

ويظهر ذلك جليا بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها . قال ابن إسحاق : حدثت عن صفية بنت حيى بن أخطب أنها قالت : كنت أحب ولد أبى إليه ، وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه . قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قباء فى بنى عمرو ابن عوف ، غدا عليه أبى ؛ حيى بن أخطب ، وعمى أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين ، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلى واحد منهما ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمى أبا ياسر ، وهو يقول لأبى ، حيى بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت (1).

ويشهد بذلك أيضا مارواه البخارى فى إسلام عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، فقد كان حبرا من فطاحل علماء اليهود ، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بنى النجار جاءه مستعجلا ، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبى ، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به ساعته ومكانه ، ثم قال له : إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك ، فأرسل رسول الله

---

(1) ابن هشام ١ / ٥١٨ ، ٥١٩ .

ﷺ فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام البيت ، فقال رسول الله ﷺ : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا (وفى لفظ :) سيدنا وابن سيدنا ، (وفى لفظ آخر :) خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا ، فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك (مرتين أو ثلاثا) ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه . (وفى لفظ) فقال : يامعشر اليهود اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت [1].

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ﷺ من اليهود ، فى أول يوم دخل فيه المدينة .

هذا كله من حيث الداخلية ، وأما من حيث الخارجية؛ فإن ألد قوة ضد الإسلام هى قريش ، كانت قد جربت منذ عشرة أعوام ــ حينما كان المسلمون تحت يديها ــ كل أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة وسياسة التجويع والمقاطعة ، وأذاقتهم التنكيلات والويلات ، وشنت عليهم حربا نفسية مضنية مع دعاية واسعة منظمة ، ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم ، بل حبست وعذبت من قدرت عليه ، ثم لم تقتصر على هذا ، بل تآمرت على الفتك بصاحب الدعوة ﷺ والقضاء عليه ، وعلى دعوته ، ولم تأل جهدا فى تنفيذ هذه المؤامرة . وبعد هذا كله ــ لما نجا المسلمون إلى أرض تبعد عنها خمسمائة كيلو مترا ــ قامت بدورها السياسى لما لها من الصدارة الدنيوية والزعامة الدينية بين أوساط العرب ، بصفتها ساكنة الحرم ومجاورة بيت الله وسدنته ، فأغرت غيرها من مشركى الجزيرة ضد أهل المدينة ، حتى صارت المدينة فى شبه مقاطعة شديدة ، قلت مستورداتها ، فى حين كان عدد اللاجئين

---

(١) انظر صحيح البخارى ١ / ٤٥٩ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ .

يزيد يوما فيوما . إن « حالة الحرب » قائمة يقينا بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة وبين المسلمين فى وطنهم الجديد ، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الخصام [1].

كان حقا للمسلمين أن يصادروا أموال هؤلاء الطغاة ، كما صودرت أموالهم ، وأن يدالوا عليهم من التنكيلات بمثل ما أدالوا بها ، وأن يقيموا فى سبيل حياتهم العراقيل كما أقاموها فى سبيل حياة المسلمين ، وأن يكال لهؤلاء الطغاة صاعا بصاع ، حتى لا يجدوا سبيلا لإبادة المسلمين ، واستئصال خضرائهم .

هذه هى القضايا والمشاكل التى كان يواجهها رسول الله ﷺ حين ورد المدينة بصفته رسولا هاديا وإماما قائدا .

وقد قام رسول الله ﷺ بدور الرسالة والقيادة فى المدينة ، وأدلى إلى كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنكال — ولا شك أن الرحمة كانت غالبة على الشدة والعنت — حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله فى بضع سنوات ، وسيجد القارىء كل ذلك جليا فى الصفحات الآتية :

---

(١) الكلمة الأخيرة لمحمد الغزالى فى فقه السيرة ص ١٦٢ .

بناءُ مُجتمعٍ جديدٍ

قد أسلفنا أن نزول رسول الله ﷺ بالمدينة فى بنى النجار كان يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) ، وأنه نزل فى أرض أمام دار أبى أيوب ، وقال : ههنا المنزل إن شاء الله ، ثم انتقل إلى بيت أبى أيوب .

بناء المسجد النبوى :

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو إقامة المسجد النبوى . ففى المكان الذى بركت فيه ناقته أمر ببناء هذا المسجد ، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه ، وساهم فى بنائه بنفسه ، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة　　　فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر　　　هذا أبر ربنا وأطهر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة فى البناء حتى إن أحدهم ليقول :

لئن قعدنا والنبى يعمل　　　لذاك منا العمل المضلل

وكانت فى ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد ، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل والشجرة فقطعت ، وصفت فى قبلة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضادتاه من حجارة ، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعل سقفه من جريد النخل ، وعمده الجذوع ، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، وطوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريبا من ثلاثة أذرع .

وبنى بيوتا إلى جانبه ، بيوت الحجر باللبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، وهى حجرات أزواجه ﷺ ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبى أيوب (١).

ولم يكن المسجد موضعا لأداء الصلوات فحسب ، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها ، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات ، وبرلمانا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية .

وكان مع هذا كله دارا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

وفى أوائل الهجرة شرع الأذان ، النغمة العلوية التى تدوى فى الآفاق ، كل يوم خمس مرات ، والتى ترتج لها أنحاء عالم الوجود . وقصة رؤيا عبد الله ابن زيد بن عبد ربه بهذا الصدد معروفة رواها الترمذى وأبو داود وأحمد وابن خزيمة (٢)

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢ / ٥٦ .
(٢) انظر بلوغ المرام لابن حجر العسقلانى ص ١٥ .

المؤاخاة بين المسلمين :

وكما قام النبي ﷺ (ببناء المسجد) مركز التجمع والتآلف ؛ قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .قال ابن القيم : ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، في دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلا ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام ، إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ (٨ : ٧٥) رد التوارث ، دون عقد الأخوة .

وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ... والثبت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار[1] أ هـ .

ومعنى هذا الإخاء ــ كما قال محمد الغزالي ــ أن تذوب عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدا نافذاً ، لا لفظا فارغا ، وعملا يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج فى هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[2].

فقد روى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا ، فاقسم

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٦ .

(٢) فقه السيرة ص ١٤٠ ، ١٤١ .

مالى نصفين ، ولى امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فسمها لى ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، وأين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو ، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة ، فقال النبى ﷺ : مهيم ؟ قال : تزوجت . قال : كم سقت إليها ؟ قال : نواة من ذهب (١).

وروى عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار للنبى ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : فتكفونا المؤنة ، ونشرككم فى الثمرة . قالوا سمعنا وأطعنا (٢).

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين ، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء ، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره ، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم .

وحقا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذة ، وسياسة صائبة حكيمة ، وحلا رائعا لكثير من المشاكل التى كانوا يواجهها المسلمون ، والتى أشرنا إليها .

ميثاق التحالف الإسلامى :

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد المؤاخاة بين المؤمنين ، قام بعقد معاهدة أزاح بها كل ما كان من حزازات الجاهلية ، والنزعات القبلية ، ولم يترك مجالا لتقاليد الجاهلية ، وهاك بنودها ملخصا :

---

(١) صحيح البخارى . باب إخاء النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ١ / ٥٥٣ .
(٢) صحيح البخارى ــ باب إذا قال : اكفنى مؤنة النخل إلخ ١ / ٣١٢ .

هذا كتاب من محمد النبي — ﷺ — بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم :

(١) أنهم أمة واحدة من دون الناس .

(٢) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٣) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء او عقل .

(٤) وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم ، أو ابتغى دسيعة[1] ظلم أو إثم او عدوان أو فساد بين المؤمنين .

(٥) وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم .

(٦) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

(٧) ولا ينصر كافرا على مؤمن .

(٨) وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

(٩) وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

(١٠) وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

(١١) وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

(١٢) وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(١٣) وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا[2] عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولي المقتول .

(١٤) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

---

(١) الدسع : الدفع كالدسر . والمعنى أى طلب دفع ظلم . لسان العرب بتصرف .

(٢) اعتبط مؤمنا قتلا قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله . لسان العرب

(١٥) وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

(١٦) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ (١).

أثر المعنويات فى المجتمع :

بهذه الحكمة ، وبهذه الحذاقة أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد ، ولكن كانت هذه الظاهرة أثرا للمعانى التى كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبى ﷺ ، وكان النبى ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية وتزكية النفوس والحث على مكارم الأخلاق ، ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة .

سأله رجل : أىّ الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف (٢).

قال عبد الله بن سلام : لما قدم النبى ﷺ المدينة جئت ، فلما تبينت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما قال : يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام (٣).

وكان يقول : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه (٤).

ويقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .(٥)

ويقول : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٦)

---

(١) ابن هشام ١ / ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٦ ، ٩ .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى . مشكاة المصابيح ١ / ١٦٨ .

(٤) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢ .

(٥ ـ ٦) صحيح البخارى ١ / ٦ .

ويقول : المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله[1].

ويقول : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا [2].

ويقول : لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام [3].

ويقول : المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة [4].

ويقول : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء [5].

ويقول : ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جانبه [6].

ويقول : سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر [7].

وكان يجعل : إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، ويعدها شعبة من شعب الإيمان [8].

وكان يحثهم على الإنفاق ، ويذكر من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب ، فكان يقول : الصدقة تطفىء الخطايا كما يطفىء الماء النار [9].

ويقول : أيما مسلم كسا مسلما ثوبا على عرى ، كساه الله من خضر

---

(١) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢ .

(٢) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢ ، صحيح البخارى ٢ / ٨٩٠ .

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٨٩٦ .

(٤) متفق عليه مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢ .

(٥) سنن أبي داود ٢ / ٣٣٥ ، جامع الترمذى ٢ / ١٤ .

(٦) رواه البيهقى في شعب الإيمان ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٤ .

(٧) صحيح البخارى ٢ / ٨٩٣ .

(٨) والحديث في ذلك مروى في الصحيحين ، انظر مشكاة المصابيح ١ / ١٢ ، ١٦٧ .

(٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ، مشكاة المصابيح ١ / ١٤ .

الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقا مسلما على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم [١].

ويقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة [٢].

وبجانب هذا كان يحث حثا شديدا على الاستعفاف عن المسألة ، ويذكر فضائل الصبر والقناعة ، كان يعد المسألة كدوحا أو خدوشا أو خموشا في وجه السائل [٣]. اللهم إلا إذا كان مضطرا ، كما كان يحدث لهم بما في العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله ، وكان يربطهم بالوحي النازل عليه من السماء ربطا موثقا يقرؤه عليهم ، ويقرؤونه ، لتكون هذه الدراسة إشعارا بما عليهم من حقوق الدعوة ، وتبعات الرسالة ، فضلا عن ضرورة الفهم والتدبر .

وهكذا رفع معنوياتهم ومواهبهم ، وزودهم بأعلى القيم والأقدار والمثل ، حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال عرفت في تاريخ البشر بعد الأنبياء .

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم [٤].

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية

---

(١) سنن أبي داود ، وجامع الترمذي ، مشكاة المصابيح ١ / ١٦٩ .
(٢) صحيح البخاري ١ / ١٩٠ ، ٢ / ٨٩٠ .
(٣) انظر في ذلك أبا داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارمي ، مشكاة المصابيح ١ / ١٦٣ .
(٤) رواه رزين ، مشكاة المصابيح ١ / ٣٢ .

والظاهرة ، ومن الكمالات والمواهب والأمجاد والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، بما جعلته تهوى إليه الأفئدة ، وتتفانى عليه النفوس ، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته — رضى الله عنهم — إلى امتثالها ، وما يأتى برشد وتوجيه إلا ويتسابقون إلى التحلى به .

بمثل هذا استطاع النبى ﷺ أن يبنى فى المدينة مجتمعا جديدا ، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلا تتنفس له الإنسانية الصعداء ، بعد أن كانت تعبت فى غياهب الزمان ودياجير الظلمات .

وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد ، الذى واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها ، وحول مجرى التاريخ والأيام .

مُعَاهَدَةٌ مَعَ الْيَهُودِ

بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع الإسلامى الجديد ، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين ، رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان همه فى ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء ، مع تنظيم المنطقة فى وفاق واحد ، فسن فى ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تعهد فى عالم ملىء بالتعصب والتغالى .

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود ــ كما أسلفنا ــ وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين ، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية فى الدين والمال ، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام .

وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التى تمت بين المسلمين أنفسهم ، والتى مر ذكرها قريبا . وهاك أهم بنود هذه المعاهدة :

بنود المعاهدة :

(١) إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم

مواليهم وأنفسهم ، كذلك لغير بني عوف من اليهود .

(٢) وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

(٣) وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

(٤) وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

(٥) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه .

(٦) وإن النصر للمظلوم .

(٧) وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

(٨) وإن يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة .

(٩) وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ .

(١٠) وإنه لاتُجارُ قريش ولا من نصرها .

(١١) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

(١٢) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم [1].

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية ، عاصمتها المدينة ورئيسها ــ إن صح هذا التعبير ــ رسول الله ﷺ ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين ، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام .

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة ، حسب الظروف ، وسيأتي ذكرها .

---

(١) انظر ابن هشام ١ / ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

الكفاح الدامي

استفزازات قريش ضد المسلمين بعد الهجرة واتصالهم بعبد الله بن أبي :

قد أسلفنا ما كان يأتي به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين ، وما فعلوا بهم عند الهجرة ، مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال ، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم ، ويمتنعوا عن عدوانهم ، بل زادهم غيظا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنا ومقرا بالمدينة ، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان إذ ذاك مشركا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة ــ فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه ، وكادوا يجعلونه ملكا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ وآمنوا به ــ كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة :ــ

إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم[1] .

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمتثل اوامر إخوانه المشركين من أهل مكة ــ وقد كان يحقد على النبي ﷺ ، لما يراه أنه استلبه

---

(١) أبو داود باب خبر النضير .

ملكه ـــ يقول عبد الرحمن بن كعب : فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم ، فقال : لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا (١).

امتنع عبد الله بن أبى بن سلول عن إرادة القتال عند ذاك ؛ لما رأى خورا أو رشدا فى أصحابه ، ولكن يبدو أنه كان متواطئا مع قريش ، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين ، وكان يضم معه اليهود ؛ ليعينوه على ذلك ، ولكن تلك هى حكمة النبى ﷺ التى كانت تطفىء نار شرهم حينا بعد حين (٢).

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام :

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرا ، فنزل على أمية بن خلف بمكة ، فقال لأمية : انظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريبا من لقف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما ، فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على أهل المدينة (٣).

---

(١) نفس المصدر .
(٢) انظر فى هذا الصدد صحيح البخارى ٢ / ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٩١٦ ، ٩٢٤ .
(٣) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ٢ / ٥٦٣ .

قريش تهدد المهاجرين :

ثم إن قريشا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم : لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم فى عقر داركم (١).

ولم يكن هذا كله وعيدا مجردا ، فقد تأكد عند رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لايبيت إلا ساهرا ، أو فى حرس من الصحابة ، فقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة ، فقال : ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة ، قالت فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح ، فقال : من هذا ؟ قال : سعد بن أبى وقاص ، فقال له رسول الله ﷺ : ما جاء بك ؟ فقال : وقع فى نفسى خوف على رسول الله ﷺ ، فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ﷺ ، ثم نام (٢).

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالى بل كان ذلك أمرا مستمرا ، فقد روى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحرس ليلا ، حتى نزل ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال : ياأيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز وجل (٣).

ولم يكن الخطر مقتصرا على رسول الله ﷺ ، بل على المسلمين كافة ، فقد روى أبى بن كعب ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه .

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ١١٦ .

(٢) مسلم باب فضل سعد بن أبى وقاص ٢ / ٢٨٠ واللفظ له ، وصحيح البخارى ــ باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ١ / ٤٠٤ .

(٣) جامع الترمذى أبواب التفسير ٢ / ١٣٠ .

الإذن بالقتال :

فى هذه الظروف الخطيرة التى كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة ، والتى كانت تنبىء عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال ، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ، ولم يفرضه عليهم قال تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (٢٢ : ٣٩) .

وأنزل هذه الآية ضمن آيات أرشدتهم إلى أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل ، وإقامة شعائر الله ، قال تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ (٢٢ : ٤١) .

والصحيح الذى لامندوحة عنه أن هذا الإذن إنما نزل بالمدينة بعد الهجرة ، لا بمكة ، ولكن لا يمكن لنا القطع بتحديد ميعاد النزول .

نزل الإذن بالقتال ، ولكن كان من الحكمة إزاء هذه الظروف ـــ التى مبعثها الوحيد هو قوة قريش وتمردها ـــ أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام ، واختار رسول الله ﷺ لبسط هذه السيطرة خطتين :

الأولى : عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق ، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة ، وقد أسلفنا معاهدته ـــ ﷺ ـــ مع اليهود ، وكذلك كان عقد معاهدة الحلف أو عدم الاعتداء مع جهينة قبل الأخذ فى النشاط العسكرى ، وكانت مساكنهم على ثلاثة مراحل من المدينة ، وقد عقد معاهدات أثناء دورياته العسكرية وسيأتى ذكرها .

الثانية : إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .

الغزوات والسرايا قبل بدر[1] :

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ فى المسلمين النشاط العسكرى فعلا بعد نزول الإذن بالقتال ، وقاموا بحركات عسكرية هى أشبه بالدوريات الاستطلاعية ، وكان المطلوب منها هو الذى أشرنا إليه من الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة ، والمسالك المؤدية إلى مكة ، وعقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق ، وإشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، وإنذار قريش عقبى طيشها ، حتى تفيق عن غيها الذى لا تزال تتوغل فى أعماقه ، ولعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معايشها فتجنح إلى السلم ، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم ، وعن الصد عن سبيل الله ، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين فى مكة ، حتى يصير المسلمون أحرارا فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع الجزيرة .

وفيما يلى أحوال هذه السرايا بالإيجاز :

١ — سرية سيف البحر ، فى رمضان سنة ١ هـ . الموافق مارس سنة ٦٢٣ م . أمّر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ، يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام فى ثلاثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص[2] . فالتقوا واصطفوا للقتال ، فمشى مجدى بن عمرو الجهنى — وكان حليفا للفريقين جميعا — بين هؤلاء وهؤلاء ، حتى حجز بينهم ، فلم يقتتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أبيض ، وكان حامله أبا مرثد كناز بن حصين الغنوى .

---

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبى ﷺ بنفسه غزوة ، حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية .

(٢) العيص — بالكسر — مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر .

٢ ــ سرية رابغ ، فى شوال سنة ١ من الهجرة ــ أبريل سنة ٦٢٣ م ، بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب فى ستين راكبا من المهاجرين ، فلقى أبا سفيان ــ وهو فى مائتين ــ على بطن رابغ ، وقد ترامى الفريقان بالنبل ، ولم يقع قتال .

وفى هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد ابن عمرو البهرانى ، وعتبة بن غزوان المازنى ، وكانا مسلمين ، خرجا مع الكفار ؛ ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين . وكان لواء عبيدة أبيض ، وحامله مسطح ابن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف .

٣ ــ سرية الخَرّار (١) ، فى ذى القعدة سنة ١ هـ الموافق مايو سنة ٦٢٣ م ، بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص فى عشرين راكبا ، يعترضون عيرا لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار ، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

كان لواء سعد رضى الله عنه أبيض ، وحمله المقداد بن عمرو .

٤ ــ غزوة الأبواء أو ودان (٢) ــ فى صفر سنة ٢ هـ الموافق أغسطس سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ بنفسه ، بعد أن استخلف على المدينة سعد ابن عبادة ، فى سبعين رجلا من المهاجرين خاصة ، يعترض عيرا لقريش حتى بلغ ودان ، فلم يلق كيدا .

وفى هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمرى ، وكان سيد بنى ضمرة فى زمانه ، وهاك نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم

(١) الخرار ــ بالفتح فالتشديد ــ موضع بالقرب من الجحفة .

(٢) ودان ــ بالفتح فالتشديد ــ موضع بين مكة والمدينة ، بينه وبين رابغ مما يلى المدينة تسعة وعشرون ميلا ، والأبواء موضع بالقرب من ودان .

وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ، ما بل بحر صوفة ، وإن النبى إذا دعاهم لنصره أجابوه [1].

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب .

٥ـ غزوة بواط ، فى شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه ، يعترض عيرا لقريش فيها أمية بن خلف الجمحى ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، فبلغ بواطا من ناحية رضوى [2] ولم يلق كيدا .

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ، واللواء كان أبيض ، وحامله سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

٦ـ غزوة سفوان ، فى شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م أغار كرز بن جابر الفهرى فى قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة ، ونهب بعض المواشى ، فخرج رسول الله ﷺ فى سبعين رجلا من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزا وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى .

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله على بن أبى طالب .

٧ـ غزوة ذى العشيرة ـ فى جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة ويقال : فى مائتين ، من المهاجرين ، ولم يكره أحدا على الخروج ، وخرجوا

---

(١) انظر المواهب اللدنية ١ / ٧٥ وشرحه للزرقانى .

(٢) بواط (بالضم) ورضوى ، جبلان فرعان أصلهما من جبال جهينة : مما يلى طريق الشام ، بينه وبين المدينة نحو أربعة برد .

على ثلاثين بعيرا يعتقبونها ، يعترضون عيرا لقريش ، ذاهبة إلى الشام ، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش ، فبلغ ذا العشيرة [1] ، فوجد العير قد فاتته بأيام ، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سببا لغزوة بدر الكبرى .

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادى الأولى ، ورجوعه في أوائل جمادى الآخرة على ما قاله ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهر هذه الغزوة .

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة .

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

٨ــ سرية نخلة ــ في رجب سنة ٢ هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤ م ، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في اثني عشر رجلا من المهاجرين ، كل اثنين يعتقبان على بعير .

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابا ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه . فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها عير قريش . وتعلم لنا من أخبارهم » فقال : سمعا وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك ، وأنه لا يستكرههم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه ، فتخلفا في طلبه .

---

(١) العشيرة ــ مصغرا ، ويقال : العشيراء بالمد ، وقيل : العسيرة بالمهملة ــ موضع بناحية ينبع .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة ، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل ، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة ، وقد عزلوا من ذلك الخمس ، وهو أول خمس كان في الإسلام ، وأول قتيل في الإسلام ، وأول أسيرين في الإسلام .

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه ، وقال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، ووقف التصرف في العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثر في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسما هذه الأقاويل ، وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون ..

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ﴾ (٢١٧:٢)

فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام ، واضطهاد أهله ، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم ؟ فما الذى أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟ لا جرم أن الدعاية التي أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة ودعارة .

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين ، وأدى دية المقتول إلى

أوليائه (١)؟

* * *

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر ، لم يجر في واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال ، إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهرى ، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أوتوه قبل ذلك من الأفاعيل .

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين ، وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي ، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه ، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص ، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية ، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريبا ، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم ، ويأخذوا أموالهم ، ويرجعوا سالمين غانمين ، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم ، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة ـــ كما فعلت جهينة وبنو ضمرة ـــ ازدادوا حقدا وغيظا ، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل ، من إبادة المسلمين في عقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذى جاء بهم إلى بدر .

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش ، في شهر شعبان سنة ٢ هـ ، وأنزل في ذلك آيات بينات ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٢ / ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، وابن هشام ١ / ٥٦١ إلى ٦٠٥ ، ورحمة للعالمين ١ / ١١٥ ، ١١٦ ، ٢ / ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ وفي المصادر اختلاف في ترتيب هذه الغزوات والسرايا ، وفي تعيين عدد الخارجين فيها ـــ واعتمدنا في ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم والعلامة المنصورفورى .

تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ (٢ : ١٩٠ : ١٩١ : ١٩٢ : ١٩٣)

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر ، يعلمهم فيها طريقة القتال ، ويحثهم عليه ، ويبين لهم بعض أحكامه ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . ذلك ، ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (٤٧ : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧)[١].

ثم ذم الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾ الآية (٤٧:٢٠)

وإيجاب القتال والحض عليه ، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال ، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارىء ، فكيف بالرب العليم المتعال ، فالظروف كانت تقتضى عراكا داميا بين الحق والباطل ، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم ، آلمتهم ، وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر .

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامى ، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائيا ، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم ، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب فى الأسارى ، والإثخان فى الأرض ، حتى تضع الحرب أوزارها ، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين

(١) حقق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى تحقيقا مدللا أن سورة محمد نزلت قبل بدر ، راجع تفهيم القرآن ٥ / ١١ ، ١٢ .

نهائيا . ولكن ترك كل ذلك مستورا ؛ حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله .

وفي هذه الأيام ــ في شعبان سنة ٢ هـ / فبراير ٦٢٤ م ــ أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين ، ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة .

وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد ، لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة ، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم ، وإن كانت بأيديهم فلابد من تخليصها يوما ما .

وبعد هذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين ، واشتدت نزعاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ولقاء العدو في معركة فاصلة .

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة :

قد أسلفنا فى ذكر غزوة العشيرة أن عيرا لقريش أفلتت من النبى ﷺ فى ذهابها من مكة إلى الشام ، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ، ليقوما باكتشاف خبرها ، فوصلا إلى الحوراء ، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر .

كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة ، ألف بعير موقرة بالأموال ، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبى ؛ ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلا .

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة ، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة ، لذلك أعلن رسول الله ﷺ فى المسلمين قائلا : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

ولم يعزم على أحد بالخروج ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة ــ بدل العير ــ هذا الاصطدام

العنيف فى بدر ، ولذلك تخلف كثير من الصحابة فى المدينة ، وهم يحسبون أن مضى رسول الله ﷺ فى هذا الوجه لن يعدو ماألفوه فى السرايا الماضية ، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه فى هذه الغزوة .

مبلغ قوة الجيش الإسلامى وتوزيع القيادات :

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا (٣١٣ ، أو ٣١٤ ، ٣١٧ رجلا) ، ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين ، و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج . ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالا بليغا ، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة ، فلم يكن معهم إلا فرسان ، فرس للزبير بن العوام ، وفرس للمقداد بن الأسود الكندى ، وكان معهم سبعون بعيرا ليعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد ، وكان رسول الله ﷺ وعلىٌّ ومرثد بن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا واحدا .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء ردَّ أبا لبابة بن عبد المنذر ، واستعمله على المدينة .

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشى العبدرى ، وكان هذا اللواء أبيض .

وقسم جيشه إلى كتيبتين :

(١) كتيبة المهاجرين ، وأعطى علمها على بن أبى طالب .
(٢) كتيبة الأنصار ، وأعطى علمها سعد بن معاذ .

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام ، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو — وكانا هما الفارسين الوحيدين فى الجيش كما أسلفنا — وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة ، وظلت القيادة العامة فى يده ﷺ كقائد أعلى للجيش .

الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر :

سار رسول الله ﷺ فى هذا الجيش غير المتأهب ، فخرج من نقب

المدينة ، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدى إلى مكة ، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها ، ترك طريق مكة بيسار ، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدرا) ، فسلك فى ناحية منها ، حتى جذع واديا يقال له رحقان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم مر على المضيق ، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء ، وهنالك بعث بسيْسَ ابن عمر الجهنى وعدى بن أبى الزغباء الجهنى إلى بدر يتجسسان له أخبار العير .

النذير فى مكة :

وأما خبر العير فإن أبا سفيان — وهو المسئول عنها — كان على غاية من الحيطة والحذر ، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار ، وكان يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان ، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمدا — ﷺ — قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير ، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة ، مستصرخا لقريش بالنفير إلى عيرهم ، ليمنعوه من محمد — ﷺ — وأصحابه ، وخرج ضمضم سريعا حتى أتى مكة ، فصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، وقد جدع أنفه ، وحول رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث .

أهل مكة يتجهزون للغزو :

فتحفز الناس سراعا ، وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ؟ كلا ، والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين رجلين ، إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلا ، وأوعبوا فى الخروج ، فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب ، فإنه عوض عنه رجلا كان له عليه دين ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى ، فلم يخرج منهم أحد .

قوام الجيش المكى :

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل فى بداية سيره ، وكان معه مائة فرس وستمائة درع ، وجمال كثيرة لايعرف عددها بالضبط ، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام ، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش ، فكانوا ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل .

مشكلة قبائل بنى بكر :

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ، ذكرت قريش ما كان بينها وبين بنى بكر من العداوة والحرب ، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف ، فيكونوا بين نارين ، فكاد ذلك يثنيهم ، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك ابن جعشم المدلجى — سيد بنى كنانة — فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

جيش مكة يتحرك :

وحينئذ خرجوا من ديارهم ، كما قال الله : ﴿ بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ﴾ ، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ — « بحدهم وحديدهم ، يحادون الله ويحادون رسوله » ، ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ ، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه ، لاجتراء هؤلاء على قوافلهم .

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال فى تجاه بدر ، وسلكوا فى طريقهم وادى عسفان ، ثم قديد ، ثم الجحفة ، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبى سفيان يقول لهم فيها : إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله فارجعوا .

العير تفلت :

وكان من قصة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي ، ولكنه لم يزل حذرا متيقظا ، وضاعف حركاته الاستكشافية ، ولما اقترب من بدر تقدم عيره ، حتى لقى مجدى بن عمرو ، وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا ، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيرهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعا ، وضرب وجهها محولا اتجاهها نحو الساحل غربا ، تاركا الطريق الرئيسى الذى يمر ببدر على اليسار .وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع فى قبضة جيش المدينة ، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التى تلقاها فى الجحفة .

هم الجيش المكى بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه :

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع ، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلا : والله لانرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم بها ثلاثا فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

ولكن على رغم أبى جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه ، فرجع هو وبنو زهرة — وكان حليفا لهم ورئيسا عليهم فى هذا النفير — فلم يشهد بدراً زهرى واحد ، وكانوا حوالى ثلاثمائة رجل ، واغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس بن شريق ، فلم يزل فيهم مطاعا معظما .

وأرادت بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم أبو جهل ، وقال : لاتفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بنى زهرة — وهو يقصد

بدرا ــ فواصل سيره حتى نزل قريبا من بدر ، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادى بدر .

حراجة موقف الجيش الإسلامى :

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ ــ وهو لايزال فى الطريق بوادى ذفران ــ خبر العير والنفير ، وتأكد لديه بعد التدبر فى تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام ، وأنه لابد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة ، والجراءة ، والجسارة ، فمما لاشك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيما لمكانة قريش العسكرية ، وامتدادا لسلطانها السياسى ، وإضعافا لكلمة المسلمين وتوهينا لها ، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسدا لا روح فيه ، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام فى هذه المنطقة .

وبعد هذا كله فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة ، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها ، ويغزو المسلمين فى عقر دارهم . كلا ، فلو حدث من جيش المدينة نكول ما لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم .

المجلس الاستشارى :

ونظرا إلى هذا التطور الخطير المفاجىء عقد رسول الله ﷺ مجلسا عسكريا استشاريا أعلى ، أشار فيه إلى الوضع الراهن ، وتبادل فيه الرأى مع عامة جيشه ، وقادته . وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس ، وخافوا اللقاء الدامى ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم

ينظرون ﷺ وأما قادة الجيش ؛ فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر ابن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يارسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له به .

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، وهم أقلية فى الجيش ، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأى قادة الأنصار ، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش ، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم ، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم ، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد ابن معاذ ، فقال :

والله ، لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : أجل .

قال : « فقد آمنا بك ، فصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

وفى رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها أن لا تنصرك إلا فى ديارهم ، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت ، وأعطنا ماشئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا

مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

الجيش الإسلامى يواصل سيره :

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران ، فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر ، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدية ، وترك الحنان بيمين ــ وهو كثيب عظيم كالجبل ــ ثم نزل قريبا من بدر .

الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف :

وهناك قام بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه فى الغار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه ــ سأل عن الجيشين زيادة فى التكتم ــ ولكن الشيخ قال : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أو ذاك بذلك ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : فإنه بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهو اليوم بمكان كذا وكذا ــ للمكان الذى به جيش المدينة ــ وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا ــ للمكان الذى به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ نحن من

ماء ، ثم انصرف عنه ، وبقى الشيخ يتفوه ، ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكى :

وفى مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد ، ليبحث عن أخبار العدو ، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين ؛ على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، ذهبوا إلى ماء بدر ، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة ، فألقوا عليهما القبض وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ ، وهو فى الصلاة ، فاستخبرهما القوم ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم ورجوا أن يكونا لأبى سفيان ـــ لاتزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة ـــ فضربوهما موجعا ، حتى اضطر الغلامان أن يقولا : نحن لأبى سفيان ، فتركوهما .

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن الصلاة قال لهم كالعاتب : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله ، إنهما لقريش .

ثم خاطب الغلامين قائلا : أخبرانى عن قريش ، قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ماعدتهم ؟ قالا : لاندرى ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا ويوما عشرا ، فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البخترى ابن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف فى رجال سمياهم .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

نزول المطر :

وأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطرا واحدا ، فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلا طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط به على قلوبهم .

الجيش الإسلامى يسبق إلى أهم المراكز العسكرية :

وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه ، ليسبق المشركين إلى ماء بدر ، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر ، وهنا قام الحباب ابن المنذر كخبير عسكرى وقال : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، قال : يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم — قريش — فننزله ونغوّر — أى نخرب — ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضا ، فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأى .

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش ، حتى أتى أقرب ماء من العدو ، فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض ، وغوروا ما عداها من القلب .

مقر القيادة :

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبنى المسلمون مقرا لقيادته ، استعداداً للطوارىء ، وتقديرا للهزيمة قبل النصر ، حيث قال : « يانبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك

ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك » .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ، ودعا له بخير ، وبنى المسلمون عريشا على تل مرتفع يقع فى الشمال الشرقى لميدان القتال ، ويشرف على ساحة المعركة .

كما تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ ، يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته .

تعبئة الجيش وقضاء الليل :

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه[1] ، ومشى فى موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله[2] ثم بات رسول الله ﷺ يصلى إلى جذع شجرة هنالك ، وبات المسلمون ليلهم هادىء الأنفاس منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم ، وأخذوا من الراحة قسطهم ، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحا ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ (٨ : ١١) .

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة ، السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وكان خروجه فى ٨ أو ١٢ من نفس الشهر .

---

(١) انظر جامع الترمذى أبواب الجهاد ، باب ما جاء فى الصف والتعبئة ١ / ٢٠١
(٢) رواه مسلم عن أنس ، انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٣ .

الجيش المكي في عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه :

أما قريش ؛ فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى ، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها ، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر ، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ ، فقال : دعوهم ، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل ، سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل ، وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد في اليمين قال : لا والذي نجاني من يوم بدر ، فلما اطمأنت قريش بعث عمير بن وهب الجمحي ؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة ، فدار عمير بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟ فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئا ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئا ، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم ، فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم .

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل ــ المصمم على المعركة ــ تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال ، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس ، وأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش ، وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك ياحكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي ــ المقتول في سرية نخلة ــ فقال عتبة : قد فعلت ، أنت ضامن علي بذلك ، إنما هو حليفي فعلي عقله ديته وما أصيب من ماله .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فأت ابن الحنظلية ــ أبا جهل ، والحنظلية أمه ــ فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون

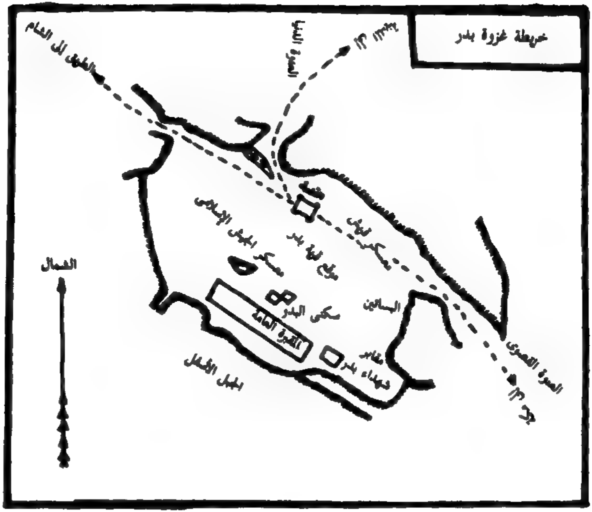
خريطة غزوة بدر
الطريق الى الشام
العدوة الدنيا
الى المدينة
معسكر قريش
موقع قرية بدر
معسكر الجيش الإسلامي
مسكن البدو
البساتين
المقبرة العامة
مقابر شهداء بدر
العدوة القصوى
الى مكة
الشمال

بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ماتريدون .

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبى جهل — وهو يهيىء درعا له — قال يا أبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا ، فقال أبو جهل : انتفخ والله سحره حين رأى محمدا وأصحابه ، كلا ، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه — وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديما وهاجر — فتخوفكم عليه .

ولما بلغ عتبة قول أبى جهل : « انتفخ والله سحره » ، قال عتبة : سيعلم من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟ وتعجل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة ، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمى — أخى عمرو بن الحضرمى المقتول فى سرية عبد الله بن جحش — فقال : هذا حليفك (أى عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك ، ومقتل أخيك ، فقام عامر ، فكشف عن استه ، وصرخ : واعمراه ، واعمراه فحمى القوم ، وحقب أمرهم ، واستوثقوا على ماهم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة . وهكذا تغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

الجيشان يتراآن :

ولما طلع المشركون ، وتراآى الجمعان قال رسول الله ﷺ : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة » . وقد قال رسول الله ﷺ — ورأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر — إن يكن فى أحد من القوم

خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا .

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان في يده قدح يعدل به ، وكان سواد بن غزية مستنصلا من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح وقال : استو ياسواد ، فقال سواد : يارسول الله أوجعتني فأقدني ، فكشف عن بطنه ، وقال : استقد ، فاعتنقه سواد ، وقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا ياسواد ؟ قال : يارسول الله قد حضر ماترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير .

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة ، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال : إذا أكثبوكم — يعني كثروكم — فارموهم ، واستبقوا نبلكم(١) ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم(٢) ، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة ، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش .

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه ، فأحنه الغداة ، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم ، وفي ذلك أنزل الله ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين ﴾ (٨ : ١٩) .

ساعة الصفر وأول وقود المعركة :

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي — وكان

(١) صحيح البخاري ٢ / ٥٦٨

(٢) سنن أبي داود في سل السيوف عند اللقاء ٢ / ١٣

رجلاً شرسا سيء الخلق ــ خرج قائلا : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه . فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، فلما التقيا ضربه حمزة ، فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن تبر يمينه ، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض .

المبارزة :

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة ، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة ، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار ، عوف ومعوذ ابنا الحارث ــ وأمهما عفراء ــ وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم حاجة ، وإنما نريد بنى عمنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ فأخبروهم ، فقالوا : أنتم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ــ وكان أسن القوم ــ عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد[1] ، فأما حمزة وعلى فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما ، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان ، فأثخن كل واحد منهما صاحبه ، ثم كر على وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة ، وقد قطعت رجله ؛ فلم يزل صمتا حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر ، حينما كان المسلمون فى طريقهم إلى المدينة .

---

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق ، وفى رواية أحمد وأبى داود أن عبيدة بارز الوليد ، وعلى بارز شيبة ، وحمزة بارز عتبة . مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٣

وكان على يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾ الآية .

الهجوم العام :

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين ، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة ، فاستشاطوا غضبا ، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد .

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم ، واستغاثوه ، وأخلصوا له ، وتضرعوا إليه ، تلقوا هجمات المشركين المتوالية ، وهم مرابطون فى مواقعهم ، واقفون موقف الدفاع ، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة ، وهم يقولون : أحد أحد .

الرسول ﷺ يناشد ربه :

وأما رسول الله ﷺ ؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول : اللهم أنجز لى ماوعدتنى ، اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك . حتى إذا حمى الوطيس ، واستدارت رحى الحرب بشدة ، واحتدم القتال ، وبلغت المعركة قمتها ، قال : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا . وبالغ فى الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فرده عليه الصديق ، وقال : حسبك يارسول الله ، ألححت على ربك.

وأوحى الله إلى ملائكته ﴿ أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ ، وأوحى إلى رسوله ﴿ أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ — أى أنهم ردف لكم ، أو يردف بعضهم بعضا أرسالا ، لا يأتون دفعة واحدة .

نزول الملائكة :

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة ، ثم رفع رأسه فقال : أبشر ياأبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع (أى الغبار) . وفى رواية محمد بن إسحاق : قال رسول الله ﷺ : « أبشر ياأبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناياه النقع » .

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش ، وهو يثب فى الدرع ، ويقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ (٥٤: ٤٥) ، ثم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشا وقال : شاهت الوجوه ، ورمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه من تلك القبضة ، وفى ذلك أنزل الله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (٨: ١٧) .

الهجوم المضاد :

وحينئذ أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال . شدوا ، وحرضهم على القتال ، قائلا : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، وقال وهو يحضهم على القتال : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، (وحينئذ) قال العمير بن الحمام : بخ . بخ ، فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك : بخ . بخ ؟ قال : لا ، والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها . فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل (١) .

وكذلك سأله عوف بن الحارس — ابن عفراء — فقال : يارسول الله

---

(١) رواه مسلم ٢ / ١٣٩ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٣١

مايضحك الرب من عبده! قال غمسه يده في العدو حاسرا ، فنزع درعا كانت عليه ، فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت ، وفتر حماسه ، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين ، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم — وقد كان نشاطهم الحربي على شبابه — قاموا بهجوم كاسح مرير ، فجعلوا يقلبون الصفوف ، ويقطعون الأعناق ، وزادهم نشاطا وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب في الدرع ، ويقول في جزم وصراحة ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾، فقاتل المسلمون أشد القتال ، ونصرتهم الملائكة ، ففي رواية ابن سعد عن عكرمة قال : كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدري من ضربه ، وتندر يد الرجل لايدري من ضربها ، وقال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه ، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة [1] . وقال أبو داود المازني : إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفت أنه قد قتله غيري . وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرا ، فقال العباس : إن هذا والله ما أسرني ، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها على فرس أبلق ، وما أراه في القوم ، فقال الأنصاري : أنا أسرته يارسول الله ، فقال : أسكت فقد أيدك الله بملك كريم .

إبليس ينسحب عن ميدان القتال :

ولما رأى إبليس — وكان قد جاء في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي كما ذكرنا ، ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت — فلما رأى مايفعل

---

(١) روى مثل ذلك مسلم ٢ / ٩٣ وغيره .

الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه ، وتشبث به الحارس بن هشام ــ وهو يظنه سراقة ــ فوكز فى صدر الحارس فألقاه ، ثم خرج هاربا ، وقال له المشركون : إلى أين يا سراقة ؟ ألم تكن قلت : إنك جار لنا ، لا تفارقنا ؟ فقال : إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ، ثم فر حتى ألقى نفسه فى البحر .

الهزيمة الساحقة :

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب فى صفوف المشركين ، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة ، واقتربت المعركة من نهايتها ، وأخذت جموع المشركين فى الفرار والانسحاب المبدد ، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم الهزيمة .

صمود أبى جهل :

أما الطاغية الأكبر أبو جهل ، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب فى صفوفه حاول أن يصمد فى وجه هذا السيل ، فجعل يشجع جيشه ، ويقول لهم فى شراسة ومكابرة : لا يهزمنكم خزلان سراقة إياكم ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهم قد عجلوا ، فواللات والعزى لانرجع حتى نقرنهم بالحبال ، ولا ألفين رجلا منكم قتل منهم رجلا ، ولكن خذوهم أخذا ، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم .

ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطرسة ، فما لبس إلا قليلا حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين .نعم بقى حوله عصابة من المشركين ، ضربت حوله سياجا من السيوف وغابات من الرماح ، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذه السياج وأقلعت هذه الغابات ، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه ، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه

بأيدى غلامين أنصاريين .

مصرع أبى جهل :

قال عبد الرحمن بن عوف : إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفت ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه : ياعم ، أرنى أبا جهل ، فقلت : ياابن أخى ، فما تصنع به ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، قال : والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك . قال : وغمزنى الآخر ، فقال لى مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه ، قال : فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أيكما قتله ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته ، قال : هل مسحتما سيفيكما ؟ فقالا : لا ، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين ، فقال : كلاكما قتله ، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء (١).

وقال ابن إسحاق : قال معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم ، وأبو جهل فى مثل الحرجة ــ والحرجة : الشجر الملتف ، أو شجرة من الأشجار لايوصل إليها ، شبه رماح المشركين وسيوفهم التى كانت حول أبى جهل لحفظه بهذه الشجرة ــ وهم يقولون : أبو الحكم لايخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأنى فصمدت نحوه ، فلما أمكننى حملت عليه ، فضربته ضربة أطنت قدمه ــ أطارتها ــ بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها . قال : وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى ، فطرح يدى ، فتعلقت بجلدة من جنبى ، وأجهضنى القتال عنه ،

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٤٤٤ ، ٢ / ٥٦٨ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٥٢ ، وإنما خص بالسلب واحدا منهما لأن الثانى قتل شهيدا فى نفس المعركة .

فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي[1]، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها ثم مر بأبي جهل ــ وهو عقير ــ معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل.

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ: من ينظر ماصنع أبو جهل؟ فتفرق الناس في طلبه، فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رمق، فوضع رجله على عنقه، وأخذ لحيته ليحتز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه[2]؟ أو هل فوق رجل قتلتموه؟ وقال: فلو غير أكار قتلني، ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله، ثم قال لابن مسعود ــ وكان قد وضع رجله على عنقه ــ لقد ارتقيت مرتقى صعبا يارويعي الغنم، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم في مكة.

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال: الله الذي لا إله إلا هو؟ فرددها ثلاثا، ثم قال: الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه، فانطلقنا فأريته إياه، فقال: هذا فرعون هذه الأمة.

من روائع الإيمان في هذه المعركة:

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث ــ ابن عفراء ــ وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والأخوة بالأخوة، خالفت بينهما المبادىء، ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره، فشفى منه غيظه.

١ ــ روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه: إني

(١) بقي معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) أي ليس علي عار فلن أبعد أن أكون رجلا قتله قومه.

قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ، لاحاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها ، فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألحمنه — أو لألجمنه — بالسيف ، فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطاب : ياأبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ، فقال عمر : يارسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

فكان أبو حذيفة يقول : ماأنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيدا .

٢ — وكان النهى عن قتل أبى البخترى ؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض صحيفة مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب .

ولكن أبا البخترى قتل على رغم هذا كله ، وذلك أن المجذر بن زياد البلوى لقيه فى المعركة ، ومعه زميل له ، يقاتلان سويا ، فقال المجذر : ياأبا البخترى إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك ، فقال : وزميلى ؟ فقال المجذر : لا والله مانحن بتاركى زميلك ، فقال : والله إذن لأموتن أنا وهو جميعا ، ثم اقتتلا ، فاضطر المجذر إلى قتله .

٣ — كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين فى الجاهلية بمكة ، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن ، وهو واقف مع ابنه على بن أمية ، آخذا بيده ، ومع عبد الرحمن أدراع قد استلبها ، وهو يحملها ، فلما رآه قال : هل لك فىّ ؟ فأنا خير من هذه الأدراع التى معك ، ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة فى اللبن ؟ — يريد أن من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن — فطرح عبد الرحمن الأدراع ، وأخذهما يمشى بهما ، قال عبد الرحمن : قال لى أمية بن خلف

وأنا بينه وبين ابنه : من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة في صدره ؟ قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن : فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى ، وكان أمية هو الذى يعذب بلالا بمكة ، فقال بلال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا قلت : أى بلال ، أسيرى قال : لا نجوت إن نجا . قلت : أتسمع ياابن السوداء . قال : لا نجوت إن نجا . ثم صرخ بأعلى صوته : يأنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا ، قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة ، وأنا أذب عنه ، قال : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط ، فقلت انج بنفسك ، ولا نجاء بك ، فوالله ماأغنى عنك شيئا . قال فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما ، فكان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالا ، ذهبت أدراعى ، وفجعنى بأسيرى .

وفى زاد المعاد أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمية : ابرك ، فبرك ، فألقى نفسه عليه ، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب بعض السيف رجل عبد الرحمن بن عوف (1).

٤ ــ وقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة .

٥ ــ ونادى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ابنه عبد الرحمن ــ وهو يومئذ مع المشركين ــ فقال : أين مالى ياخبيث ؟ فقال عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة ويعبوب   وصارم يقتل ضلال الشيب (2)

٦ ــ ولما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متوشحا سيفه ، رأى رسول الله ﷺ فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له : والله لكأنك ياسعد تكره

---

(1) زاد المعاد ٢ / ٨٩   (2) الشكة : السلاح . واليعبوب : الفرس الكثير الجرى .

ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يارسول الله .

كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل بأهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال .

٧ ــ وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدى ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلا من حطب ، فقال :قاتل بهذا ياعكاشة ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه ، فعاد سيفا فى يده طويل القامة ، شديد المتن أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ، حتى قتل فى حروب الردة وهو عنده .

٨ ــ وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدرى بأخيه أبى عزيز بن عمير ، الذى خاض المعركة ضد المسلمين ، مر به وأحد الأنصار يشد يده ، فقال : مصعب للأنصارى : شد يديك به، فإن أمه ذات متاع ، لعلهاتفديه منك ، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب : أهذه وصاتك بى ؟ فقال مصعب : إنه ــ أى الأنصارى ــ أخى دونك .

٩ ــ ولما أمر بإلقاء جيف المشركين فى القليب ، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، نظر رسول الله ﷺ فى وجه ابنه أبى حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير ، فقال : ياأبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله ، يارسول الله ، ما شككت فى أبى ولا مصرعه ، ولكننى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ماأصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيرا .

قتلى الفريقين :

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين ، وبفتح مبين بالنسبة

للمسلمين ، وقد استشهد من المسلمين فى هذه المعركة أربعة عشر رجلا ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة ، قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، وعامتهم القادة والزعماء والصناديد .

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى ، فقال : بئس العشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وخذلتمونى ونصرنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، ثم أمر بهم ، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر .

وعن أبى طلحة أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش ، فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى ، وأتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، يافلان بن فلان ، يا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ فقال عمر : يارسول الله ماتكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال النبى ﷺ : والذى نفس محمد بيده ، ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ، وفى رواية ماأنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يجيبون .[1]

مكة تتلقى نبأ الهزيمة :

فر المشركون من ساحة بدر فى صورة غير منظمة ، تبعثروا فى الوديان والشعاب ، واتجهوا صوب مكة مذعورين ، لا يدرون كيف يدخلونها خجلا .

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى ، فقالو : ماوراءك ؟ قال : قتل عتبه بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم

(١) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٥

ابن هشام ، وأمية بن خلف في رجال من الزعماء سماهم . فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عني ، قالوا : مافعل صفوان بن أمية قال : ها هو ذا جالس في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

وقال أبو رافع — مولى رسول الله ﷺ — : كنت غلاما للعباس ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يكتم إسلامه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فلما جاءه الخبر كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزا ، وكنت رجلا ضعيفا أعمل الأقداح ، أنحتها في حجرة زمزم ، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي ، وعندي أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة [1] ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال له أبو لهب : هلم إلي ، فعندك لعمري الخبر ، قال : فجلس إليه ، والناس قيام عليه . فقال : يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال : ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تُليق [2] شيئا ، ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدي ، ثم قلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربة شديدة ، فثاورته ، فاحتملني فضرب بي الأرض ، ثم برك علي يضربني ، وكنت رجلا ضعيفا ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذته ، فضربته به ضربة فعلت في رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام موليا ذليلا ، فو الله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته (وهي قرحة تتشاءم بها العرب ، فتركه بنوه ، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه ، فلما خافوا

---

(١) طنب الحجرة : طرفها

(٢) لاتبقي شيئا .

السبة في تركه حفروا له ، ثم دفعوه بعود في حفرته ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه) .

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر ، وقد أثر ذلك فيهم أثرا سيئا جدا ، حتى منعوا النياحة على القتلى ، لئلا يشمت بهم المسلمون .

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر ، وكان يحب أن يبكي عليهم ، وكان ضرير البصر ، فسمع ليلا صوت نائحة ، فبعث غلامه ، وقال : انظر هل أحل النحب ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبي حكيمة — ابنه — فإن جوفي قد احترق ، فرجع الغلام وقال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته ، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال :

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكي إن بكيت على عقيل وبكي حارثا أسد الأسود
وبكيهم ، ولا تسمي جميعا وما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا

المدينة تتلقى أنباء النصر :

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة ، ليعجل لهم البشرى ، أرسل عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية ، وأرسل زيد بن حارثة بشيرا إلى أهل السافلة .

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة ، حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكبا القصواء — ناقة رسول الله ﷺ — قال : لقد قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب ، وجاء فلّا .[1]

---

(١) فلاً : منهزما .

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون ، وأخذوا يسمعون منهما الخبر ، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين ، فعمت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلا وتكبيرا ، وتقدم رءوس المسلمين ــ الذين كانوا بالمدينة ــ إلى طريق بدر ؛ ليهنئوا رسول الله ــ ﷺ ــ بهذا الفتح المبين.

قال أسامة بن زيد : أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التى كانت عند عثمان بن عفان ، كان رسول الله ﷺ خلفنى عليها مع عثمان .

الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة :

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم ، ففعلوا ، ثم نزل الوحى بحل هذه المشكلة .

عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبى ﷺ ، فشهدت معه بدرا فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لايصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم أحق بها منا ، نحن نحينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ (٨ : ١) فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين[١].

---

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، والحاكم ٢ / ٣٢٦

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، واحتمل معه النفل الذى أصيب من المشركين ، وجعل عليه عبد الله بن كعب ، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية ، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء ، بعد أن أخذ منها الخمس .

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث ــ وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر ، وكان من أكابر مجرمى قريش ، ومن أشد الناس كيدا للإسلام ، وإيذاء لرسول الله ﷺ ــ فضرب عنقه على بن أبى طالب .

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبى معيط ، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ ، فهو الذى كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله ﷺ وهو فى الصلاة ، وهو الذى خنقه بردائه ، وكاد يقتله لولا أن يعترض أبو بكر رضى الله عنه ، فلما أمر بقتله قال : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار[1]. قتله عاصم بن ثابت الأنصارى ، ويقال على بن أبى طالب .

وكان قتل هذين الطاغيتين واجبا من حيث وجهة الحرب ، فلم يكونا من الأسارى فحسب ، بل كانا من مجرمى الحرب بالاصطلاح الحديث .

وفود التهنئة :

ولما وصل إلى الروحاء لقيه رءوس المسلمين ــ الذين كانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين ــ يهنئونه بالفتح . وحينئذ قال لهم سلمة بن سلامة : ما الذى تهنئوننا به ؟ فو الله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : يا ابن أخى أولئك الملأ .

وقال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، الحمد لله الذى أظفرك ، وأقر

(١) روى ذلك أصحاب الصحاح ، انظر سنن أبى داود مع حاشيته عون المعبود ٣ / ١٢

عينك ، والله يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوا ، ولكن ظننت أنها عير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله ﷺ : صدقت .

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفرا منصورا ، قد خافه كل عدو له بالمدنية وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحينئذ دخل عبد الله بن أبى وأصحابه فى الإسلام ظاهرا .

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم ، فقسمهم على أصحابه ، وأوصى بهم خيرا ، فكان الصحابة يأكلون التمر ، ويقدمون لأسرائهم الخبز عملا بوصية رسول الله ﷺ .

قضية الأسارى :

ولما بلغ رسول الله ﷺ وسلم المدينة استشار أصحابه فى الأسارى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله ، فيكونوا لنا عضدا .

فقال رسول الله ﷺ : ما ترى ياابن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ماأرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننى من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل بن أبى طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر ، وهما يبكيان ، فقلت يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ : للذى

عرض علىّ أصحابك : من أخذهم الفداء ، فقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـــ شجرة قريبة ـــ[1] .

وأنزل الله تعالى ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (٨ : ٦٧ ، ٦٨) .

والكتاب الذى سبق من الله هو قوله تعالى ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ (٤٧ : ٤) ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ولذلك لم يعذبوا ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا فى الأرض ، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك المجرمين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط ، بل كانوا أكابر مجرمى الحرب الذين لايتركهم قانون الحرب الحديث إلا ويحاكمهم ، ولا يكون الحكم فى الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت .

واستقر الأمر على رأى الصديق فأخذ منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم ، إلى ثلاثة آلاف درهم ، إلى ألف درهم ، وكان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهو فداء .

ومنّ رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى ، فأطلقهم بغير فداء ، منهم : المطلب بن حنطب ، وصيفى بن أبى رفاعة ، وأبو عزة الجمحى ، وهو الذى قتله أسرا فى أحد ، وسيأتى .

ومنّ على ختنه أبى العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب ، وكانت قد بعثت فى فدائه بمال ، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبى العاص ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه فى إطلاق أبى العاص ففعلوه ، واشترط رسول الله ﷺ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب ،

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٣٦

فخلاها ، فهاجرت ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ، فقال : كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها ، فخرجا حتى رجعا بها ، وقصة هجرتها طويلة مؤلمة .

وكان فى الأسرى سهيل بن عمرو ، وكان خطيبا مصقعا ، فقال عمر : يا رسول الله ، انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيبا عليك فى موطن أبدا ، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب ، احترازا عن المثلة ، وعن بطش الله يوم القيامة .

وخرج سعد بن النعمان معتمرا فحبسه أبو سفيان ، وكان ابنه عمرو بن أبى سفيان فى الأسرى ، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهى — إن صح هذا التعبير — على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعاليق التى ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح .

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين — أولا — إلى التقصيرات والتفاريط الأخلاقية التى كانت قد بقيت فيهم ، وصدرت بعضها منهم ، ليسعوا فى تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التفاريط .

ثم ثنى بما كان فى هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين . ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم ، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء ، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التى خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلهم على الصفات والأخلاق التى تسببت فى

الفتوح وفى المعارك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة ، وعظهم موعظة بليغة ، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيد به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقنن لهم مبادىء وأسس هذه المسألة .

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية فى هذه المرحلة ، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية ، ويقوم لهم التفوق فى الأخلاق والقيم والمثل ، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية ، بل إنه يثقف أهله عمليا على الأسس والمبادىء التى يدعو إليها .

ثم قرر بنودا من قوانين الدولة الإسلامية التى تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها ، والذين يسكنون خارجها .

وفى السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان ، وفرضت زكاة الفطر ، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى ، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى ؛ تخفيفا لكثير من الأوزار التى يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين ، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضربا فى الأرض .

ومن أحسن المواقع وأروع الصدفات أن أول عيد تعيد به المسلمون فى حياتهم هو العيد الذى وقع فى شوال سنة ٢ هـ إثر الفتح المبين الذى حصلوا عليه فى غزوة بدر ، فما أروع هذا العيد السعيد الذى جاء به الله بعد أن توج هامتهم بتاج الفتح والعز ، وما أروق منظر تلك الصلاة التى صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد ، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله ، وحنينا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم من النعم ، وأيدهم به من النصر ، وذكرهم بذلك قائلا : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ (٨:٢٦) .

النشاط العسكري بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين ، وكانت معركة فاصلة ، أكسبت المسلمين نصرا حاسما شهد له العرب قاطبة ، والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة ؛ وهم المشركون ، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضربا قاصما على كيانهم الديني والاقتصادي ، وهم اليهود . فمنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظا وحنقا على المسلمين ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ (٥:٨٢) وكانت في المدينة بطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لوقارهم ، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظا من الأولين .

وكانت هناك فرقة رابعة ، وهم البدو الضاربون حول المدينة ، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان ، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب ، فأخذهم القلق ، واضطربوا لهذا الانتصار ، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب ، فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء .

وهكذا أحاطت الأخطار بالمسلمين من كل جانب ، ولكن هذه الفرق تباينت في سلوكها إزاء المسلمين ، وأخذ كل فريق الطريقة التي رآها كفيلة

بلوغ غايته . فبينا كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام ، وتأخذ فى طريق المؤامرات والدسائس والتحرشات والاستفزازات ، كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة ، وتكاشف عن الحقد والغيظ ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم وتعلن بأخذ الثأر والنقمة ، وتهتم بالتعبئة العامة جهارا ، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها ، تقول بأنه :

ولابد من يوم أغر محجل   يطول استماعي بعده للنوادب

وفعلا ، فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت فى التاريخ بغزوة أحد ، والتى كان لها أثر سيىء على سمعة المسلمين وهيبتهم .

وقد لعب المسلمون دورا هاما للقضاء على هذه الأخطار ، تظهر فيه عبقرية قيادة النبى ﷺ ، وما كان عليه من غاية التيقظ حول هذه الأخطار وما كان عليه من حسن التخطيط للقضاء عليها ، ونذكر فى السطور الآتية صورة مصغرة منها .

* * *

غزوة بنى سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبى ﷺ بعد بدر أن بنى سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة ، فباغت النبى ﷺ فى مائتى راكب هذه القبائل المتحشدة فى عقر دارها ، وبلغ إلى منازلهم فى موضع يقال له الكُدْر(١) . ففر بنو سليم وتركوا فى الوادى خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين ، وأصاب غلاما يقال له «يسار» فأعتقه .

---

(١) الكدر ، بالضم فالسكون : طير فى لونها كدرة ، وهو ماء من مياه بنى سليم يقع فى نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام .

وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة . وقيل : ابن أم مكتوم (١).

مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن اشتاطوا غضبا ، وجعلت مكة تغلى كالمرجل ضد النبي ﷺ ، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم ، وهو النبي ﷺ .

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بيسير — وكان عمير من شياطين قريش ، ممن كان يؤذي النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة — وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إنْ في العيش بعدهم خير .

قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة ، ابني أسير في أيديهم .

فاغتنمها صفوان وقال : عليّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي ، أواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم عني شأني وشأنك . قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبينا

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٠ ، ابن هشام ٢ / ٤٣ ، ٤٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٣٦ .

هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب ــ وهو فى نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر ــ فقال عمر : هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر . ثم دخل على النبى ﷺ فقال : يانبى الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحا سيفه ، قال : فأدخله على ، فأقبل عمير فلببه بحمالة سيفه ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رآه رسول الله ﷺ ــ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه ــ قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، فدنا وقال : أنعموا صباحا ، فقال النبى ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير ، بالسلام ، تحية أهل الجنة .

ثم قال : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئا ؟

قال : اصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فو الله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم تشهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره .

وأما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر . وكان يسأل الركبان عن عمير ، حتى أخبره راكب عن إسلامه ، فحلفه

صفوان أن لا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه بنفع أبدا .

ورجع عمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير(١).

غزوة بنى قينقاع

قدمنا بنود المعاهدة التى عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود . وقد كان حريصا كل الحرص على تنفيذ ما جاء فى هذه المعاهدة ، وفعلا لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفا واحدا من نصوصها . ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود ، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة ، وأخذوا فى طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب فى صفوف المسلمين . وهاك مثالا من ذلك :

نموذج من مكيدة اليهود :

قال ابن إسحاق : مر شاس بن قيس ــ وكان شيخا (يهوديا) قد عسا(٢) عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ــ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان من قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ،

---

(١) ابن هشام ١ / ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣

(٢) عسا الشيخ : كبر .

وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة ــ يعنى الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التى كانت بينهم ــ وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة ــ والظاهرة : الحرة ــ السلاح السلاح ، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب) .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس(١).

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحريشات فى المسلمين ، وإقامة العراقيل فى سبيل الدعوة الإسلامية . وقد كان لهم خطط شتى فى هذا السبيل ، كانوا يبثون الدعايات الكاذبة ، ويؤمنون وجه النهار ، ثم يكفرون آخره ؛ ليزرعوا بذور الشكوك فى قلوب الضعفاء ، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالى ، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء ، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل ، ويمتنعون عن أدائه ، وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك ، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل(٢).

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر ، على رغم المعاهدة التى عقدوها مع رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك ؛ حرصا على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام فى المنطقة .

---

(١) ابن هشام ١ / ٥٥٥ ، ٥٥٦

(٢) ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه فى تفسير سورة آل عمران وغيرها .

بنو قينقاع ينقضون العهد :

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصرا مؤزرا فى ميدان بدر ، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة فى قلوب الأقاصى والأدانى ، تميزت قدر غيظهم وكاشفوا بالشر والعداوة ، وجاهروا بالبغى والأذى .

وكان أعظمهم حقدا وأكبرهم شرا كعب بن الأشرف ــ وسيأتى ذكره ــ كما أن أشر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بنى قينقاع ، كانوا يسكنون داخل المدينة ــ فى حى باسمهم ــ وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأوانى ، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحروب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود .

فلما فتح الله للمسلمين فى بدر اشتد طغيانهم ، وتوسعوا فى تحرشاتهم واستفزازاتهم ، فكانوا يثيرون الشغب ، ويتعرضون بالسخرية ، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين ، حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم .

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم ، جمعهم رسول الله ﷺ ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى ، وحذرهم مغبة البغى والعدوان ، ولكنهم ازدادوا فى شرهم وغطرستهم .

روى أبو داود وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا يوم بدر ، وقدم المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع . فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا . قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى

كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ (٣ : ١٢ ، ١٣).[١]

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر بالحرب ، ولكن كظم النبى ﷺ غيظه ، وصبر وصبر المسلمون ، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالى .

وازداد اليهود ـــ من بنى قينقاع ـــ جراءة ، فقلما لبثوا أن أثاروا فى المدينة قلقا واضطرابا ، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم ، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة .

روى ابن هشام عن أبى عون أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته فى سوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ـــ وهى غافلة ـــ فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ـــ وكان يهوديا ـــ فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع [٢].

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء :

وحينئذ عيل صبر رسول الله ﷺ ، فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، وسار بجنود الله إلى بنى قينقاع ، ولما رأوه تحصنوا فى حصونهم ، فحاصرهم أشد الحصار ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ ، ودام الحصار خمس

(١) سنن أبى داود مع عون المعبود ٣ / ١١٥ ، ابن هشام ١ / ٥٥٢ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨

عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ــ الذى إذا أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذف فى قلوبهم ــ فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فى رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم ، فأمر بهم فكتفوا .

وحينئذ قام عبد الله بن أبى بن سلول بدوره النفاق ، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم عفوا ، فقال : يا محمد ، أحسن فى موالى ــ وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج ــ فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فكرر ابن أبى مقالته ، فأعرض عنه ، فأدخل يده فى جيب درعه ، فقال له رسول الله ﷺ : أرسلنى ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال : ويحك ، أرسلنى . ولكن المنافق مضى على إصراره ، وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود ، وتحصدهم فى غداة واحدة ؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق ــ الذى لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب ــ عامله بالمراعاة ، فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام ، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم .

وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم ، فأخذ منها ثلاث قسى ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح ، وخمس غنائمهم ، وكان الذى تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة [1].

غزوة السويق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم ، كان أبو سفيان يفكر فى عمل قليل المغارم ظاهر الأثر ، يتعجل

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٧١ ، ٩١ ، ابن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩

به ؛ ليحفظ مكانة قومه ، ويبرز ما لديهم من قوة ، وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ، فخرج فى مائتى راكب ليبر يمينه ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهارا ، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة ، فإنه دخل فى ضواحى المدينة فى الليل مستخفيا تحت جنح الظلام ، فأتى حيى ابن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأبى وخاف فانصرف إلى سلام بن مشكم ــ سيد بنى النضير ، وصاحب كنزهم إذ ذاك ، فاستأذن عليه فأذن ، فقراه وسقاه الخمر ، وبطن له من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها « العريض » ، فقطعوا وأحرقوا هناك أسوارا من النخل ، ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفا له فى حرث لهما فقتلوهما ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فسارع لمطاردة أبى سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، وطرحوا سويقا كثيرا من أزوادهم وتموميناتهم يتخففون به ، فتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعا ، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم ، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق . وقعت فى ذى الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة فى هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر(١) .

غزوة ذى أمر

وهى أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد ، قادها فى المحرم سنة ٣ هـ .

وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعا كبيرا

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٠ ، ٩١ ، ابن هشام ٢ / ٤٤ ، ٤٥

من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا ، يريدون الإغارة على أطراف المدينة ، فندب رسول الله ﷺ المسلمين ، وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلا ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، فضمه إلى بلال ، وصار دليلا لجيش المسلمين إلى أرض العدو .

وتفرق الأعداء في رءوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة . أما النبي ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم ، وهو الماء المسمى « بذى أمر » فأقام هناك صفرا كله — من سنة ٣ هـ — أو قريبا من ذلك ، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ، ويستولى عليهم الرعب والرهبة ، ثم رجع إلى المدينة (١) .

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقا على الإسلام والمسلمين ، وإيذاء لرسول الله ﷺ ، وتظاهرا بالدعوة إلى حربه .

كان من قبيلة طيء — من بني نبهان — وأمه من بني النضير ، وكان غنيا مترفا معروفا بجماله في العرب ، شاعرا من شعرائها ، وكان حصنه في شرق جنوب المدينة في خلفيات ديار بني النضير .

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين ، وقتل صناديد قريش في بدر

(١) ابن هشام ٢ / ٤٦ ، زاد المعاد ٢ / ٩١ ، ويذكرون أن محاولة اغتيال النبي ﷺ من قبل دعثور أو غورث المحاربي كانت في هذه الغزوة . والصحيح أنها في غير هذه الغزوة انظر صحيح البخاري ٢ / ٥٩٣ .

قال : أحق هذا ؟ هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ولما تأكد لديه الخبر ، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ، ويمدح عدوهم ، ويحرضهم عليهم ، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين ، يثير بذلك حفائظهم ، ويذكي حقدهم على النبي ﷺ ، ويدعوهم إلى حربه ، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأى الفريقين أهدى سبيلا ؟ فقال : أنتم أهدى منهم سبيلا ، وأفضل ، وفى ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ (٤ : ٥١) .

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال ، وأخذ يشبب فى أشعاره بنساء الصحابة ، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء .

وحينئذ قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه آذى الله ورسوله ، فانتدب له محمد بن مسلمة ، وعباد بن بشر ، وأبو نائلة ــ واسمه سلكان بن سلامة ، وهو أخو كعب من الرضاعة ــ والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن حبر ، وكان قائد هذه المفرزة محمد بن مسلمة .

وتفيد الروايات فى قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فأذن لى أن أقول شيئا . قال : قل .

فأتاه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا .

قال كعب : والله لتملنه .

قال محمد بن مسلمة : فإنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه ؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين .

قال كعب : نعم أرهنونى .

قال ابن مسلمة : أى شيء تريد ؟

قال : أرهنونى نساءكم .

قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟

قال : فترهنونى أبناءكم .

قال : كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم ، فيقال : رهن بوسق أو وسقين . هذا عار علينا ، ولكنا نرهنك اللأمة ، يعنى السلاح .

فواعده أن يأتيه .

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة ، فقد جاء كعبا فتناشد معه أطراف الأشعار سويعة ، ثم قال له : ويحك يا ابن الأشرف ، إنى قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى .

قال كعب : افعل .

قال أبو نائلة : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، وقال أبو نائلة أثناء حديثه : إن معى أصحابا لى على مثل رأيى ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك .

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة فى هذا الحوار إلى ما قصدا ، فإن كعب لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار .

وفى ليلة مقمرة ــ ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣ هـ ــ اجتمعت هذه المفرزة إلى رسول الله ﷺ ، فشيعهم إلى بقيع الغرقد ، ثم

ثم وجههم قائلاً : انطلقوا على اسم الله ، اللَّهُمَّ أعنهم ، ثم رجع إلى بيته ، وطفق يُصلِّي ويُناجي ربه .

وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة ، فقام لينزل إليهم ، فقالت له امرأته ـ وكان حديث العهد بها : أين تخرج هذه الساعة ؟ أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم .

قال كعب : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إن الكريم لو دعي إلى طعنة أجاب ، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفخ رأسه .

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فأشمه ، فإذا رأيتموني استمكنت منه من رأسه فدونكم فاضربوه ، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة ، ثم قال أبو نائلة : هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا يتماشون ، فقال أبو نائلة وهو في الطريق : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر ، وزهى كعب بما سمع فقال : عندي أعطر نساء العرب ، قال أبو نائلة : أتأذن لي أن أشم رأسك ؟ قال : فأدخل يده في رأسه فشمه وأشم أصحابه .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال كعب : نعم ، فعاد لمثلها ، حتى اطمأن .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال : نعم ، فأدخل يده في رأسه ، فلما استمكن منه قال : دونكم عدو الله ، فاختلفت عليه أسيافهم ، لكنها لم تغن شيئاً ، فأخذ محمد ابن مسلمة معولاً فوضعه في ثنته ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ،فوقع عدو الله قتيلاً ، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله ، فلم يبق حصن إلاّ أوقدت عليه النيران .

ورجعت المفرزة وقد أُصيب الحارث بن أوس بذباب بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم ، فلما بلغت المفرزة حرة العريض ، رأت أن الحارث ليس معهم فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه حتى إذا

بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم ، فعرف أنهم قد قتلوه ، فكبر ، فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه ، قالوا : ووجهك يارسول الله . ورموا برأس الطاغية بين أيديه ، فحمد الله على قتله ، وتفل على جرح الحارث فبرأ ، ولم يؤذ بعده (1).

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب في قلوبهم العنيدة ، وعلموا أن الرسول ﷺ لن يتوانى في استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدى نفعا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق ،فلم يحركوا ساكنا لقتل طاغيتهم ، بل لزموا الهدوء ، وتظاهروا بإيفاء العهود ، واستكانوا ، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبىء فيها .

وهكذا تفرغ الرسول ﷺ — إلى حين — لمواجهة الأخطار التى كان يتوقع حدوثها خارج المدينة ، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التى كانوا يتوجسونها ، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى .

* * *

غزوة بحران

وهى دورية قتال كبيرة ، قوامها ثلاثمائة مقاتل ، قادها الرسول ﷺ فى شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها بحران — وهى معدن بالحجاز فى ناحية الفرع — فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق حربا (2).

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه الوقعة من ابن هشام ٢ / ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، وصحيح البخارى ١ / ٣٤١ ، ٤٢٥ ، ٢ / ٥٧٧ ، وسنن أبى داود مع عون المعبود ٢ / ٤٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١

(٢) ابن هشام ٢ / ٥٠ ، ٥١ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ ، واختلفت المصادر فى تعيين سبب هذه الغزوة فقيل : إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن بنى سليم يحشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو =

سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد ، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣ هـ .

وتفصيلها أن قريشا بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب ، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام ، فأخذها هم آخر .

قال صفوان بن أمية لقريش — وهو الذى انتخبته قريش فى هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام — : إن محمدا وصحبه عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف ، وإلى الحبشة فى الشتاء .

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع ، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان : تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق — وهى طريق طويلة جدا تخترق نجدا إلى الشام ، وتمر فى شرقى المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل — فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان — من بنى بكر بن وائل — دليلا له ، يكون رائده فى هذه الرحلة .

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة . وذلك أن سليط بن النعمان — وكان قد أسلم — اجتمع فى مجلس شرب — وذلك قبل تحريم

= أطرافها ، وقيل : بل خرج يريد قريشا ، وهذا الثانى هو الذى ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم — حتى لم يذكر الأول رأسا — وهو الموجه ، وذلك لأن ديار بنى سليم لم تكن بناحية الفرع ، وإنما هى فى نجد بعيدة عن ناحية الفرع .

الخمر ــ مع نعيم بن مسعود الأشجعي ــ ولم يكن أسلم إذ ذاك ــ فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها ، فأسرع سليط إلى النبي ﷺ يروى له القصة .

وجهز رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبي ، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة ــ على حين غرة ــ وهى تنزل على ماء فى أرض نجد يقال له قردة ــ بالفتح فالسكون ــ فاستولى عليها كلها ، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أى مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة ــ فرات بن حيان ، وقيل : ورجلين غيره ــ وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة ، قدرت قيمتها بمائة ألف ، قسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس ، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ (١).

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشا بعد بدر ، اشتد لها قلق قريش ، وزادتها هما وحزنا . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها ، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين ، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزها القديم ، وتقضى على قوات المسلمين ، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر ، والتهيؤ للقاء المسلمين فى تعبئة كاملة ، وتصميمها على الغزو فى ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد .

* * *

---

(١) ابن هشام ٢ / ٥٠ ، ٥١ ، فقه السيرة ص ١٩٠ ، رحمة للعالمين ٢ / ٢١٩

غَـزْوَةُ أُحُـدٍ

استعداد قريش لمعركة ناقمة :

كانت مكة تحترق غيظا على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف ، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر ، حتى إن قريشا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر ، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى ؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم .

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين ، تشفي غيظها ، وتروى غلة حقدها ، وأخذت فى الاستعداد للخوض فى مثل هذه المعركة .

وكان عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وأبو سفيان بن حرب ، وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطا وتحمسا لخوض المعركة .

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سببا لمعركة بدر ، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم : يامعشر قريش ، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأرا ، فأجابوا لذلك ، فباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار ، وفى ذلك أنزل الله تعالى ﴿ إن الذين كفروا ينفقون

أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾ (٨:٣٦)

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة ، وأخذوا لذلك أنواعا من طرق التحريض ، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر — الذي كان قد أسر في بدر فمنّ عليه رسول الله ﷺ ، وأطلق سراحه بغير فدية ، وأخذ منه العهد بأن لا يقوم ضده — أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين ، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيا يغنيه ، وإلا يكفل بناته ، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفائظهم ، كما اختاروا شاعرا آخر — مسافع بن عبد مناف الجمحي — لنفس المهمة .

وكان أبو سفيان أشد تأليبا على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السويق خائبا لم ينل ما في نفسه ، بل أضاع مقدارا كبيرا من تمويناته في هذه الغزوة .

وزاد الطينة بلة — أو زاد النار إذكاء ،إن صح هذا التعبير — ما أصاب قريشا أخيرا في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت فقار اقتصادها ، وزودها من الحزن والهم مالا يقادر قدره ، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين .

قوام جيش قريش وقيادته :

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها ، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش ، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء ، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم ، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة .

وكان سلاح النقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير ، ومن سلاح

الفرسان مائتا فرس [1] جنبوها طول الطريق ، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع .

وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب ، وقيادة الفرسان إلى خالد ابن الوليد ، يعاونه عكرمة بن أبي جهل ، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار

جيش مكة يتحرك

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة ، وكانت الثارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير .

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو :

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش .

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة ، وجدَّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة — التي تبلغ مسافتها إلى خمسمائة كيلومترا — في ثلاثة أيام ، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء .

قرأ الرسالة على النبي ﷺ أُبيُّ بن كعب ، فأمره بالكتمان ، وعاد مسرعا إلى المدينة ، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار .

استعداد المسلمين للطوارىء :

وظلت المدينة في حالة استنفار عام ، لا يفارق رجالها السلاح ، حتى

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٢ وهو المعروف ، وفي فتح الباري مائة فرس ٧ / ٣٤٦

وهم في الصلاة ، استعدادا للطوارىء .

وقامت مفرزة من الأنصار ــ فيهم سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ــ بحراسة رسول الله ﷺ ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح .

وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها ، خوفا من أن يؤخذوا على غرة .

وقامت دوريات من المسلمين ــ لاكتشاف تحركات العدو ــ تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين .

الجيش المكي إلى أسوار المدينة :

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسة المعتادة ، ولما وصل إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة ــ زوج أبي سفيان ــ بنبش قبر أم رسول الله ﷺ ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب ، وحذروا من العواقب الوخيمة التي تلحقهم لو فتحوا هذا الباب .

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة ، فسلك وادى العقيق ثم انحرف منه إلى ذات اليمين ، حتى نزل قريبا بجبل أحد في مكان يقال له عينين ، في بطن السبخة ، من قناة على شفير الوادى ــ الذى يقع شمالى المدينة ــ فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة .

المجلس الاستشارى لأخذ خطة الدفاع :

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبرا بعد خبر ، حتى الخبر الأخير عن معسكره ، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلسا استشاريا عسكريا أعلى ، تبادل فيه الرأى لاختيار الموقف ، وأخبرهم عن رؤيا رآها ، قال : إنى

قد رأيت والله خيرا ، رأيت بقرا يذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلما ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول الدرع بالمدينة .

ثم قدم رأيه إلى صحابته أن لا يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدوى ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، وكان هذا هو الرأى . ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبي بن سلول — رأس المنافقين — وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج . ويبدو أن موافقته لهذا الرأى لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية ، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد ، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه — لأول مرة — أمام المسلمين ، وينكشف عنهم الغطاء الذى كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه ، ويتعرف المسلمون فى أحرج ساعتهم على الأفاعى التى كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم .

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، فأشاروا على النبى ﷺ بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك ، حتى قال قائلهم : يارسول الله ، كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ، اخرج إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم .

وكان فى مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ — الذى كان قد أرى فرند سيفه فى معركة بدر — فقد قال للنبى ﷺ : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاما حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة [1].

ورفض رسول الله ﷺ رأيه أمام رأى الأغلبية ، واستقر الرأى على الخروج من المدينة ، واللقاء فى الميدان السافر .

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ١٤

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال :

ثم صلى النبي ﷺ بالناس يوم الجمعة ، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، ففرح الناس بذلك .

ثم صلى بالناس العصر ، وقد حشدوا وحضر أهل العوالي ، ثم دخل بيته ، ومعه صاحباه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه ، فتدجج بسلاحه ، وظاهر بين درعين (أي لبس درعا فوق درع) ، وتقلد السيف ، ثم خرج على الناس .

وكان الناس ينتظرون خروجه ، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج ، فردوا الأمر إليه ، فندموا جميعا على ما صنعوا ، فلما خرج قالوا له : يارسول الله ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما شئت ، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل . فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته — وهي الدرع — أن يضعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه(١).

وقسم النبي ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب :

(١) كتيبة المهاجرين ، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري .

(٢) كتيبة الأوس من الأنصار ، وأعطى لواءها أسيد بن حضير .

(٣) كتيبة الخزرج من الأنصار ، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر .

وكان الجيش متألفا من ألف مقاتل ، فيهم مائة دارع وخمسون فارسا(٢)، وقيل لم يكن من الفرسان أحد ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم

---

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم وابن إسحاق

(٢) قاله ابن القيم في الهدى ٢ ، ٩٢ . وقال ابن حجر : هو غلط بين . وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيل ، ووقع عند الواقدي كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة(فتح الباري ٧ / ٣٥٠) .

على الصلاة بمن بقى فى المدينة ، وأذن بالرحيل ، فتحرك الجيش نحو الشمال ، وخرج السعدان أمام النبى ﷺ يعدوان دارعين .

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش ، فسأل عنها ، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج[1]، يرغبون المساهمة فى القتال ضد المشركين ، فسأل : هل أسلموا ؟ فقالوا : لا . فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك .

استعراض الجيش :

وعندما وصل إلى مقام يقال له « الشيخان » استعرض جيشه ، فرد من استصغره ولم يره مطيقا للقتال ، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأسامة بن زيد ، وأسيد بن ظهير ، وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وأبو سعيد الخدرى ، وزيد بن حارثة الأنصارى ، وسعد بن حبة ، ويذكر فى هؤلاء البراء بن عازب ، لكن حديثه فى البخارى يدل على شهوده القتال ذلك اليوم .

وأجاز رافع بن خديج ، وسمرة بن جندب على صغر سنهما ، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهرا فى رماية النبل فأجازه ، فقال سمرة : أنا أقوى من رافع . أنا أصرعه ، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه ، فتصارعا ، فصرع سمرة رافعا ، فأجازه أيضا .

المبيت بين أحد والمدينة :

وفى هذا المكان أدركهم المساء ، فصلى المغرب ، ثم صلى العشاء ، وبات هنالك ، وانتخب خمسين رجلا لحراسة المعسكر يتجولون حوله ، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصارى ، بطل سرية كعب بن الأشرف ،

---

(1) روى ذلك ابن سعد وفيه أنهم من بنى قينقاع (٢ / ٣٤) ومعلوم أن بنى قينقاع كان قد تم إجلاؤهم عقب بدر .

وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبى ﷺ خاصة .

تمرد عبد الله بن أبى وأصحابه :

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج ، حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر ، وكان بمقربة جدا من العدو فقد كان يراهم ويرونه ، وهناك تمرد عبد الله بن أبى المنافق ، فانسحب بنحو ثلث العسكر — ثلاثمائة مقاتل — قائلا : ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهرا بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره .

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه ، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى . بل لو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره ، بل كان هدفه الرئيسى من هذا التمرد — فى ذلك الظرف الدقيق — أن يحدث البلبلة والاضطراب فى جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم ، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبى ﷺ ، وتنهار معنويات من يبقى معه ، بينما يتشجع العدو ، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر ، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبى ﷺ وأصحابه المخلصين ، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه .

وكاد المنافق ينجح فى تحقيق بعض ما كان يهدف إليه ، فقد همت طائفتان — بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج — أن تفشلا ، ولكن الله تولاهما ، فثبتتا بعد ما سرى فيهما الاضطراب وهمتا بالرجوع والانسحاب ، وعنهما يقول الله تعالى : ﴿ إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٣ : ١٢٢) .

وحاول عبد الله بن حرام — والد جابر بن عبد الله — تذكير هؤلاء لمنافقين بواجبهم فى هذا الظرف الدقيق ، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع ، ويقول تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم أنكم

تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلا : أبعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه .

وفى هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى : ﴿ وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا ، قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون ﴾ (٣ : ١٦٧) .

بقية الجيش الإسلامى إلى أحد :

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبى ﷺ ببقية الجيش ـــ وهم سبعمائة مقاتل ـــ ليواصل سيره نحو العدو ، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد فى مناطق كثيرة ، فقال : من رجل يخرج بنا على القوم من كثب (أى من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم ؟

فقال أبو خيثمة : أنا يارسول الله ، ثم اختار طريقا قصيرا إلى أحد يمر بحرة بنى حارثة وبمزارعهم ، تاركا جيش المشركين إلى الغرب .

ومر الجيش فى هذا الطريق بحائط مربع بن قيظى ـــ وكان منافقا ضرير البصر ـــ فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب فى وجوه المسلمين ، ويقول : لا أحل لك أن تدخل حائطى إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال : لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر .

ونفذ رسول الله ﷺ ، حتى نزل الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى ، فعسكر بجيشه مستقبلا المدينة ، وجاعلا ظهره إلى هضاب جبل أحد ، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلا بين المسلمين وبين المدينة .

خطة الدفاع :

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وهيأهم صفوفا للقتال ، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين ، قوامها خمسون مقاتلا ، وأعطى قيادتها لعبد الله بن

جبير بن النعمان الأنصارى الأوسى البدرى ، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادى قناة ــ وعرف فيما بعد بجبل الرماة ــ جنوب شرق معسكر المسلمين ، على بعد حوالى مائة وخمسين مترا من مقر الجيش الإسلامى .

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ فى كلماته التى ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتون من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك [1]. ثم قال للرماة احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا [2]، وفى رواية البخارى أنه قال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم [3]

وبتعيين هذه الفصيلة فى الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التى كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين ، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق .

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو ، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام ، يسانده المقداد بن الأسود ، وكان إلى الزبير مهمة الصمود فى وجه فرسان خالد بن الوليد ، وجعل فى مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة ، والذين يوزنون بالآلاف .

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جدا ، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبى

---

(١) ابن هشام ٢ / ٦٥ ، ٦٦

(٢) روى ذلك أحمد والطبرانى والحاكم عن ابن عباس . انظر فتح البارى ٧ / ٣٥٠

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ١ / ٤٢٦ .

ﷺ العسكرية ــ وأنه لايمكن لأى قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا ــ فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة ، مع أنه نزل فيه بعد العدو ، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل ، وحمى ميسرته وظهره ــ حين يحتدم القتال ــ بسد الثلمة الوحيدة التى كانت توجد فى جانب الجيش الإسلامى ، واختار لمعسكره موضعا مرتفعا يحتمى به ــ إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين ــ ولا يلتجىء إلى الفرار ، حتى يتعرض للوقوع فى قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم ، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه ، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدا أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم ، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين ، كما أنه عوض النقص العددى فى رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين .

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوى صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة فى الجيش :

ـ ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ فى القتال حتى يأمرهم ، وظاهر بين درعين ، وحرض أصحابه على القتال ، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء ، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة فى أصحابه ، حتى جرد سيفا باترا ونادى أصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال ليأخذوه ــ منهم على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب ــ حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحنى . قال : أنا آخذه بحقه يارسول الله ، فأعطاه إياه .

وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف

عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل يتبختر بين الصفين ، وحينئذ قال رسول الله ﷺ : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن .

تعبئة الجيش المكي :

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان صخر بن حرب الذى تمركز فى قلب الجيش ، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد — وكان إذ ذاك مشركا — وعلى الميسرة عكرمة ابن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبى ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بنى عبد الدار ، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التى ورثوها من قصى بن كلاب — كما أسلفنا فى أوائل المقالة — وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم فى ذلك ، تقيدا بالتقاليد التى ورثوها كابرا عن كابر ، بيد أن القائد العام — أبا سفيان — ذكرهم بما أصاب قريشا يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث ، وقال لهم ليستفز غضبهم ويثير حميتهم : يابنى عبد الدار ، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

ونجح أبو سفيان فى هدفه ، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبى سفيان أشد الغضب ، وهموا به وتواعدوه ، وقالوا له : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم .

مناورات سياسية من قبل قريش :

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين . فقد أرسل أبوسفيان إلى الأنصار يقول لهم : « خلوا بيننا وبين ابن

عمنا فننصرف عنكم ، فلا حاجة لنا إلى قتالكم » ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذى لا تقوم له الجبال ، فقد رد عليه الأنصار ردا عنيفا ، وأسمعوه مايكره .

واقتربت ساعة الصفر ، وتدانت الفئتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض ، فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق ـــ واسمه عبد عمرو بن صيفى ، وكان يسمى الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق ، وكان رأس الأوس فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه ـــ فكان أول من خرج إلى المسلمين فى الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فقالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر . (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالا شديدا وراضخهم بالحجارة) .

وهكذا فشلت قريش فى محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم ، مع كثرتهم وتفوقهم فى العدد والعدة .

جهود نسوة قريش فى التحميس :

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة فى المعركة ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، فكن يتجولن فى الصفوف ، ويضربن بالدفوف ، يستنهضن الرجال ، ويحرضن على القتال ، ويثرن حفائظ الأبطال ، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار

وتارة يأززن قومهن على القتال وينشدن :

إن تقبلوا نعانق	ونفـرش النمـارق
أو تدبروا نفارق	فراق غير وامق

أول وقود المعركة :

وتقارب الجمعان ، وتدانت الفئتان ، وبدأت مراحل القتال ، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة العبدرى ، وكان من أشجع فرسان قريش ، يسميه المسلمون كبش الكتيبة ، خرج وهو راكب على جمل ، يدعو إلى المبارزة ، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته ، ولكن تقدم إليه الزبير ، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث ، حتى صار معه على جمله ، ثم اقتحم به الأرض ، فألقاه عنه وذبحه بسيفه .

ورأى النبى ﷺ هذا الصراع الرائع ، فكبر وكبر المسلمون ، وأثنى على الزبير ، وقال فى حقه : إن لكل نبى حواريا ، وحوارِيى الزبير[(١)].

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته :

ثم اندلعت نيران المعركة ، واشتد القتال بين الفريقين فى كل نقطة من نقاط الميدان ، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين . فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبى طلحة ، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبى طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول :

إن على أهل اللواء حقا ... أن تخضب الصعدة أو تندقا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه ، حتى وصلت إلى سرته ، فبانت رئته .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبى طلحة ، فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم

---

(١) ذكره صاحب السيرة الحلبية ٢/ ١٨

أصاب حنجرته ، فأدلع لسانه ومات لحينه . وقيل : بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز ، فتقدم إليه على بن أبي طالب ، فاختلفا ضربتين ، فضربه على فقتله .

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقتله ، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجلّاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته ، وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقضى عليه .

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد ، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، قتلوا جميعا حول لواء المشركين ، ثم حمله من بنى عبد الدار أرطاة بن شرحبيل ، فقتله على بن أبي طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب ، ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان — وكان منافقا قاتل مع المسلمين حمية ، لا عن الإسلام — ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدرى ، فقتله قزمان أيضا ، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدرى فقتله قزمان أيضا .

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار — من حملة اللواء — أبيدوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء ، فتقدم غلام لهم حبشي — اسمه صواب — فحمل اللواء ، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل حتى قطعت يداه ، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط حتى قتل وهو يقول : اللهم هل أعزرت ؟ يعني هل أعذرت [1] .

وبعد أن قتل هذا الغلام — صواب — سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقى ساقطا .

القتال في بقية النقاط :

وبينما كان ثقل المعركة ، يدور حول لواء المشركين ، كان القتال المرير

---

(١) كان بلسانه لكنة يقلب الذال إلى الزاى .

يجرى فى سائر نقاط المعركة ، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود ، وهم يقولون « أمت ، أمت » ، كان ذلك شعارا لهم يوم أحد .

أقبل أبو دجانة معلما بعصابته الحمراء ، آخذاً بسيف رسول الله ﷺ ، مصمما على أداء حقه ، فقاتل حتى أمعن فى الناس ، وجعل لا يلقى مشركا إلا قتله ، وأخذ يهد صفوف المشركين هدّا . قال الزبير بن العوام : وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه ، وأعطاه أبا دجانة ، وقلت أي فى نفسي : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه ، فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركنى ، والله لأنظرن مايصنع ؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر فى الكيول (١) ... أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا زفف عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته ، فعضت بسيفه ، فضربه أبو دجانة فقتله (٢).

ثم أمعن أبو دجانة فى هـذ الصفوف ، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش ، وهو لا يدرى بها . قال أبو دجانة : رأيتُ إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا فصمدت له ؛ فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

وكانت تلك المرأة هى هند بنت عتبة . قال الزبير بن العوام رأيت أبا دجانة

---

(١) الكيول : آخر الصفوف يعنى أنه لا يقاتل فى مؤخرة الصفوف . بل يظل أبدا فى المقدمة
(٢) ابن هشام ٢ / ٦٨ ، ٦٩ .

قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم [1].

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهتاجة ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير ، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء ، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة فى إبادة حاملى لواء المشركين ؛ فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صرع وهو فى مقدمة المبرزين ، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجها لوجه فى ميدان القتال ، وإنما كما يغتال الكرام فى حلك الظلام .

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب :

يقول قاتل حمزة وحشى بن حرب : كنت غلاما لجبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير : إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس ــ وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطىء بها شيئا ــ فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصرو ، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يهد الناس هدا مايقوم له شىء ، فوالله إنى لأتهيأ له أريده ، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى ، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له : هلم إلى يا ابن مقطعة البظور ــ وكانت أمه ختانة ــ قال : فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه [2].

قال : وهززت حربتى ، حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه ، فوقعت فى ثنته ــ أحشائه ــ حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى العسكر ، فقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة عتقت [3].

(١) نفس المصدر ٢ / ٦٩

(٢) أخطأ رأسه ، يقال عند المبالغة فى الإصابة .

(٣) ابن هشام ٢ / ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٨٣ ــ أسلم وحشى هذا بعد معركة=

السيطرة على الموقف :

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التى لحقت المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله ، فقد قاتل يومئذ أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن جحش ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالا فلَّ عزائم المشركين ، وفتت فى أعضادهم .

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة :

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل ــ وهو حنظلة بن أبى عامر ، وأبو عامر هذا هو الراهب الذى سمى بالفاسق ، والذى مضى ذكره قريبا ــ كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع هواتف الحرب ــ وهو على امرأته ــ انخلع من أحضانها ، وقام من فوره إلى الجهاد ، فلما التقى بجيش المشركين فى ساحة القتال ، أخذ يشق الصفوف ، حتى خلص إلى قائد المشركين أبى سفيان صخر بن حرب ، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة ، فقد شد على أبى سفيان ، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله .

نصيب فصيلة الرماة فى المعركة :

وكانت للفصيلة التى عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء فى إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامى ، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد ابن الوليد يساندة أبو عامر الفاسق ، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامى الأيسر ، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين ، فيحدثوا البلبلة والارتباك فى صفوفهم ، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت

= الطائف ، وقتل مسيلمة الكذاب بحربته تلك ، وشهد اليرموك ضد الرومان .

هجماتهم الثلاث [1].

الهزيمة تنزل بالمشركين :

هكذا دارت رحى الحرب الزبون ، وظل الجيش الإسلامى الصغير مسيطرا على الموقف كله ، حتى خارت عزائم أبطال المشركين ، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف ، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قلائل ، وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين .

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور ، وانكسرت همتها ـــ حتى لم يجترىء أحد منها أن يدنو من لوائها ، الذى سقط بعد مقتل صواب ، فيحمله ليدور حوله القتال ـــ فأخذت فى الانسحاب ، ولجأت إلى الفرار ، ونسيت ما كانت تتحدث به فى نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام ، وإعادة العز والمجد والوقار .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها . روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم ـــ سوق ـــ هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل ولا كثير .. إلخ [2] وفى حديث البراء بن عازب عند البخارى فى الصحيح : فلما لقيناهم هربوا ، حتى رأيت النساء يشتدون فى الجبل ، يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن [3]. وتبع المسلمون المشركين ، يضعون فيهم السلاح ، وينتهبون الغنائم .

غلطة الرماة الفظيعة :

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصرا ساحقا على مكة

---

(١) انظر فتح البارى ٧ / ٣٤٦

(٢) ابن هشام ٢ / ٧٧

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩

لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر ، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماما ، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، وكادت تكون سببا فى مقتل النبى ﷺ ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم ، والهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر .

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التى أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة ، بلزومهم موقفهم من الجبل فى كل حال من النصر أو الهزيمة ، لكن على رغم هذه الأوامر المشددة ؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو ، غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا ، فقال بعضهم لبعض : الغنيمة ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير ، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ وقال : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالا ، وقالت : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة [1]. ثم غادر أربعون رجلا من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل ، والتحقوا بسواد الجيش ، ليشاركوه فى جمع الغنائم ، وهكذا خلت ظهور المسلمين ، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه ، التزموا مواقفهم ، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا .

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامى :

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية ، فاستدار بسرعة خاطفة ، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامى ، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه ، ثم انقض على المسلمين من خلفهم ، وصاح فرسانه صيحة عرف المشركون المنهزمون بالتطور الجديد ، فانقلبوا على المسلمين ، وأسرعت امرأة

---

(١) روى ذلك البخارى من حديث البراء بن عازب ١ / ٤٢٦

منهم — وهى عمرة بنت علقمة الحارثية — فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب ، فالتف حوله المشركون ولاثوا به ، وتنادى بعضهم بعضا ، حتى اجتمعوا على المسلمين ، وثبتوا للقتال ، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف . ووقعوا بين شقى الرحى .

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق :

وكان رسول الله ﷺ حينئذ فى مفرزة صغيرة — تسعة نفر من أصحابه[1] — فى مؤخرة المسلمين[2] ، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين ؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة ، فكان أمامه طريقان ، إما أن ينجو — بالسرعة — بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون ، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور ، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله ، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد .

وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير ، فقد رفع صوته ينادى أصحابه : عباد الله ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون ، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطرا بنفسه فى هذا الظرف الدقيق .

وفعلا فقد علم به المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يصل إليه المسلمون .

تبدد المسلمين فى الموقف :

أما المسلمون فلما وقعوا فى التطويق طار صواب طائفة منهم ، فلم تكن تهمها إلا أنفسها ، فقد أخذت طريق الفرار ، وتركت ساحة القتال ، وهى لاتدرى

---

(١) فى صحيح مسلم (٢ / ١٠٧) أنه ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش .
(٢) يدل عليه قوله تعالى : والرسول يدعوكم فى أخراكم . (٣ : ١٥٣) .

ماذا وراءها ؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها ، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل ، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين ، والتبس العسكران ، فلم يتميزوا ، فوقع القتل فى المسلمين بعضهم من بعض . روى البخارى عن عائشة قالت : لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينه ، فصاح إبليس : أى عباد الله أخراكم — أى احترزوا من ورائكم — فرجعت أولاهم ، فاجتلدت هى وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : أى عباد الله أبى أبى . قالت : فو الله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم ، قال عروة : فوالله مازالت فى حذيفة بقية خير حتى لحق بالله [1].

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى ، وتاه منها الكثيرون ، لا يدرون أين يتوجهون ، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحا يصيح : إن محمدا قد قتل . فطارت بقية صوابهم ، وانهارت الروح المعنوية ، أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أفرادها ، فتوقف من توقف منهم عن القتال ، وألقى بأسلحته مستكينا، وفكر آخرون فى الاتصال بعبد الله بن أبى — رأس المنافقين — ليأخذ لهم الأمان من أبى سفيان .

ومر بهؤلاء أنس بن النضر ، وقد ألقوا بأيديهم فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : ماتصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس : واها لريح الجنة يا سعد ، إنى أجده دون أحد ، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته — بعد نهاية المعركة — ببنانه ، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ،

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٣٩ ، ٢ / ٥٨١ ، وفتح البارى ٧ / ٣٥١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ وذكر غير البخارى أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه . فقال حذيفة : تصدقت بديته على المسلمين ، فزاد ذلك حذيفة خيرا عند النبى ﷺ . انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٤٦ .

ورمية بسهم[1].

ونادى ثابت بن الدحداح قومه ، فقال : يا معشر الأنصار ، إن كان محمد قد قتل ، فإن الله حى لا يموت ، قاتلوا على دينكم ، فإن الله مظفركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد ، فما زال يقاتلهم ، حتى قتله خالد بالرمح ، وقتل أصحابه [2].

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ، وهو يتشحط فى دمه ، فقال : يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم[3].

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم ، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبى ، وأخذوا سلاحهم ، يهاجمون تيارات المشركين ، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة ، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبى ﷺ كذب مختلق ، فزادهم ذلك قوة على قوتهم ، فنجحوا فى الإفلات عن التطويق ، وفى التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المرير ، وجالدوا بضراوة بالغة .

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ . فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ ، وعمل التطويق فى بدايته ، وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب وغيرهم رضى الله عنهم كانوا فى مقدمة المقاتلين ، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة ـــ عليه الصلاة والسلام والتحية ـــ صاروا فى مقدمة المدافعين .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٣ ، ٩٦ صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩ .
(٢) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢ .
(٣) زاد المعاد ٢ / ٩٦ .

احتدام القتال حول رسول الله ﷺ :

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق ، تطحن بين شقى رحى المشركين ، كان العراك محتدما حول رسول الله ﷺ ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدأوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر ، فلما نادى المسلمين : هلم إلىّ ، أنا رسول الله ، سمع صوته المشركون وعرفوه ، فكروا إليه وهاجموه ، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين ، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ، ظهرت فيه نوادر الحب والتفانى والبسالة والبطولة .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو هو رفيقى فى الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضا فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه ــ أى القرشيين ــ ما أنصفنا أصحابنا (١) .

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن ، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط (٢) .

أحرج ساعة فى حياة الرسول ﷺ :

وبعد سقوط ابن السكن بقى الرسول ﷺ فى القرشيين فقط ، ففى الصحيحين عن أبى عثمان قال : لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى

---

(١) صحيح مسلم ، باب غزوة أحد ٢ / ١٠٧ .

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وأدنوه من رسول الله ﷺ ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ . (ابن هشام ٢ / ٨١) .

يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبى وقاص)[1] وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين ، ولم يتوان المشركون فى انتهاز تلك الفرصة ، فقد ركزوا حملتهم على النبى ﷺ وطمعوا فى القضاء عليه ، رماه عتبة بن أبى وقاص بالحجارة فوقع لشقه ، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى ، وكلمت شفته السفلى ، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهرى ، فشجه فى جبهته . وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة ، شكا لأجلها أكثر من شهر ، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى ، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، وقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسح الدم عن وجهه : أقمأك الله [2].

وفى الصحيح أنه ﷺ كسرت رباعيته ، وشج فى رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم ، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ [3] .

وفى رواية الطبرانى أنه قال يومئذ : اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله ، ثم مكث ساعة ثم قال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون [4] . وكذا فى صحيح مسلم أنه كان يقول : رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون [5] ، وفى الشفاء للقاضى عياض أنه قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون [6] .

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٢٧ ، ٢ / ٥٨١ .

(٢) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة انصرف إلى أهله ، فخرج إلى غنمه ، فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها ، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح البارى ٧ / ٣٧٣) وعند الطبرانى فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح البارى ٧ / ٣٦٦) .

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٢ ، وصحيح مسلم ٢ / ١٠٨ .

(٤) فتح البارى ٧ / ٣٧٣ .

(٥) صحيح مسلم باب غزوة أحد ٢ / ١٠٨ .

(٦) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٨١ .

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ ، إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة ، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير ، حتى لم يتركا — وهما اثنان فحسب — سبيلا إلى نجاح المشركين فى هدفهم ، وكانا من أمهر رماة العرب ، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ .

فأما سعد بن أبي وقاص ، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته ، وقال : ارم فداك أبي وأمي (١) . ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد (٢) .

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائى عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار . قال جابر : فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال : من للقوم ، فقال طلحة : أنا ، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار ، وقتلهم واحدا بعد واحد بنحو ماذكرنا من رواية مسلم ، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة ، قال جابر : ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه ، فقال : حس ، فقال النبي ﷺ لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون ، قال : ثم رد الله المشركين (٣) . ووقع عند الحاكم فى الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعا وثلاثين ، أو خمسا وثلاثين ، وشلت إصبعه ، أى السبابه والتى تليها (٤)

وروى البخارى عن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد (٥) .

وروى الترمذى أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ : « من ينظر إلى شهيد يمشى

(١ ، ٢) صحيح البخارى ١ / ٤٠٧ ، ٢ / ٥٨٠ ، ٥٨١ .
(٣) فتح البارى ٧ / ٣٦١ ، وسنن النسائى ٢ / ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) نفس المصدر الأول ٧ / ٣٦١ .
(٥) صحيح البخارى ١ / ٥٢٧ ، ٢ / ٥٨١ .

على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » (١).

وروى أبو داود الطيالسي عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة (٢).

وقال فيه أبو بكر أيضا :

ياطلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبوأت المها العينا (٣)

وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب ، ففي الصحيحين عن سعد . قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ، ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد . وفي رواية يعني جبريل وميكائيل (٤) .

بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ :

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة . وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ — الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال — لم يكادوا يرون تطور الموقف ، أو يسمعون صوته ﷺ ، حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه ، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات — وستة من الأنصار قد قتلوا ، والسابع قد أثبتته الجراحات ، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح — فلما وصلوا أقاموا حوله سياجا من أجسادهم وسلاحهم ، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو ، ورد هجماتهم . وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(١) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٦٦ ، ابن هشام ٢ / ٨٦ .
(٢) فتح البارى ٧ / ٣٦١ .
(٣) مختصر تاريخ دمشق ٧ / ٨٢ (من هامش شرح شذور الذهب ص ١١٤) .
(٤) صحيح البخاى ٢ / ٥٨٠ .

روى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت : قال أبو بكر الصديق لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبى ﷺ ، فكنت أول من فاء إلى النبى ﷺ ، فرأيت بين يديه رجلا يقاتل عنه ويحميه ، قلت : كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كأنه طير ، حتى لحقنى ، فدفعنا إلى النبى ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعا ، فقال النبى ﷺ : دونكم أخاكم فقد أوجب ، وقد رمى النبى ﷺ فى وجنته ، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، فذهبت لأنزعهما عن النبى ﷺ فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتنى . قال : فأخذ بفيه ، فجعل ينضضه كراهية أن يؤذى رسول الله ﷺ . ثم استل السهم بفيه ، فندرت ثنية أبى عبيدة ، قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر ، فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتنى ، قال فأخذه فجعل ينضضه حتى استله ، فندرت ثنية أبى عبيدة الأخرى ، ثم قال رسول الله ﷺ : دونكم أخاكم ، فقد أوجب ، قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه . وقد أصابته بضع عشرة ضربة [1] .
(وهذا أيضا يدل على مدى كفاءة طلحة ذلك اليوم فى الكفاح والنضال) .

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبى ﷺ عصابة من أبطال المسلمين ، منهم أبو دجانة ، ومصعب بن عمير ، وعلى بن أبى طالب ، وسهل ابن حنيف ، ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى . وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، وقتادة بن النعمان ، وعمر بن الخطاب ، وحاطب بن أبى بلتعة ، وسهل بن حنيف ، وأبو طلحة .

تضاعف ضغط المشركين :

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن ، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم ، وزاد ضغطهم على المسلمين ، حتى سقط رسول الله ﷺ فى حفرة

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٥ .

من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيد بها ، فجحشت ركبته ، وأخذ على يده ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، وقال نافع بن جبير : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحدا ، فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية رسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله ابن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن دنا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ، ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه فى ذلك صفوان ، فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه منا ممنوع . فخرجنا أربعة . فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك [1].

البطولات النادرة :

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة ، لم يعرف لها التاريخ نظيرا . كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله ﷺ ، ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو . قال أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له ، وكان رجلا راميا شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا ، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل ، فيقول : انثرها لأبى طلحة . قال : ويشرف النبى ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك [2].

وعنه أيضا قال : كان أبو طلحة يتترس مع النبى ﷺ بترس واحد ، وكان أبو طلحة حسن الرمى ، فكان إذا رمى تشرف النبى ﷺ ، فينظر إلى موقع نبله [3].

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ ، فترس عليه بظهره ، والنبل يقع عليه

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٧ .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٨١ .

(٣) نفس المصدر ١ / ٤٠٦ .

وهو لا يتحرك .

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص ـــ الذى كسر الرباعية الشريفة ـــ فضربه بالسيف حتى طرح رأسه ، ثم أخذ فرسه وسيفه . وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه ـــ عتبة هذا ـــ إلا أنه لم يظفر به ، بل ظفر به حاطب .

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال ، بايع رسول الله ﷺ على الموت ، ثم قام بدور فعال فى ذود المشركين .

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه ، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها[1]، فأخذها قتادة بن النعمان ، فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله ﷺ بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما .

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهتم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها فى رجله فعرج .

وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه . فقال : مجه . فقال : والله لا أمجه أبدا . ثم أدبر يقاتل ، فقال النبى ﷺ : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . فقتل شهيدا .

وقاتلت أم عمارة ، فاعترضت لابن قمئة فى أناس من المسلمين ، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحا أجوف ، وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها ، لكن كانت عليه درعان فنجا ، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحا .

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة ، يدافع عن النبى ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه ، وكان اللواء بيده ، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت ، فأخذ اللواء

---

(١) سيتها : ما عطف من طرفيها .

بيده اليسرى ، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل ، وكان الذى قتله هو ابن قمئة ، وهو يظنه رسول الله — لشبهه به — فانصرف ابن قمئة إلى المشركين ، وصاح : إن محمدا قد قتل [1]

إشاعة مقتل النبى ﷺ وأثره على المعركة :

ولم يمض على هذا الصياح دقائق ، حتى شاع خبر مقتل النبى ﷺ فى المشركين والمسلمين وهذا هو الظرف الدقيق الذى خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ ، وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى والاضطراب ، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا فى غاية مرامهم ، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين .

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف :

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء على بن أبى طالب ، فقاتل قتالا شديدا ، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون .

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ، فأقبل إليهم ، فعرفه كعب بن مالك — وكان أول من عرفه — فنادى بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه أن أصمت ؛ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون . إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين ، فلاذ إليه المسلمون ، حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلا من الصحابة .

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ فى الانسحاب المنظم إلى شعب

---

(١) انظر ابن هشام ٢ / ٧٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، وزاد المعاد ٢ / ٩٧ .

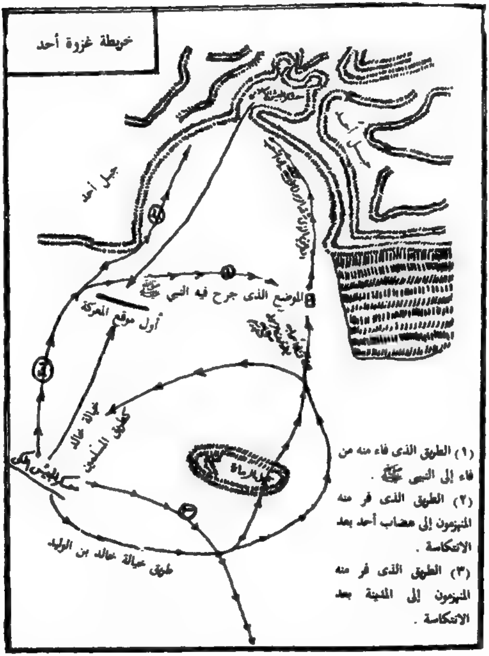
خريطة غزوة أحد
جبل أحد
الموضع الذى جرح فيه النبي ﷺ
أول موقع المعركة
خيالة خالد
طريق خيالة خالد بن الوليد
(١) الطريق الذى فاء منه من فاء إلى النبي ﷺ .
(٢) الطريق الذى فر منه المنهزمون إلى هضاب أحد بعد الانتكاسة .
(٣) الطريق الذى فر منه المنهزمون إلى المدينة بعد الانتكاسة .

الجبل ، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين ، واشتد المشركون في هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام .

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة — أحد فرسان المشركين — إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوت إن نجا . وقام رسول الله ﷺ لمواجهته . إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر ، فنازله الحارس بن الصمة ، فضرب على رجله فأقعده ، ثم ذفف عليه ، وأخذ سلاحه ، والتحق برسول الله ﷺ .

وعطف عبد الله بن جابر — فارس آخر من فرسان مكة — على الحارس ابن الصمة ، فضرب بالسيف على عاتقه ، فجرحه حتى حمله المسلمون ، ولكن انقض أبو دجانة — البطل المغامر ذو العصابة الحمراء — على عبد الله بن جابر ، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه .

وأثناء هذا القتال المرير ، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله ، كما تحدث عنه القرآن . قال أبو طلحة : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مرارا ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه [(١)] .

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة — في انسحاب منظم — إلى شعب الجبل وشق لبقية الجيش طريقا إلى هذا المقام المأمون ، فتلاحق به في الجبل ، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ .

مقتل أبي بن خلف :

قال بن إسحاق : فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد لا نجوتُ إن نجا ؟ . فقال القوم : يارسول الله أيعطف عليه رجلا منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دعوه . فلما دنا منه تناول

---

(١) صحيح البخاري ٢ / ٥٨٢ .

رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير اذا انتفض ، ثم استقبله ، وأبصر ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها طعنة تدأدأ ــ تدحرج ــ منها عن فرسه مرارا ، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير ، فاحتقن الدم قال : قتلني والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك[1] فوالله لو بصق عليّ لقتلني ، فمات عدو الله بسرف ، وهم قافلون به إلى مكة [2]، وفي رواية أبي الأسود عن عروة : أنه كان يخور خوار الثور ويقول : والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعا [3].

طلحة ينهض بالنبي ﷺ :

وفي أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل ، فنهض إليها ليعلوها ، فلم يستطع ، لأنه كان قد بدّن وظاهر بين الدرعين ، وقد أصابه جرح شديد . فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به حتى استوى عليها وقال : أوجب طلحة [4]، أي الجنة .

آخر هجوم قام به المشركون :

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته في الشعب ؛ قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين . قال ابن إسحاق: بينا رسول الله

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبي هذا ، فيقول : يا محمد إن عندي العود فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ ، بل أنا أقتلك إن شاء الله .

(٢) ابن هشام ٢ / ٨٤ ، زاد المعاد ٢ / ٩٧ .

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٠ .

(٤) ابن هشام ٢ / ٨٦ .

ﷺ فى الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل ــ يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد ــ فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر ابن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل [1] .

وفى مغازى الأموى أن المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : أجبنهم ــ يقول : اردِدهم ــ فقال : كيف أجبنهم وحدى ؟ فقال ذلك ثلاثا ، فأخذ سعد سهما من كنانته ، فرمى به رجلا فقتله ، قال : ثم أخذت سهمى أعرفه فرميت به آخر ، فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فجعلته فى كنانتى . فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه [2] .

تشويه الشهداء :

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبى ﷺ . ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئا ــ بل كانوا على شبه اليقين من قتله ــ رجعوا إلى مقرهم ، وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة ، واشتغل من اشتغل منهم ــ وكذا اشتغلت نساؤهم ــ بقتلى المسلمين ، يمثلون بهم ، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج ، ويبقرون البطون ، وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة ، فلاكتها فلم تستطيع أن تسيغها ، فلفظتها ، واتخذت من الآذان والأنوف خدما ــ خلاخيل ــ وقلائد [3] .

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة :

وفى هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان ، تدلان على مدى استعداد أبطال

---

(١) نفس المصدر .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٥ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٩٠ .

المسلمين للقتال ، ومدى استماتتهم فى سبيل الله .

(١) قال كعب بن مالك : كنت فيمن خرج من المسلمين ، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت ، فإذا رجل من المشركين جمع اللأمة يجوز المسلمين وهو يقول : استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم[1] ، وإذا رجل من المسلمين ينتظره ، وعليه لأمته ، فمضيت حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصرى ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا ، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين ، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى ياكعب ؟ أنا أبو دجانة [2].

(٢) جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة ، قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم ، وأنهما لمشمرتان ــ أرى خدم سوقهما ــ تنقزان القرب على متونهما ، تفرغانه فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنهما ، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم [3]. وقال عمر : كانت (أم سليط) تزفر لنا القرب يوم أحد [4].

وكانت فى هؤلاء النسوة أم أيمن ، إنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، أخذت تحثو فى وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم : هاك المغزل ، وهلم سيفك . ثم سارعت إلى ساحة القتال ، فأخذت تسقى الجرحى ، فرماها حبان (بالكسر) ابن العرقة بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله فى الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبى وقاص سهما لا نصل له ، وقال : ارم به ، فرمى به سعد ، فوقع السهم فى نحر حبان ، فوقع مستلقيا حتى تكشف ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجزه ، ثم

---

(١) أى استجمعوا وانضموا .

(٢) البداية والنهاية ٤ / ١٧ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٤٠٣ ، ٢ / ٥٨١ .

(٤) نفس المصدر ١ / ٤٠١ .

قال : استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته [١] .

بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب :

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشعب خرج على بن أبى طالب ، حتى ملأ درقته ماء من المهراس — قيل : هو صخرة منقورة تسع كثيرا وقيل : اسم ماء بأحد — فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريحا فعافه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه .[٢]

وقال سهل : والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء وبما دووى ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله ، وعلى بن أبى طالب يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فألصقتها ، فاستمسك الدم [٣] .

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ ، فشرب منه النبى ﷺ ، ودعا له بخير [٤] ، وصلى الظهر قاعدا من أثر الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعودا [٥] .

شماتة أبى سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر :

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف ، أشرف أبو سفيان على الجبل ،

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٨٥ .
(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٤ .
(٤) السيرة الحلبية ٢ / ٣٠ .
(٥) ابن هشام ٢ / ٨٧ .

فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه — وكان النبي ﷺ منعهم من الإجابة — ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم . فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوءك ، فقال : قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني .

ثم قال : اعل هبل .

فقال النبي ﷺ : ألا تجيبونه ؟ فقالوا : فما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل .

ثم قال : لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبي ﷺ : ألا تجيبونه ؟ قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

ثم قال أبو سفيان : أنعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، والحرب سجال .

فأجاب عمر ، وقال : لاسواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

ثم قال أبو سفيان : هلم إلى يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ : ائته فانظر ما شأنه ؟ فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليستمع كلامك الآن . قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر [1] .

مواعدة التلاقي في بدر :

قال ابن إسحاق : ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر

---

(١) ابن هشام ٢ /٩٣-٩٤ ، زاد المعاد ٢ / ٩٤ ، صحيح البخاري ٢ / ٥٧٩ .

العام القابل . فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينك موعد [١] .

التثبت من موقف المشركين :

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، فقال : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة . وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم . قال علي : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة [٢] .

تفقد القتلى والجرحى :

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش . قال زيد بن ثابت : بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته فأقرئه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، وفيه سبعون ضربة : ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : ياسعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله ﷺ السلام ، قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته [٣] .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٩٤ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٩٤ ، وفي فتح الباري أن الذي خرج في آثار المشركين هو سعد بن أبي وقاص (٧ / ٣٤٧) .

(٣) زاد المعاد ٢ / ٩٦ .

ووجدوا في الجرحى الأصيرم ـــ عمرو بن ثابت ـــ وبه رمق يسير ، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فقالوا : إن هذا الأصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ، ثم سألوه : ما الذى جاء بك ؟ أحدب على قومك ، أم رغبة في الإسلام ؟ فقـال : بل رغبـة في الإسلام ، آمـنـت بالله ورسوله ، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ماترون ، ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله ﷺ ، فقـال : هو من أهـل الجنـة . قال أبـو هريـرة : ولـم يصل لله صلاة قط [(١)].

ووجدوا في الجرحى قزمان ـــ وكان قد قاتل قتال الأبطال ، قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين ـــ وجدوه قد أثبتته الجراحة ، فاحتملوه إلى دار بنى ظفر ، وبشره المسلمون فقال : والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت . فلما اشتد به الجراح نحر نفسه . وكـان رسول الله ﷺ يقـول : إذا ذكـر له ، إنه من أهل النار [(٢)] ـــ وهذا هو مصير المقاتلين فى سبيل الوطنية أو فى أى سبيل سوى إعلاء كلمة الله ، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام ، بل وفى جيش الرسول والصحابة .

وعلى عكس من هذا كان فى القتلى رجل من يهود بنى ثعلبة ، قال لقومه : يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبت لكم . فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فمالى لمحمد ، يصنع فيه ما شاء ، ثم غدا فقاتل حتى قتل ، فقال رسول الله ﷺ : مخيريق خير يهود [(٣)].

جمع الشهداء ودفنهم :

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء ، فقال : أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما

---

(١) نفس المصدر ٢ / ٩٤ ، وابن هشام ٢ / ٩٠ .

(٢) نفس المصدر الأول ٢ / ٩٧ ، ٩٨ ، وابن هشام ٢ / ٨٨ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٨٨ ، ٨٩ .

من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ، يدمى جرحه اللون لون الدم ، والريح ريح المسك [(١)].

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة ، فأمر أن يردوهم فيدفنوهم فى مضاجعهم ، وأن لا يغسلوا ، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود ، وكان يدفن الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد ، ويجمع بين الرجلين فى ثوب واحد ، ويقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه فى اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة . ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو ابن الجموح فى قبر واحد لما كان بينهما من المحبة .[(٢)]

وفقدوا نعش حنظلة ، فتفقدوه ، فوجدوه فى ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء ، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال : سلوا أهله ماشأنه ؟ فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر . ومن هنا سمى حنظلة : غسيل الملائكة .[(٣)]

ولما رأى ما بحمزة ـــ عمه وأخيه من الرضاعة ـــ اشتد حزنه ، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة ، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها ، لاترى ما بأخيها ، فقالت : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله . فأتته ، فنظرت إليه ، فصلت عليه ـــ دعت له ـــ واسترجعت واستغفرت له . ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش ـــ وكان ابن أخته ، وأخاه من الرضاعة .

قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله ﷺ باكيا قط أشد من بكائه على حمزة ابن عبد المطلب ، وضعه فى القبلة ، ثم وقف على جنازته ، وانتحب حتى نشع

---

(١) نفس المصدر ٢ / ٩٨ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٨ ، وصحيح البخارى ٢ / ٥٨٤ .

(٣) زاد المعاد ٢ / ٩٤ .

من البكاء[1] والنشع : الشهيق .

وكان منظر الشهداء مريعا جدا يفتت الأكباد . قال خباب : (إن) حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء ، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه ، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه ، وجعل على قدميه الإذخر[2].

وقال عبد الرحمن بن عوف : قتل مصعب بن عمير وهو خير منى ، وكفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا رأسه ، وروى مثل ذلك عن خباب ، وفيه « فقال لنا النبى ﷺ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر »[3] .

الرسول ﷺ يثنى على ربه عز وجل ويدعوه :

روى الإمام أحمد ، لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ : استووا حتى أثنى على ربى عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفا ، فقال :

اللهم لك الحمد كله ، اللهم لاقابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت . اللهم : ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إنى أسألك النعيم المقيم ، الذى لا يحول ولا يزول . اللهم : إنى أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا و شر مامنعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق

---

(۱) رواه ابن شاذان ، انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٥٥
(٢) رواه أحمد ، مشكاة المصابيح ١ / ١٤٠ .
(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩ ، ٥٨٤ .

والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق (١).

الرجوع إلى المدينة ، ونوادر الحب والتفانى :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعا إلى المدينة ، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفانى من المؤمنات الصادقات ، كما ظهرت من المؤمنين فى أثناء المعركة .

لقيته فى الطريق حمنة بنت جحش ، فنعى إليها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ، فقال رسول الله ﷺ : إن زوج المرأة منها لبمكان (٢).

ومر بامرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير إليها ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل — تريد صغيرة (٣).

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو ، وسعد آخذ بلجام فرسه ، فقال : يا رسول الله أمى ، فقال : مرحبا بها . ووقف لها . فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ . فقالت : أما إذ رأيتك سالما ، فقد اشتويت المصيبة (أى استقللتها) . ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال : يا أم سعد أبشرى وبشرى أهلهم أن قتلاهم ترافقوا فى

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والإمام أحمد فى مسنده ٣ / ٤٢٤ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٩٨ .
(٣) نفس المصدر ٢ / ٩٩ .

الجنة جميعا ، وقد شفعوا فى أهلهم جميعا . قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلفوا منهم ، فقال : اللهم اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، واحسن الخلف على من خلفوا (١).

الرسول ﷺ فى المدينة :

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم — يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ — إلى المدينة . فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة ، فقال : اغسلى عن هذا دمه يابنية ، فو الله لقد صدقنى اليوم . وناولها على بن أبى طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه ، فو الله لقد صدقنى اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة (٢).

قتلى الفريقين :

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين ، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار ، فقد قتل منهم خمسة وستون رجلا ، واحد وأربعون من الخزرج ، وأربع وعشرون من الأوس ، وقتل رجل من اليهود . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلا ، ولكن الإحصاء الدقيق — بعد تعميق النظر فى جميع تفاصيل المعركة التى ذكرها أهل المغازى والسير ، والتى تتضمن ذكر قتلى المشركين فى مختلف مراحل القتال — يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون ، لا اثنان وعشرون . والله أعلم (٣).

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٤٧ .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٠٠ .

(٣) انظر ابن هشام ٢ / ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ . فتح البارى ٧ / =

حالة الطوارىء فى المدينة :

بات المسلمون فى المدينة ـ ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع عن معركة أحد ـ وهم فى حالة الطوارىء ، باتوا ـ وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أى منال ـ يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها ، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة ، إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب .

غزوة حمراء الأسد :

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر فى الموقف ، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا فى أنهم لم يستفيدوا شيئا من النصر والغلبة التى كسبوها فى ساحة القتال ، فلابد من أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية ، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكى .

قال أهل المغازى ما حاصله : إن النبى ﷺ نادى فى الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو ـ وذلك صباح الغد من معركة أحد ، أى يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ ـ وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبى : أركب معك ؟ قال : لا ، واستجاب له المسلمون على مابهم من الجرح الشديد ، والخوف المزيد ، وقالوا : سمعا وطاعة ، واستأذنه جابر بن عبد الله ، وقال : يا رسول الله ، إنى أحب أن لا تشهد مشهدا إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته ، فأذن لى ، أسير معك ، فأذن له .

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، حتى بلغوا حمراء الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك .

=٣٥١ ، وغزوة أحد لمحمد أحمد باشميل ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

وهناك أقبل معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ﷺ فأسلم — ويقال : بل كان على شركه ، ولكنه كان ناصحا لرسول الله ﷺ ، لما كان بين خزاعة وبنى هاشم من الحلف ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ماأصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك — فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فيخذله .

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين فى العودة إلى المدينة إلا حقا ، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم .

ويبدو أن هذا الرأى جاء سطحيا ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديرا صحيحا ، ولذلك خالفهم زعيم مسئول « صفوان بن أمية » قائلا : يا قوم ، لا تفعلوا فإنى أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج — أى من المسلمين فى غزوة أحد — فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لاآمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم . إلا أن هذا الرأى رفض أمام رأى الأغلبية الساحقة ، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة ، ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبى معبد الخزاعى ، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه ، فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد — وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة — : محمد ، قد خرج فى أصحابه ، يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويحك ، ماتقول ؟

قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل — أو — حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة .

فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال : فلا تفعل ، فإني ناصح .

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكي ، وأخذه الفزع والرعب ، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة . بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامي ، لعله ينجح في كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة ، وطبعا فهو ينجح في الاجتناب عن لقائه ، فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة ، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيبا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة ؟

قالوا : نعم .

قال : فأبلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه ، وهم بحمراء الأسد ، فأخبرهم بالذي قاله أبو سفيان ، وقالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم — أي زاد المسلمين قولهم ذلك — إيمانا ﴿ وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . ﴾

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد بعد — مقدمه يوم الأحد — الإثنين والثلاثاء والأربعاء — ٩ / ١٠ / ١١ شوال سنة ٣ هـ — ثم رجع إلى المدينة . وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحي — وهو الذى كان قد من عليه من أسارى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته ، على أن لا يظاهر عليه أحدا ، ولكنه نكث وغدر ، فحرض الناس بشعره على النبى ﷺ والمسلمين كما أسلفنا ، وخرج لمقاتلتهم في أحد — فلما أخذه رسول الله ﷺ قال : يا محمد أقلني ، وامنن علي ، ودعني لبناتي ، وأعطيك عهدا أن لا أعود لمثل ما فعلت ، فقال ﷺ : لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعت محمدا مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

كما حكم بالإعدام في جاسوس من جواسيس مكة ، وهو معاوية بن

المغيرة بن أبى العاص ، جد عبد الملك بن مروان لأمه ، وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله ، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامى أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش ، فلما رجع الجيش خرج معاوية هاربا ، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر ، فتعقباه حتى قتلاه [1].

ومما لاشك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة ، إنما هى جزء من غزوة أحد وتتمة لها ، وصفحة من صفحاتها .

تلك هى غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها ، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة ، هل كانت هزيمة أم لا ؟ والذى لايشك فيه أن التفوق العسكرى فى الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين ، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال ، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت فى جانب المسلمين أكثر وأفدح ، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعا ، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكى ، لكن هناك أمورا تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح .

فمما لاشك فيه أن الجيش المكى لم يستطع احتلال معسكر المسلمين ، وأن المقدار الكبير من الجيش المدنى لم يلتجىء إلى الفرار ــ مع الارتباك الشديد والفوضى العامة ــ بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته ، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكى ، وأن أحدا من جيش المدينة لم يقع فى أسر الكفار ، وأن الكفار لم يحصلوا على شىء من غنائم المسلمين ، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل فى معسكره ، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوما أو يومين أو ثلاثة أيام ــ كما هو دأب

---

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد ، وحمراء الأسد من ابن هشام ٢ / ٦٠ إلى ١٢٩ ، وزاد المعاد ٢ / ٩٠ إلى ١٠٨ ، وفتح البارى ٧ / ٣٤٥ إلى ٣٧٧ مع صحيح البخارى ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى من ص ٢٤٢ إلى ٢٥٧ ، وقد أحلنا على المصادر الأخرى فى مواضعها .

الفاتحين فى ذلك الزمان ــ بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال ، قبل أن يتركها المسلمون ، ولم يجترئوا على الدخول فى المدينة لنهب الذرارى والأموال ، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب ، وكانت مفتوحة وخالية تماما .

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة ، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامى بعد عمل التطويق ــ وكثيرا ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التى نالها المسلمون ــ أما أن ذلك كان نصرا وفتحا فكلا وحاشا .

بل يؤكد لنا تعجيل أبى سفيان فى الانسحاب والانصراف ؛ أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال ، ويزداد ذلك تأكدا حين ننظر إلى موقف أبى سفيان من غزوة حمراء الأسد .

وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حربا غير منفصلة ، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة ، ثم حاد كل منهما عن القتال ، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو ، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ﴾ (٤ : ١٠٤) فقد شبه أحد العسكرين بالآخر فى التألم وإيقاع الألم ، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين ، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

ونزل القرآن يلقى ضوءا على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة ، ويدلى بتعليقات تصرح بالأسباب التى أدت إلى هذه الخسارة الفادحة ، وأبدى النواحى الضعيفة التى لم تزل موجودة فى طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم فى مثل هذه المواقف الحاسمة ، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التى

أنشئت للحصول عليها هذه الأمة ، التى تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس .

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين ، ففضحهم ، وأبدى ما كان فى باطنهم من العداوة لله ولرسوله ، مع إزالة الشبهات والوساوس التى كانت تختلج بقلوب ضعفاء المسلمين ، والتى كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود ـــ أصحاب الدس والمؤامرة ـــ وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التى تمخضت عنها هذه المعركة .

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدىء بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ (٣ : ١٢١) وتترك فى نهايتها تعليقا جامعا على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ (٣ : ١٧٩) .

الحكم والغايات المحمودة فى هذه الغزوة :

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطا تاما [(١)] . وقال ابن حجر : قال العلماء : وكان فى قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهى ، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذى أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه . ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة ، والحكمة فى ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل فى المؤمنين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من

(١) انظر زاد المعاد ٢ / ٩٩ إلى ١٠٨ .

غيره ، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتميز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة ، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحا ، وعرف المسلمون أن لهم عدوا فى دورهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . ومنها أن فى تأخير النصر فى بعض المواطن هضما للنفس ، وكسرا لشماختها ، فلما ابتلى المؤمنون صبروا ، وجزع المنافقون . ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها . ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم . ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه ، فقيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم فى أذى أوليائه ، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين [1].

(١) فتح البارى ٧ / ٣٤٧ .

السَّرَايَا وَالْبُعُوثُ بَيْنَ أُحُدٍ وَالْأَحْزَابِ

كان لمأساة أحد أثر سيء على سمعة المؤمنين ، فقد ذهبت ريحهم ، وزالت هيبتهم عن النفوس ، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين ، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب ، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر ، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين ، بل طمعت فى أن تقضى عليهم ، وتستأصل شأفتهم .

فلم يمض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة ، ثم قامت قبائل عضل وقارة فى شهر صفر سنة ٤ هـ بمكيدة ، سببت فى قتل عشرة من الصحابة ، وفى نفس الشهر قامت بنو عامر بمكيدة مثلها ، سببت فى قتل سبعين من الصحابة ، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بئر معونة ، ولم تزل بنو نضير خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت فى ربيع الأول سنة ٤ هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبى ﷺ ، وتجرأت بنو غطفان ، حتى همت بالغزو على المدينة فى جمادى الأولى سنة ٤ هـ .

فريح المسلمين التى كانت قد ذهبت فى معركة أحد تركت المسلمين — إلى حين — يهددون بالأخطار ، ولكن تلك هى حكمة محمد ﷺ التى صرفت وجوه التيارات وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة ، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد ، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هى حركة المطاردة التى قام بها إلى حمراء الأسد ، فقد حفظ بها مقدارا كبيرا من سمعة جيشه ، واستعاد بها من

هيبتهم ومكانتهم ماألقى اليهود والمنافقين فى الدهش والذهول ، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم ، بل زادت فيها ، وفى الصفحة الآتية شيء من تفاصيلها :

سرية أبى سلمة :

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة ، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما ، يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ .

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلا من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء ، وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم ، فتشتتوا فى الأمر ، وأصاب المسلمون إبلا وشاء لهم ، فاستاقوها ، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربا .

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤ هـ ، وعاد أبو سلمة وقد نغر عليه جرح كان قد أصابه فى أحد ، فلم يلبث حتى مات [١].

بعث عبد الله بن أنيس :

وفى اليوم الخامس من نفس الشهر ـــ المحرم سنة ٤ هـ ـــ نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلى يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبى ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه .

وظل عبد الله بن أنيس غائبا عن المدينة ثمانى عشرة ليلة ، ثم قدم يوم

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٠٨ .

السبت لسبع بقين من المحرم ، وقد قتل خالدا وجاء برأسه ، فوضعه بين يدى النبى ﷺ ، فأعطاه عصا ، وقال : هذه آية بينى وبينك يوم القيامة ، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه .(1)

بعث الرجيع :

وفى شهر صفر من نفس السنة — أى الرابعة من الهجرة — قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة ، وذكروا أن فيهم إسلاما . وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ، ويقرئهم القرآن ، فبعث معهم ستة نفر — فى قول ابن إسحاق وفى رواية البخارى أنهم كانوا عشرة — وأمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى — فى قول ابن إسحاق وعند البخارى أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب — فذهبوا معهم ، فلما كانوا بالرجيع — وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة — استصرخوا عليهم حيا من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فتبعوهم بقرب من مائة رام ، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم — وكانوا قد لجأوا إلى فدفد — وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا . فأما عاصم فأبى من النزول ، وقاتلهم فى أصحابه ، فقتل منهم سبعة بالنبل ، وبقى خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى ، فنزلوا إليهم ، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، وأبى أن يصحبهم ، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم ، فلم يفعل ، فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة ، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر ، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونا ، ثم أجمعوا على قتله ، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم ، فلما أجمعوا على صلبه قال : دعونى حتى أركع ركعتين ، فتركوه فصلاهما ، فلما سلم قال : والله لولا أن تقولوا : إن ما بى جزع لزدت ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا ، ثم قال :

---

(1) نفس المصدر ٢ / ١٠٩ ، وابن هشام ٢ / ٦١٩ ، ٦٢٠ .

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتي، بعد كربتي ... وما جمع الأحزاب لي عند مضجعي
فذا العرش صبرني على مايراد بي ... فقد بضعوا لحمي وقد يؤس مطمعي
وقد خيروني الكفر والموت دونه ... فقد ذرفت عيناى من غير مدمع
ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أى شق كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقال له أبو سفيان : أيسرك أن محمدا عندنا نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ فقال : لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمدا في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه .

ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته ، فجاء عمرو بن أمية الضمرى ، فاحتمله بخدعة ليلا ، فذهب به فدفنه ، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث وكان خبيب قد قتل أباه حارثا يوم بدر .

وفي الصحيح أن خبيبا أول من سن الركعتين عند القتل ، وأنه رئى وهو أسير يأكل قطفا من العنب ، وما بمكة تمرة .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه .

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه — وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر — فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر — الزنابير — فحمته من رسلهم ؛ فلم يقدروا منه على شيء . وكان عاصم أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركا ، وكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته [1].

(١) ابن هشام ٢ / ١٦٩ إلى ١٧٩ ، وزاد المعاد ٢ / ١٠٩ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥ .

مأساة بئر معونة :

وفى نفس الشهر الذى وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى ، وهى التى تعرف بوقعة بئر معونة .

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بملاعب الأسنة) قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يارسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك ؛ لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : إنى أخاف عليهم أهل نجد ، فقال أبو براء : أنا جار لهم ، فبعث معه أربعين رجلا — فى قول ابن إسحاق ، وفى الصحيح أنهم كانوا سبعين ، والذى فى الصحيح هو الصحيح — وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمعتق ليموت ، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم ، فساروا يحتطبون بالنهار ، يشترون به الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ، ويصلون بالليل ، حتى نزلوا بئر معونة — وهى أرض بين بنى عامر وحرة بنى سليم — فنزلوا هناك ، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه ، وأمر رجلا فطعنه بالحربة من خلفه ، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة .

ثم استنفر عدو الله لفوره بنى عامر إلى قتال الباقين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبى براء ، فاستنفر بنى سليم ، فأجابته عصية ورعل وذكوان ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، إلا كعب بن زيد بن النجار ، فإنه ارتث من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة بن عامر فى سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة ، فنزل المنذر ، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، وأسر عمرو بن أمية الضمرى ، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته ، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه .

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى ﷺ حاملا معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا فى غدرة شائنة .

ولما كان عمرو بن أمية فى الطريق بالقرقرة من صدر قناة ، نزل فى ظل شجرة وجاء رجلان من بنى كلاب فنزلا معه ، فلما ناما فتك بهما عمرو ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه ، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينهما وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين وحلفائهم اليهود[1] ، وهذا الذى صار سببا لغزوة بنى النضير كما سيذكر .

وقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة ، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة[2] تألما شديدا ، وتغلب عليه الحزن والقلق[3] ، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه ، ففى الصحيح عن أنس قال : دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحا ، يدعو فى صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية ، ويقول : عصية عصت الله ورسوله ، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه » فترك رسول الله ﷺ قنوته[4] .

غزوة بنى النضير :

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين ، إلا أنهم لم

---

(١) انظر ابن هشام ٢ / ١٨٣ إلى ١٨٨ ، وزاد المعاد ٢ / ١٠٩ ، ١١٠ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٨٤ ، ٥٨٦ .

(٢) ذكر الواقدى أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبى ﷺ فى ليلة واحدة .

(٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة « مختصر سيرة الرسول » للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٦٠ » .

(٤) البخارى ٢ / ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

يكونوا أصحاب حرب وضرب ، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة ، ويختارون أنواعا من الحيل ، لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال ، مع ماكان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق ، وأنهم بعد وقعة بني قينقاع ، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم ، فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت .

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا ، فكاشفوا بالعداوة والغدر ، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سراً ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين[1].

وصبر النبي ﷺ ، حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة ، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ .

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ــ وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة ــ فقالوا : نفعل يا أبا القاسم ، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك . فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظرون وفاءهم بما وعدوا ، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه .

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض ، وسوَّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم ، فتآمروا بقتله ﷺ ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحى ، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟ ... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش : أنا . فقال لهم سلام ابن مشكم :لا تفعلوا ، فو الله ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه ، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم .

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به ، فنهض مسرعا ، وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعر

---

(١) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ٣ / ١١٦ ، ١١٧ « عون المعبود شرح سنن أبي داود » .

بك ، فأخبرهم بما همت به يهود .

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بنى النضير يقول لهم : اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها ، وقد أجلتكم عشرا ، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه . ولم يجد يهود مناصا من الخروج ، فأقاموا أياما يتجهزون للرحيل ، بيد أن رئيس المنافقين ــ عبد الله بن أبى ــ بعث إليهم أن اثبتوا وتمنعوا ، ولا تخرجوا من دياركم ، فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون دونكم ﴿ لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

وهناك عادت لليهود ثقتهم ، واستقر رأيهم على المناوأة ، وطمع رئيسهم حيى بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين ، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول : إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

ولاشك أن الموقف كان حرجا بالنسبة إلى المسلمين ، فإن اشتباكهم بخصومهم فى هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب ، وقد رأيت كلب العرب عليهم ، وفتكهم الشنيع ببعوثهم ، ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال ، وتجعل فرض القتال معهم محفوفا بالمكاره ، إلا أن الحال التى جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التى أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفرادا ، وضاعفت نقمتهم على مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير ــ بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ ــ مهما تكن النتائج ..

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيى بن أخطب كبر وكبر أصحابه ، ثم نهض لمناجزة القوم ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم، وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء ، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار .

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم ، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة ، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونا لهم فى ذلك ، فأمر بقطعها وتحريقها ، وفى ذلك يقول

حسان :

وهان على سراة بنى لؤى   حريق بالبويرة مستطير

البويرة : اسم لنخل بنى النضير ، وفى ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ (٥٩ :٥) .

واعتزلتهم قريظة ، وخانهم عبد الله بن أبى وحلفاؤهم من غطفان ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرا ، أو يدفع عنهم شرا ، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم ، وجعل مثلهم : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك ﴾ (٥٩ : ١٦) .

ولم يطل الحصار — فقد دام ست ليال فقط ، وقيل : خمس عشرة ليلة — حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : نحن نخرج عن المدينة ، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم ، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح .

فنزلوا على ذلك ، وخربوا بيوتهم بأيديهم ، ليحملوا الأبواب والشبابيك ، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف ، ثم حملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على ستمائة بعير ، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق إلى خيبر ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام ، وأسلم منهم رجلان فقط يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بنى النضير ، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم ، فوجد من السلاح خمسين درعا ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفا .

وكانت أموال بنى النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ ، يضعها حيث يشاء ، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما ، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله .

كانت غزوة بنى النضير فى ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة ، أغسطس ٦٣٥ م

وأنزل الله فى هذا الغزوة سورة الحشر بأكملها ، فوصف طرد اليهود ، وفضح مسلك المنافقين ، وبين أحكام الفيء ، وأثنى على المهاجرين والأنصار ، وبين جواز القطع والحرق فى أرض العدو للمصالح الحربية ، وأن ذلك ليس من الفساد فى الأرض ، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة ، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته .

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر : قل : سورة النضير (١).

غزوة نجد :

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون ـــ فى غزوة بنى النضير ـــ دون تضحيات توطد سلطانهم فى المدينة ، وتخاذل المنافقون عن الجهرة بكيدهم ، وأمكن الرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها فى نفالة وكفران (٢)، وبلغت بهم الجرأة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة .

فقبل أن يقوم النبى ﷺ بتأديب أولئك الغادرين نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان ، فسارع النبى ﷺ إلى الخروج ، يجوس فياف نجد ، ويلقى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساة ؛ حتى لا يعاودوا مناكرهم التى ارتكبوها مع المسلمين .

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لايسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبال . وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل المغيرة

---

(١) ابن هشام ٢ / ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، زاد المعاد ٢ / ٧١ ، ١١٠ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

(٢) كلمة لمحمد الغزالى فى فقه السيرة ص ٢١٤ .

وخلطوا بمشاعرهم الرعب ، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين .

وقد ذكر أهل المغازى والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون فى أرض نجد فى شهر ربيع الثانى أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فلاشك فيه . وهذا الذى كانت تقتضيه ظروف المدينة ، فإن موسم غزوة بدر التى كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد كان قد اقترب ، وإخلاء المدينة ، مع ترك البدو والأعراب على تمردهم وغطرستهم ، والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب — لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعا ، بل كان لابد من خضد شوكتهم ، وكف شرهم قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة التى كانوا يتوقعون وقوعها فى رحاب بدر .

وأما أن تلك الغزوة التى قادها الرسول ﷺ فى ربيع أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ هى غزوة الرقاع فلا يصح ، فإن غزوة ذات الرقاع شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعرى رضى الله عنهما . وكان إسلام أبى هريرة قبل غزوة خيبر بأيام ، وكذلك أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه وافى النبى ﷺ بخيبر . وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبى ﷺ صلى فيها صلاة الخوف ، وكانت أول شرعية صلاة الخوف فى غزوة عسفان ، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق ، وكانت غزوة الخندق فى أواخر السنة الخامسة .

غزوة بدر الثانية :

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب ، وكفكفوا شرهم ، أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش — فى غزوة أحد — وحق لمحمد ﷺ وصحبه أن يخرجوا ؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى ، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء [١].

---

(١) كلمة محمد الغزالى فى فقه السيرة ٣١٥ .

ففي شعبان سنة ٤ هـ يناير سنة ٦٢٦ م ، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة وانتهى إلى بدر ، فأقام بها ينتظر المشركين .

وأما أبو سفيان ، فخرج في ألفين من مشركى مكة ، ومعهم خمسون فرسا ، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة ـــ ماء في تلك الناحية .

خرج أبو سفيان ، من مكة متثاقلا ، يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين ، وقد أخذه الرعب ، واستولت على مشاعره الهيبة ، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه ، فاحتال للرجوع ، وقال لأصحابه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا .

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضا ، فقد رجع الناس ولم يبدوا أى مصادمة لهذا الرأى وأى إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين .

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبتهم فى النفوس وسادوا على الموقف .

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد ، وبدر الثانية ، وبدر الآخرة وبدر الصغرى [١].

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢ / ٢٠٩ ، ٢١٠ ، زاد المعاد ٢ / ١١٢ .

غزوة دومة الجندل :

عاد رسول الله ﷺ من بدر ، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام ، واطمأنت دولته ، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف ، ويعترف بذلك الموالون والمعادون .

مكث بعد بدر الصغرى فى المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل ـــ قريبا من الشام ـــ تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وأنها قد حشدت جمعا كبيرا تريد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج فى ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥ هـ ، وأخذ رجلا من بنى عذرة دليلا للطريق يقال له مذكور .

خرج يسير الليل ويكمن النهار ؛ حتى يفاجىء أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب .

وأما أهل دومة الجندل ففروا فى كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدا ، وأقام رسول الله ﷺ أياما ، وبث السرايا وفرق الجيوش ، فلم يصب منهم أحدا ، ثم رجع إلى المدينة ، ووادع فى تلك الغزوة عيينة بن حصن . ودُومة بالضم ، موضع معروف بمشارف الشام ، بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة .

بهذه الإقدامات السريعة الحاسمة ، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبى ﷺ فى بسط الأمن ، وتنفيذ السلام فى المنطقة والسيطرة على الموقف ، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التى كانت قد توالت عليهم ، وأحاطتهم من كل جانب ، فقد سكت المنافقون واستكانوا ، وتم إجلاء قبيلة من اليهود ، وبقيت الأخرى

تظاهر بإيفاء حق الجوار وبإيفاء العهود والمواثيق ، واستكانت البدو والأعراب ، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين ، ووجد المسلمون فرصة لإفشاء الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين .

غزوة الأحزاب

عاد السلام والأمن ، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التى استغرقت أكثر من سنة كاملة ، إلا أن اليهود ـــ الذين كانوا قد ذاقوا ألوانا من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم ـــ لم يفيقوا من غيهم ، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر ، فبعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين نتيجة المناوشات التى كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين . ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتمخضت الليالى والأيام عن بسط نفوذهم ، وتوطد سلطانهم ، تحرق هؤلاء اليهود أى تحرق .

وشرعوا فى التآمر من جديد على المسلمين ، وأخذوا يعدون العدة ، لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها . ولما لم يكونوا يجدون فى أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة ، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة .

خرج عشرون رجلا من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ، ويوالونهم عليه ، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم ، فأجابتهم قريش ، وقريش قد أخلفت وعدها فى الخروج إلى بدر ، فرأت فى ذلك إنقاذ سمعتها والبر بكلمتها .

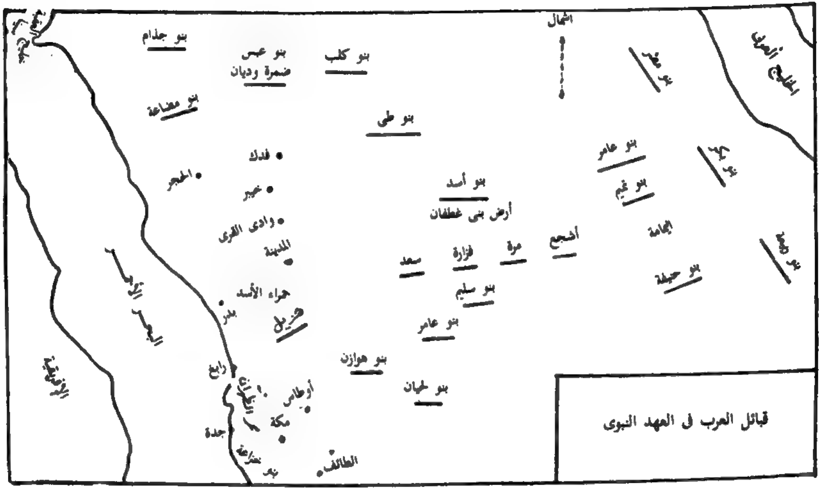

قبائل العرب فى العهد النبوى
الخليج العربى
بنو مضر
بنو بكر
بنو عامر
بنو تميم
اليمامة
بنو حنيفة
الشمال
بنو أسد
أرض بنى غطفان
أشجع
مرة
فزارة
سعد
بنو سليم
بنو عامر
بنو هوازن
بنو لحيان
بنو طى
بنو كلب
بنو عبس
ضمرة وديان
بنو جذام
بنو قضاعة
فدك
خيبر
الحجر
وادى القرى
المدينة
حمراء الأسد
هذيل
بدر
رابع
أوطاس
مكة
جدة
بنو خزاعة
الطائف
البحر الأحمر
إفريقية

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان ، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشا ، فاستجابوا لذلك ، ثم طاف الوفد فى قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك ، فاستجاب له من استجاب ، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى ﷺ ودعوته والمسلمين .

وفعلا خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة ــ وقائدهم أبو سفيان ــ فى أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران ، وخرجت من الشرق قبائل غطفان : بنو فزارة ، يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو مرة ، يقودهم الحارث بن عوف ، وبنو أشجع يقودهم مسعر بن رخيلة كما خرجت بنو أسد وغيرها .

واتجهت هذه الأحزاب ، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه .

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، جيش ربما يزيد عدده على جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ .

ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس ، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء ، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة ، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة ، تتجسس الظروف ، وتقدر ما يتمخض عن مجراها ، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير .

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشارى أعلى ، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة ، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى ، اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضى الله عنه . قال سلمان : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ــ

وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك ـــ .

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة ، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعا .

وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق ، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم فى عملهم هذا ، ففى البخارى عن سهل بن سعد ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى الخندق ، وهم يحفرون ، ونحن ننقل التراب على أكتادنا[(١)] ، فقال رسول الله ﷺ :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فاغفر للمهاجرين والأنصار[(٢)]

وعن أنس : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا[(٣)]

وفيه عن البراء بن عازب قال : رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا

---

(١) أكتادنا : بالمثناة جمع كَتِد وهو ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٢) صحيح البخارى باب غزوة الخندق ٢ / ٥٨٨ .   (٣) نفس المصدر .

قال : ثم يمد بها صوته بآخرها ، وفي رواية :

إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا (1)

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ، ما يفتت الأكباد قال أنس : (كان أهل الخندق) يؤتون بملء كفي من الشعير ، فيصنع لهم بإهالة سنخة (2) توضع بين يدى القوم ، والقوم جياع ، وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن .

وقال أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين (3) .

وبهذه المناسبة وقع في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة ، رأى جابر ابن عبد الله في النبي ﷺ خمصا شديدا ، فذبح بهيمة وطحنت امرأته صاعا من شعير ثم التمس من رسول الله ﷺ سرا أن يأتي في نفر من أصحابه ، فقام النبي ﷺ بجميع أهل الخندق ، وهم ألف فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا ، وبقيت برمة اللحم تغط به كما هي ، وبقي العجين يخبز كما هو (4). وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدى أبوه وخاله ، فمرت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وبدده فوق ثوب ، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه . وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه يسقط من أطراف الثوب (5).

وأعظم من هذين ما رواه البخاري عن جابر قال : إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في

---

(1) نفس المصدر ٢ / ٥٨٩ .

(2) نفس المصدر ٢ / ٥٨٨ . والإهالة : الدهن الذي يؤتدم به سواء كان زيتا أو سمنا أو شحما سنخة : أي تغير طعمها ولونها من قدمها .

(3) رواه الترمذي مشكاة المصابيح ٢ / ٤٤٨ .

(4) روى ذلك البخاري ٢ / ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(5) ابن هشام ٢ / ٢١٨ .

الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر — ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقا — فأخذ النبي ﷺ المعول ، فضرب فعاد كثيبا أهيل أو أهيم[1] ، أى صار رملا لا يتماسك .

وقال البراء : لما كان يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المعول فقال : بسم الله ثم ضرب ضربة ، وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأنظر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى[2].

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسى رضى الله عنه[3].

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال ، وكان النبي ﷺ يعلم كخبير عسكرى حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير ، ومهاجمة المدينة — لا يمكن إلا من جهة الشمال ، اتخذ الخندق فى هذا الجانب .

وواصل المسلمون عملهم فى حفره ، فكانوا يحفرونه طول النهار ، ويرجعون إلى أهليهم فى المساء ، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة ، قبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة[4].

وأقبلت قريش فى أربعة آلاف ، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٨ .

(٢) سنن النسائى ٢ / ٥٦ ، وأحمد فى مسنده واللفظ ليس للنسائى ، وفيه عن رجل من الصحابة .

(٣) ابن هشام ٢ / ٢١٩ .

(٤) نفس المصدر ٣ / ٣٣٠ ، ٣٣١ .

بين الجرف وزعابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد فى ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد .

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ . (٣٣ : ٢٢) .

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ (٣٣ : ١٢) .

وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به ، والخندق بينهم وبين الكفار . وكان شعارهم « حم لاينصرون » ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالنساء والذرارى فجعلوا فى آطام المدينة .

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة ، وجدوا خندقا عريضا يحول بينهم وبينها ، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين ، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم ، إذ كانت هذه الخطة ـــ كما قالوا ـــ مكيدة ما عرفتها العرب ، فلم يكونوا أدخلوها فى حسابهم رأسا .

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابا ، يتحسسون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها ، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين ، يرشقونهم بالنبل ، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتحموه ، أو يهيلوا عليه التراب ، ليبنوا به طريقا يمكنهم من العبور .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى فى ترقب نتائج الحصار ، فإن ذلك لم يكن من شيمهم ، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فتيمموا مكانا ضيقا من الخندق فاقتحموه ، وجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق

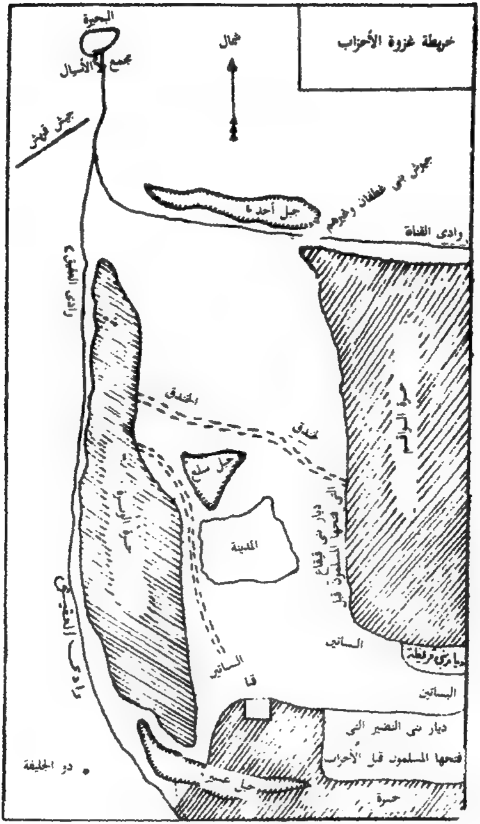

خريطة غزوة الأحزاب
البحيرة
مجمع الأسيال
شمال
جيش قريش
جيوش بني غطفان وغيرهم
جبل أحد
وادي القناة
وادي العقيق
الخندق
جبل سلع
المدينة
البساتين
ديار بني قريظة
البساتين
قبا
ديار بني النضير التي فتحها المسلمون قبل الأحزاب
ذو الحليفة
جبل عير
حرة

وسلع ، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ، ودعا عمرو إلى المبارزة ، فانتدب له على بن أبى طالب ، وقال كلمة حمى لأجلها ــ وكان من شجعان المشركين وأبطالهم ــ فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علىٍّ ، فتجاولا وتصاولا ، حتى قتله على رضى الله عنه ، وانهزم الباقون حتى اقتحموا من الخندق هاربين ، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو .

وقد حاول المشركون فى بعض الأيام محاولة بليغة ، لاقتحام الخندق ، أو لبناء الطرق فيها ، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون فى محاولتهم .

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين ، ففى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق ، فجعل يسب كفار قريش . فقال : يارسول الله ماكدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبى ﷺ : والله ما صليتها ، فنزلنا مع النبى ﷺ بطحان ، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب [(١)].

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين ، ففى البخارى عن على عن النبى ﷺ أنه قال يوم الخندق : ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس[(٢)] .

وفى مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فصلاهن جميعا . قال النووى : وطريق الجمع بين هذه

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٩٠ .

(٢) نفس المصدر .

الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياما فكان هذا فى بعض الأيام ، وهذا فى بعضها . انتهى [1].

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين ، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياما ، إلا أن الخندق لما كان حائلا بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر وحرب دامية ، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة .

وفى هذه المراماة قتل رجال من الجيشين ، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين ، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف .

وفى هذه المراماة رُمى سعد بن معاذ رضى الله عنه بسهم فقطع منه الأكحل ، رماه رجل من قريش يقال له حبان العرقة ، فدعا سعد : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلىَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقى من حرب قريش شيء فأبقنى لهم ؛ حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتى فيها [2]. وقال فى آخر دعائه : ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة [3].

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعى الدس والتآمر تتقلب فى جحورها ، تريد إيصال السم داخل أجسادهم . انطلق كبير مجرمى بنى النضير إلى ديار بنى قريظة ، فأتى كعب بن أسد القرظى ـــ سيد بنى قريظة ، وصاحب عقدهم وعهدهم ، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم ـــ فضرب عليه حيى الباب ، فأغلقه كعب دونه ، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ، فقال حيى : إنى قد

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٨٧ ، وشرح مسلم للنووى ١ / ٢٢٧ .
(٢) صحيح البخارى ٣ / ٥٩١ .
(٣) ابن هشام ٣ / ٢٣٧ .

جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه .

فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شىء ، ويحك يا حيى ! فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء .

فلم يزل حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب ، حتى سمح له على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك ، حتى يصيبنى ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين ، ودخل مع المشركين فى المحاربة ضد المسلمين [1].

وفعلا قد قامت يهود بنى قريظة بعمليات الحرب . قال ابن إسحاق : كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى غور عدوهم ، لا يستطيعونَ أن ينصرفوا عنهم إن أتانـا آت ، قالت : فقـلت يا حسان ، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . قال : والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قالت : فاحتجزت [2] ثم أخذت عمودا ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، ثم رجعت إلى الحصن ، وقلت : يا حسان انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) احتجزت : شدت وسطها .

سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لي بسلبه من حاجة (١).

وقد كان لهذا الدعل المجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق فى حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم ، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون فى منعة من الجيش الإسلامى — مع أنها كانت خالية عنهم تماما — فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل ، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليل عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين ، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملا .

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه ، حتى يستجلى موقف قريظة ، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية ، وبعث لتحقيق الخبر السعدين : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات بن جبير ، وقال : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس . فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون ، فقد جاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد . فانصرفوا عنهم ، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له ، وقالوا : عضل وقارة ، أى أنهم على غدر ، كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع .

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفطن الناس لجلية الأمر ، فتجسد أمامهم خطر رهيب .

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون ، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شىء يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢٨.يحمل هذا الحديث على أن حسانا كان جبانا ، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره ، وذلك أن الحديث منقطع الإسناد، ولو صح لهجى به حسان ، وإن صح الحديث فربما كان حسان معتلا فى ذلك اليوم ، وهذا أولى ما تؤول .

الغادرين في غير منعة وحفظ ، وصاروا كما يقول الله تعالى : ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ (٣٣ : ١٠ ، ١١) ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه : إن بيوتنا عورة من العدو ، فأذن لنا أن نخرج ، فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج المدينة ، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون : إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارا ﴾ . (٣٣ : ١٢ ، ١٣) .

أما رسول الله ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة ، فاضطجع ومكث طويلا ، حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم غلبته روح الأمل ، فنهض يقول : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره ، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن ، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة ؛ لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرة ، ولكن كان لابد من إقدام حاسم ، يفضي إلى تخاذل الأحزاب ، وتحقيقا لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ؛ حتى ينصرفا بقومهما ، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مرارا ، وجرت المراوضة على ذلك ، فاستشار السعدين في ذلك ، فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة ، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ، فصوّب رأيهما وقال : إنما هو شيء أصنعه لكم ، لما رأيت

العرب قد رمتكم عن قوس واحدة .

ثم إن الله عز وجل ـــ وله الحمد ـــ صنع أمرا من عنده خذل به العدو ، وهزم جموعهم ، وفل حدهم ، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلا من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي ـــ رضى الله عنه ـــ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرني ما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة ، فذهب من فوره إلى بني قريظة ـــ وكان عشيرا لهم في الجاهلية ـــ فدخل عليهم وقال : قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت . قال : فإن قريشا ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم ، قالوا فما العمل يا نعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش ، وقال لهم : تعلمون ودى لكم . ونصحى لكم ؟ قالوا : نعم ، قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان ، فقال لهم مثل ذلك .

فلما كان ليلة السبت من شوال ـــ سنة ٥ هـ ـــ بعثوا إلى يهود : أنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا ، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن . فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان : صدقكم والله نعيم ، فبعثوا إلى يهود : إنا

والله لا نرسل إليكم أحدا ، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا . فقالت قريظة : صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان ، ودبت الفرقة بين صفوفهم ، وخارت عزائمهم .

وكان المسلمون يدعون الله تعالى : « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب ، فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »(1).

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين ، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين ، وسرى بينهم التخاذل ، أرسل الله عليهم جندا من الريح ، فجعلت تقوض خيامهم ، ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها ، ولا طنبا إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار ، وأرسل جندا من الملائكة يزلزلونهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف .

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيرا ، وكفاه الله قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فرجع إلى المدينة .

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين ، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهرا أو نحو شهر ، ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال ، ونهايته في ذى القعدة ، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة .

---

(1) صحيح البخارى كتاب الجهاد ١ / ٤١١ ، وكتاب المغازى ٢ / ٥٩٠ .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر ؛ بل كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مرير ، إلا أنها كانت من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام ، تمخضت عن تخاذل المشركين ، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التى تنمو فى المدينة ، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتى بجمع أقوى مما أتت به فى الأحزاب ، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »(1).

(1) صحيح البخارى ٢ / ٥٩٠ .

غزوة بني قريظة

وفي اليوم الذى رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر ، وهو يغتسل فى بيت أم سلمة ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، فانهض بمن معك إلى بنى قريظة ، فإنى سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم ، وأقذف فى قلوبهم الرعب ، فسار جبريل فى موكبه من الملائكة .

فأمر رسول الله ﷺ مؤذنا فأذن في الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية على بن أبى طالب ، وقدّمه إلى بنى قريظة فسار على حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ .

وخرج رسول الله ﷺ فى موكبه من المهاجرين والأنصار ، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها بئر أنا ، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ، ونهضوا من فورهم ، وتحركوا نحو قريظة ، وأدركتهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصليها إلا فى بنى قريظة كما أمرنا ، حتى أن رجالا منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة ، وقال بعضهم : لم يرد منا ذلك ، وإنما أراد سرعة الخروج ، فصلوها فى الطريق ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين .

هكذا تحرك الجيش الإسلامى نحو بني قريظة أرسالا ، حتى تلاحقوا

بالنبى ﷺ ، وهم ثلاثة آلاف ، والخيل ثلاثون فرسا ، فنازلوا حصون بنى قريظة ، وفرضوا عليهم الحصار .

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال : إما أن يسلموا ، ويدخلوا مع محمد ﷺ فى دينه ، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم — وقد قال لهم : والله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم — وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم ، ويخرجوا إلى النبى ﷺ بالسيوف مصلتين ، يناجزونه حتى يظفروا بهم ، أو يقتلوا عن آخرهم ، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويكبسوهم يوم السبت ؛ لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه ، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث ، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد (فى انزعاج وغضب) : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين ، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره ، وكان حليفا لهم ، وكانت أمواله وولده فى منطقتهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرق لهم ، وقالوا : يا أبا لبابه أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ! وأشار بيده إلى حلقه ، يقول إنه الذبح ، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ ، حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة ، فربط نفسه بسارية المسجد ، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده ، وأنه لايدخل أرض بنى قريظة أبدا . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره — وكان قد استبطأه — قال : أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له ، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله إليه .

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ ،

ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل ؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون ، ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم فى العراء ، مع شدة التعب الذى اعتراهم ؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب ، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب ، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وأخذت معنوياتهم تنهار ، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وصاح على : ياكتيبة الإيمان ، والله لأذوقن ماذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم .

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال ، فوضعت القيود فى أيديهم تحت إشراف محمد بن سلمة الأنصارى ، وجعلت النساء والذرارى بمعزل عن الرجال فى ناحية ، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله ، قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد علمت ، وهم حلفاء إخواننا الخزرج ، وهؤلاء موالينا ، فأحسن فيهم ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال : فذاك إلى سعد بن معاذ . قالوا : قد رضينا .

فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وكان فى المدينة ، لم يخرج معهم ؛ للجرح الذى كان أصاب أكحله فى معركة الأحزاب ، فأركب حمارا ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فجعلوا يقولون وهم كنفيه : ياسعد ، أجمل فى مواليك فأحسن فيهم ، فإن رسول الله ﷺ قد حكمك لتحسن فيهم ، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئا ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لاتأخذه فى الله لومة لائم ، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم .

ولما انتهى سعد إلى النبى ﷺ قال للصحابة : قوموا إلى سيدكم . فلما أنزلوه قالوا : ياسعد ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك . قال : وحكمى نافذ عليهم ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى المسلمين ؟ قالوا نعم . قال : وعلى من ههنا ؟ — وأعرض بوجهه ، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالا له وتعظيما — قال : نعم وعلىَّ . قال : فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ،

وتقسم الأموال ، فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات .

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف ، فإن بنى قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع ــ كانو قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفا وخمسمائة سيف ، وألفين من الرماح ، وثلاثمائة درع ، وخمسمائة ترس وجحفة ، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم .

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بنى قريظة فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجّار ، وحفرت لهم خنادق فى سوق المدينة ، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالا أرسالا ، وتضرب فى تلك الخنادق أعناقهم . فقال من كان بعد فى الحبس لرئيسهم كعب بن أسد : ماتراه يصنع بنا ؟ فقال : أفى كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعى لا ينزع ؟ والذاهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل . وكانوا مابين الستمائة إلى السبعمائة ، فضربت أعناقهم .

وهكذا تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة ، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد ، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين فى أحرج ساعة كانوا يمرون بها فى حياتهم ــ وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمى الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام ــ

وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير ، وأحد أكابر مجرمى معركة الأحزاب حيى بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضى الله عنها ، كان قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب ، فلما أتى به ــ وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يسلبها ــ مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، قال لرسول الله ﷺ : أما والله مالمت نفسى فى معاداتك ، ولكن من يغالب الله يغلب . ثم قال : أيها الناس ، لابأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه .

وقتل من نسائهم امرأة واحدة ، كانت قد طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته ، فقتلت لأجل ذلك .

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنبت ، وترك من لم ينبت ، فكان ممن لم ينبت عطية القرظى ، فترك حيا ، فأسلم ، وله صحبة .

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله ـــ وكانت للزبير يد عند ثابت — فوهبهم له ، فقال له ثابت بن قيس : قد وهبك رسول الله ﷺ إلىّ ، ووهب لى مالك وأهلك فهم لك . فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه : سألتك بيدى عندك ياثابت إلا ألحقتنى بالأحبة ، فضرب عنقه ، وألحقه بالأحبة من اليهود ، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير ، فأسلم ، وله صحبة . واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظى ، فوهبه لها ، فاستحيته ، فأسلم ، وله صحبة .

وأسلم منهم تلك الليلة نفر من قبل النزول ، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم . وخرج تلك الليلة عمرو ـــ وكان رجلا لم يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ ـــ فرآه محمد بن سلمة قائد الحرس النبوى ، فخلى سبيله حين عرفه ، فلم يعلم أين ذهب .

وقسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس ، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، سهمان للفرس وسهم للفارس ، وأسهم للراجل سهما واحداً ،وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصارى . فابتاع بها خيلا وسلاحاً .

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة ، فكانت عنده حتى توفى عنها وهى فى ملكه ، هذا ماقاله ابن إسحاق (١) وقال الكلبى : إنه ﷺ أعتقها ، وتزوجها سنة ٦ هـ ، وماتت مرجعه من حجة الوداع

---

(١) انظر ابن هشام ٢ / ٢٤٥ .

فدفنها بالبقيع [1] .

ولما أتم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضى الله عنه ــ التى قدمنا ذكرها فى غزوة الأحزاب ــ وكان النبى ﷺ قد ضرب له خيمة فى المسجد ليعوده من قريب ، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته . قالت عائشة : فانفجرت من لبته فلم يرعهم ــ وفى المسجد خيمة من بنى غفار ــ إلا والدم يسيل إليهم ، فقالوا : ياأهل الخيمة ، ماهذا يأتينا من قبلكم ، فإذا سعد يغذوا جرحه دما ، فمات منها [2].

وفى الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ [3]. وصحح الترمذى من حديث أنس : قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ماأخف جنازته ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله » [4] .

قتل فى حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين ، وهو خلاد بن سويد ، الذى طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة ، ومات فى الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة .

أما أبو لبابة ، فأقام مرتبطا بالجذع ست ليال ، تأتيه امرأته فى وقت كل صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سَحَرا ، وهو فى بيت أم سلمة ، فقامت على باب حجرتها ، وقالت لى : ياأبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس يطلقوه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فلما مر النبى ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

---

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٢ .
(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٩١ .
(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٣٦ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٩٤ ، وجامع الترمذى ٢ / ٢٢٥ .
(٤) جامع الترمذى ٢ / ٢٢٥ .

وقعت هذه الغزوة فى ذى القعدة سنة ٥ هـ ، ودام الحصار خمسا وعشرين ليلة.[1]

وأنزل الله تعالى فى غزوة الأحزاب وبنى قريظة آيات من سورة الأحزاب ، علق فيها على أهم جزئيات الوقعة بين حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تخذيل الأحزاب ، ونتائج الغدر من أهل الكتاب .

(١) ابن هشام ٢ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢ / ٢٣٣ إلى ٢٧٣ وصحيح البخارى ٢ / ٥٩٠ ، ٥٩١ ، زاد المعاد ٢ / ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة
مقتل سلام بن أبي الحقيق

كان سلام بن أبى الحقيق — وكنيته أبو رافع — من أكابر مجرمى اليهود ، الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة [1] ، وكان يؤذى رسول الله ﷺ ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتله ، وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدى رجال من الأوس ، فرغبت الخزرج فى إحراز فضيلة مثل فضيلتهم ؛ فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان .

وأذن رسول الله ﷺ فى قتله ، ونهى عن قتل النساء والصبيان ، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال ، كلهم من بنى سلمة من الخزرج ، قائدهم عبد الله بن عتيك .

خرجت هذه المفرزة ، واتجهت نحو خيبر ، إذ كان هناك حصن أبى رافع ، فلما دنوا منه — وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم — قال عبد الله ابن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فإنى منطلق ومتلطف للبواب ، لعلى أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته ، وقد دخل

---

(١) انظر فتح البارى ٧ / ٣٤٣ .

الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإني أريد أن أغلق الباب .

قال عبد الله بن عتيك : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على ود[1] قال : فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان فى علالى له ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه ، فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل . قلت : إن القوم لو نذروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله ، فانتهيت إليه ، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت . قلت : أبا رافع ، قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش ، فما أغنيت شيئا ، وصاح ، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ، ثم دخلت إليه ، فقلت : وما هذا الصوت ياأبا رافع ؟ فقال : لأمك الويل ، إن رجلا فى البيت ضربنى قبلُ بالسيف ، قال : فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله . ثم وضعت ضبيب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره ، فعرفت أنى قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا ، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فى ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقى ، فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب . فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته ؟ فلما صاح الديك صاح الناعى على السور فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابى فقلت : النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع . فانتهيت إلى النبى ﷺ ، فحدثته فقال : ابسط رجلك ، فبسطت رجلى فمسحها فكأنما لم أشتكها [2]

هذه رواية البخارى ، وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبى رافع ، واشتركوا فى قتله ، وأن الذى تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس ، وفيه أنهم لما قتلوه ليلا ، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه ، وأتوا منهرا من عيونهم ، فدخلوا فيه ، وأوقد اليهود النيران ، واشتدوا فى كل وجه ، حتى إذا يئسوا

---

(١) أى المفاتيح على وتد .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٧ .

رجعوا إلى صاحبهم ، وإنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله ﷺ [1]

كان مبعث هذه السرية فى ذى القعدة أو ذى الحجة سنة ٥هـ [2].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة ، واقتص من مجرمى الحروب أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب ، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة .

سرية محمد بن مسلمة :

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة ، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكبا .

تحركت هذه السرية إلى القرطاء ، بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد ، وبين ضرية والمدينة سبع ليال ، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦هـ إلى بطن بنى بكر بن كلاب ، فلما أغارت عليهم هرب سائرهم ، فاستاق المسلمون نعما وشاء ، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثمامة بن أثال الحنفى سيد بنى حنيفة ، كان قد خرج متنكرا لاغتيال النبى ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب [3] ، فأخذه المسلمون ، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه النبى ﷺ فقال : ماعندك ياثمامة ؟ فقال : عندى خير يامحمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت ، فتركه ، ثم مرّ به مرة أخرى ، فقال له مثل ذلك ، فرد عليه كما رد عليه أولا ، ثم مر مرة ثالثة فقال : بعد مادار بينهما الكلام

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٣ مع مايؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة فى غزوة الأحزاب وقريظة .

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٢٩٧ .

السابق ــ أطلقوا ثمامة ، فأطلقوه ، فذهب إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ ، ووالله ما كان على وجه الأرض دين أبغض علىّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلىّ ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم على قريش قالوا : صبأت ياثمامة ، قال : لا والله ، ولكنى أسلمت مع محمد ﷺ ، ولا والله لايأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ . وكانت يمامة ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ، ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى إليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ [1] .

غزوة بنى لحيان :

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع ، وتسببوا فى إعدامهم ، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة فى الحجاز إلى حدود مكة ، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب ، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل فى البلاد بمقربة من العدو الأكبر ، فلما تخاذلت الأحزاب ، واستوهنت عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فخرج إليهم فى ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦هـ فى مائتين من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران ــ واد بين أمج وعسفان ، حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ــ وسمعت به بنو لحيان ، فهربوا فى رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يومين بأرضهم ، وبعث السرايا ، فلم يقدروا عليهم ، فسار إلى عسفان ، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش ، ثم رجع إلى

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١١٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

المدينة ، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة .

متابعة البعوث والسرايا :

ثم تابع رسول الله ﷺ فى إرسال البعوث والسرايا . وهاك صورة مصغرة منها :

١ ـــ سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر ، فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ . خرج عكاشة فى أربعين رجلا إلى الغمر ، ماء لبنى أسد ، ففر القوم ، وأصاب المسلمون مائتى بعير ساقوها إلى المدينة .

٢ ـــ سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصة ، فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ . خرج ابن مسلمة فى عشرة رجال إلى القصة فى ديار بنى ثعلبة ، فكمن القوم لهم ـــ وهم مائة ـــ فلما ناموا قتلوهم ، إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحا .

٣ ـــ سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة ، فى ربيع الآخر سنة ٦ هـ . وقد بعثه النبى ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة ، فخرج ومعه أربعون رجلا إلى مصارعهم ، فساروا ليلتهم مشاة ، ووافوا بنى ثعلبة مع الصبح ، فأغاروا عليهم ، فأعجزوهم هربا فى الجبال ، وأصابوا رجلا واحدا فأسلم ، وغنموا نعما وشاء .

٤ ـــ سرية زيد بن حارثة إلى الجموم ، فى ربيع الآخر سنة ٦ هـ . والجموم ماء لبنى سليم فى مر الظهران ، خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة ، فدلتهم على محلة من بنى سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسرى ، فلما قفل بما أصاب ، وهب رسول الله ﷺ للمزينية نفسها وزوجها .

٥ ـــ سرية زيد أيضا إلى العيص ، فى جمادى الأولى سنة ٦ هـ ، فى سبعين ومائة راكب ، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ ، وأفلت أبو العاص ، فأتى زينب فاستجار بها ، وسألها أن تطلب من

رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ، ففعلت ، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم ، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير ، حتى رجع أبو العاص إلى مكة ، وأدى الودائع إلى أهلها ، ثم أسلم وهاجر ، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف . كما ثبت فى الحديث الصحيح[1] ردها بالنكاح الأول ؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك ، وأما ماورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى ، كما أنه ليس بصحيح سنداً [2]. والعجب ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف ، فإنهم يقولون : إن أبا العاص أسلم فى أواخر سنة ثمان قبيل الفتح ، ثم يناقضون أنفسهم ، فيقولون : إن زينب ماتت فى أوائل سنة ثمان . وقد بسطنا الدلائل فى تعليقنا على بلوغ المرام ، وجنح موسى بن عقبة أن هذا الحادث وقع فى سنة ٧ من قبل أبى بصير وأصحابه ، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف .

٦ ـــ سرية زيد أيضا إلى الطرف أو الطرق ، فى جمادى الآخرة سنة ٦هـ . خرج زيد فى خمسة عشر رجلا إلى بنى ثعلبة ، فهربت الأعراب ، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم ، فأصاب من نعمهم عشرين بعيرا ، وغاب أربع ليال .

٧ ـــ سرية زيد أيضا إلى وادى القرى ، فى رجب سنة ٦ هـ . خرج زيد فى اثنى عشر رجلا إلى وادى القرى ؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك ، فهجم عليهم سكان وادى القرى ، فقتلوا تسعة ، وأفلت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة [3].

٨ ـــ سرية الخبط ـــ تذكر هذه السرية فى رجب سنة ٨هـ ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية ، قال جابر : بعثنا النبى ﷺ فى ثلاثمائة راكب

---

(١) انظر سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها .

(٢) انظر الكلام على الحديثين فى تحفة الأحوذى ٢ / ١٩٥ / ١٩٦ .

(٣) رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٦ ، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، وحواشى تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٨ ، ٢٩ .

أميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، نرصد عيرا لقريش ، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط ، فسمي جيش الخبط ، فنحر رجل ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه ، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها : العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر ، وأدهنا منه ، حتى ثابت منه أجسامنا ، وصلحت ، وأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه ، فنظر إلى أطول رجل فى الجيش وأطول جمل ، فحمل عليه ، ومر تحته ، وتزودنا من لحمه وشائق ، فلما قدمنا المدينة ، أتينا رسول الله ﷺ ، فذكرنا له ذلك ، فقال : هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا ، فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه .[1]

وإنما قلنا : إن سياق هذه السرية يدل على أنه كانت قبل الحديبية ؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية .

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، صحيح مسلم ٢ / ١٤٥ ، ١٤٦ .

غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع

(فى شعبان سنة ٦ هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل ، عريضة الأطراف ، من حيث الوجهة العسكرية ؛ إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب فى المجتمع الإسلامى ، وتمخضت عن افتضاح المنافقين ، والتشريعات التعزيرية التى أعطت المجتمع الإسلامى صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس . ونسرد الغزوة أولا ، ثم نذكر تلك الوقائع .

كانت هذه الغزوة فى شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال [1]. وسببها . أنه بلغه ﷺ أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ، فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمى ؛ لتحقيق الخبر ، فأتاهم ، ولقى الحارث بن أبى ضرار

---

(١) والدليل على ذلك ماثبت فى حديث الإفك من أن القضية كانت بعد ما أنزل الحجاب ، وآية الحجاب نزلت فى شأن زينب ، وزينب إذ ذاك كانت تحته ، فإنه ﷺ سألها عن عائشة فقالت : أحمى سمعى وبصرى . قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ ، وأما ما وقع فى حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة تنازعا فى أصحاب الإفك ، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بنى قريظة ، فالظاهر أن هذا وهم الراوى ، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ بل ذكر أسيد بن حضير ، قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذى لاشك فيه ، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر زاد المعاد ٢ / ١١٥) والعجب من محمد الغزالى أنه نسب إلى ابن القيم أنه يعتبر هذه الغزوة من حوادث السنة الخامسة (فقه السيرة ص ٢٢٣) مع أن كلامه فى الهدى (٢ / ١١٥) يأبى عن ذلك .

وكلمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر .

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة ، وأسرع في الخروج ، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان ، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها ، واستعمل على المدينه زيد بن حارثة ، وقيل أبا ذر ، وقيل نميلة بن عبد الله الليثي ، وكان الحارث بن ضرار قد وجه عينا ؛ ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي ، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه .

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه ، خافوا خوفا شديدا ، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع ــ بالضم فالفتح مصغرا ، اسم لماء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل ــ فتهيؤوا للقتال ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق ، وراية الأنصار مع سعــد بن عبادة ، فتراموا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد ، فكانت النصرة . وانهزم المشركون ، وقتل من قتل ، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعم والشاء ، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتله رجل من الأنصار ظنا منه أنه من العدو .

كذا قال أهل المغازي والسير ، قال ابن القيم : وهو وَهْم ، فإنه لم يكن بينهم قتال ، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم كما في الصحيح : أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون ، وذكر الحديث[1] انتهى .

وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم ، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ[2].

---

(١) وانظر صحيح البخاري كتاب العتق ١ / ٣٤٥ ، وانظر أيضا فتح الباري ٧ / ٣٤١ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ١١٢ ، ١١٣ ، ابن هشام ٢ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

وأما الوقائع التي حدثت في هذه الغزوة ؛ فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبي وأصحابه ؛ نرى أن نورد أولا شيئاً من أفعالهم في المجتمع الإسلامي .

دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق :

قدمنا مرارا أن عبد الله بن أبي كان يحنق على الإسلام والمسلمين ، ولاسيما على رسول الله ﷺ حنقا شديدا . لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته ، وكانوا ينظمون له الخرز ؛ ليتوجوه إذ دخل فيهم الإسلام ، فصرفهم عن ابن أبي ، فكان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي استلبه ملكه .

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام ، وبعد أن تظاهر به . ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ؛ ليعود سعد بن عبادة ، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ، فخمر ابن أبي أنفه وقال : لا تغبروا علينا . ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن ، قال : اجلس في بيتك ، ولا تغشنا في مجلسنا [1].

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام ، ولما تظاهر به بعد بدر ، لم يزل إلا عدوا لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يكن يفكر إلا في تشتيت المجتمع الإسلامي ، وتوهين كلمة الإسلام ، وكان يوالي أعداءه ، وقد تدخل في أمر بني قينقاع كما ذكرنا ، وكذلك جاء في غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين ، وإثارة الارتباك والفوضى في صفوفهم بما مضى .

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين ، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام ، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة ، فيقول : هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه ، وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب ، وكان من

---

(١) ابن هشام ١ / ٥٨٤ ، ٥٨٧ . صحيح البخاري ٢ / ٩٢٤ ، وصحيح مسلم ٢ / ٩ .

وقاحة هذا المنافق أنه قام في يوم الجمعة التي بعد أحد ـــ مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع ـــ قام ليقول ما كان يقوله من قبل ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس أي عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره ، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ، قال : والله ما أبتغى أن يستغفر لي[1] .

وكانت له اتصالات ببني النضير يؤامر معهم ضد المسلمين ، حتى قال لهم : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولئن قوتلتم لننصرنكم .

وكذلك فعل هو وأصحابه في غزوة الأحزاب من : إثارة القلق والاضطراب ، وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قد قص الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ إلى قوله ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيداً أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادى ، وكثرة السلاح والجيوش والعدد ؛ وإنما السبب هى القيم والأخلاق والمثل التى يتمتع بها المجتمع الإسلامى ، وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين ، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ ، الذى هو المثل الأعلى ـــ إلى حد الإعجاز ـــ لهذه القيم .

كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين ، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح ، فقرروا أن يشنوا حربا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد ، وأن يجعلوا شخصية

---

(١) ابن هشام ٢ / ١٠٥ .

الرسول أول هدف لهذه الدعاية . ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس فى صفوف المسلمين ، ولكونهم سكان المدينة ، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين . تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون ، وعلى رأسهم ابن أبى .

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية بعد غزوة الأحزاب ، حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلبى ، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذى تبناه ، فلما تزوج النبى ﷺ بزينب وجد المنافقون ثلمتين ــ حسب زعمهم ــ لإثارة المشاغب ضد النبى ﷺ .

الأولى : أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة ، والقرآن لم يكن أذن فى الزواج بأكثر من أربع نسوة ، فكيف صح له هذا الزواج ؟

الثانية : أن زينب كانت زوجة ابنه ــ متبناه ــ فالزواج بها من أكبر الكبائر ، حسب تقاليد العرب ــ وأكثروا من الدعاية فى هذا السبيل ، واختلقوا قصصا وأساطير ، قالوا : إن محمدا رآها بغتة ، فتأثر بحسنها فشغفه حبا ، وعلقت بقلبه ، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد ، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشرا بقيت آثاره فى كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان ، وقد أثرت تلك الدعاية أثرا قويا فى صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات ، فيها شفاء لما فى الصدور ، وينبىء عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ﴾ (٣٣ : ١) .

وهذه إشارات عابرة ، وصورة مصغرة مما اقترفه المنافقون قبل غزوة بنى المصطلق ، وكان النبى ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف ، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم ، أو يتحملونه بالصبر ، إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى ، حسب قوله تعالى : ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ (٩ : ١٢٦) .

دور المنافقين فى غزوة بنى المصطلق :

ولما كانت غزوة بنى المصطلق ، وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ فقد وجدوا متنفسين للتنفس بالشر فأثاروا الارتباك الشديد فى صفوف المسلمين ، والدعاية الشنيعة ضد النبى ﷺ ، وهاك بعض التفصيل عنها .

١ ــ قول المنافقين : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » :

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزو مقيما على المريسيع ، ووردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له جهجاه الغفارى ، فازدحم هو وسنان ابن وبر الجهنى على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها منتنة . وبلغ ذلك عبد الله بن أبى بن سلول فغضب ــ وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث ــ وقال : أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر ، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر ، فقال عمر : مر عباد بن بشر فليقتله . فقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل . وذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، فلقيه أسيد بن حضير فحياه ، وقال : لقد رحت فى ساعة منكرة ؟ فقال له : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ يريد ابن أبى ، فقال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يارسول

الله ، تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك استلبته ملكا .

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياما . فعل ذلك ؛ ليشغل الناس عن الحديث .

أما ابن أبى فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ ، وحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ، وقال من حضر من الأنصار : يارسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، فصدقه ، قال زيد : فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط ، فجلست فى بيتى ، فأنزل الله ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ إلى قوله ﴿ هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ إلى ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ ، فأرسل إلىَّ رسول الله ﷺ فقرأها علىَّ ، ثم قال : إن الله قد صدقك (١).

وكان ابن هذا المنافق ــ وهو عبد الله بن عبد الله بن أبى ــ رجلا صالحا من الصحابة الأخيار ، فتبرأ من أبيه ، ووقف له على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء ابن أبى قال له : والله لاتجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء النبى ﷺ أذن له ، فخلى سبيله ، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبى : يا رسول الله إن أردت قتله فمرنى بذلك ، فأنا والله أحمل إليك رأسه (٢).

---

(١) انظر صحيح البخارى ١ / ٤٩٩ ، ٢ / ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، وابن هشام ٢ / ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

(٢) نفس المصدر الأخير ، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٧٧

٢ ــ حديث الإفك :

وفى هذه الغزوة كانت قصة الإفك ، وملخصها أن عائشة رضى الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه فى هذه الغزوة بقرعة أصابتها ، وكانت تلك عادته مع نسائه ، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا فى بعض المنازل ، فخرجت عائشة لحاجتها ، ففقدت عقدا لأختها كانت أعارتها إياه ، فرجعت تلتمسه فى الموضع الذى فقدته فيه فى وقتها ، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ؛ لأنها رضى الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذى كان يثقلها ، وأيضا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ، ولو كان الذى حمله واحدا أو اثنين لم يخف عليهما الحال ، فرجعت عائشة إلى منازلهم ، وقد أصابت العقد ، فإذا ليس به داع ولا مجيب ، فقعدت فى المنزل ، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون فى طلبها ، والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء ، فغلبتها عيناها ، فنامت ، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله ﷺ ؟ ــ وكان صفوان قد عرس فى أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم ، فلما رآها عرفها ، وكان يراها قبل نزول الحجاب ، فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها ، فركبتها ، وما كلمها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا استرجاعه ، ثم سار بها يقودها ، حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش فى نحر الظهيرة ، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته ، وما يليق به ، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبى متنفسا ، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذى بين ضلوعه ، فجعل يستحكى الإفك ، ويستوشيه ، ويشيعه ، ويذيعه ، ويجمعه ، ويفرقه ، وكان أصحابه يتقربون به إليه ، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك فى الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم ، ثم استشار أصحابه ــ لما استلبث الوحى طويلا ــ فى فراقها ، فأشار عليه على رضى الله عنه أن يفارقها ، ويأخذ غيرها ، تلويحا لاتصريحا ، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وأن لايلتفت إلى كلام الأعداء . فقام على المنبر يستعذ من عبد الله ابن أبى ، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته فى قتله ، فأخذت سعد بن

عبادة ـــ سيد الخزرج وهى قبيلة ابن أبى ـــ الحمية القبلية ، فجرى بينهما كلام تثاور له الحيان ، فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت .

أما عائشة ، فلما رجعت مرضت شهرا ، وهى لا تعلم عن حديث الإفك شيئا ، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كانت تعرفه حين تشتكى ، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح إلى البرار ليلا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فدعت على ابنها ، فاستنكرت ذلك عائشة منها ، فأخبرتها الخبر ، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ ؛ لتأتى أبويها وتستيقن الخبر ، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر ، فجعلت تبكى ، فبكت ليلتين ويوما ، لم تكن تكتحل بنوم ، ولا يرقأ لها دمع ، حتى ظنت أن البكاء فالق كبدها ، وجاء رسول الله ﷺ فى ذلك ، فتشهد وقال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

وحينئذ قلص دمعها ، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا ، فلم يدريا ما يقولان ، فقالت : والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إنى بريئة ـــ والله يعلم أنى بريئة ـــ لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر ـــ والله يعلم إنى منه بريئة ـــ لتصدقننى والله ما أجد لى ولك مثلاً إلا قول أبى يوسف . قال : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ﴾ .

ثم تحولت واضطجعت ، ونزل الوحى ساعته ، فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ، أما الله فقد برأك ، فقالت لها أمها : قومى إليه .. فقالت عائشة ـــ إدلالا ببراءة ساحتها ، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ ـــ : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله .

والذى أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك

عصبة منكم ﴾ . العشر الآيات .

وجلد من أهل الإفك مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، جلدوا ثمانين ، ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبى مع أنه رأس أهل الإفك ، والذى تولى كبره ، إما لأن الحدود تخفيف لأهلها ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وإما للمصلحة التى ترك لأجلها قتله [١].

وهكذا وبعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب عن جو المدينة ، وافتضح رأس المنافقين افتضاحا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك ، قال ابن إسحاق : وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله ﷺ لعمر : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف ، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى [٢].

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٣٦٤ ، ٢ / ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، زاد المعاد ٢ / ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ وابن هشام ٢ / ٢٩٧ إلى ٣٠٧

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٩٣

البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع

١ ــ سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بنى كلب بدومة الجندل ، فى شعبان سنة ٦ هـ . أقعده رسول الله ﷺ بين يديه ، وعممه بيده ، وأوصاه بأحسن الأمور فى الحرب ، وقال له : إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ ، وهى أم أبى سلمة ، وكان أبوها رأسهم وملكهم .

٢ ــ سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفدك ، فى شعبان سنة٦ هـ .وذلك أنـه بلغ رسول الله أن بها جمعا يريدون أن يمدوا اليهود ، فبعث إليهم عليا فى مائتى رجل ، وكان يسير الليل ويكمن النهار ، فأصاب عينا لهم ، فأقر أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر ، ودل العين على موضع تجمع بنى سعد ، فأغار عليهم على ، فأخذ خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد بالظعن ، وكان رئيسهم وبر بن عليم .

٣ ــ سرية أبى بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادى القرى ، فى رمضان سنة ٦ هـ . كان بطن فزارة يريد اغتيال النبى ﷺ ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق . قال سلمة بن الأكوع : وخرجت معه ، حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ، ورأيت طائفة وفيهم الذرارى ، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل فأدركتهم ، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، فيهم امرأة هى أم قرفة عليها قشع من أديم ، معها ابنتها من

أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر ، فنفلني أبو بكر ابنتها ، فلم أكشف لها ثوبا ، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قرفة ، فبعث بها إلى مكة ، وفدى بها أسرى من المسلمين هناك [1].

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي ﷺ ، وجهزت ثلاثين فارسا من أهل بيتها لذلك ، فلاقت جزاءها وقتل الثلاثون .

٤ — سرية كرز بن جابر الفهرى [2] إلى العرنيين ، فى شوال سنة ٦ هـ وذلك أن رهطا من عكل وعرينة أظهروا الإسلام ، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها ، فبعثهم رسول الله ﷺ فى ذود فى المرعى ، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، فلما صحوا قتلوا راعى رسول الله ﷺ ، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم ، فبعث فى طلبهم كرزا الفهرى فى عشرين من الصحابة ، ودعا على العرنيين : اللهم اعم عليهم الطريق ، واجعلها عليهم أضيق من مسك ، فعمى الله عليهم السبيل ، فأدركوا ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسملت أعينهم ، جزاء وقصاصا بما فعلوا ، ثم تركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا [3] وحديثهم فى الصحيح عن أنس [4].

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمرى مع سلمة بن أبى سلمة ، فى شوال سنة ٦ هـ ، أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبى سفيان ، لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابيا لاغتيال النبى ﷺ ، بيد أن المبعوثين لم ينجحا فى الاغتيال ، لاهذا ، ولا ذاك ، ويذكرون أن عمراً قتل فى الطريق ثلاثة رجال ، ويقولون إن عمراً أخذ جثة الشهيد خبيب فى هذا السفر ، والمعروف أن خبيبا استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر ، ووقعة الرجيع كانت فى صفر سنة ٤ هـ ، فلا

---

(١) انظر صحيح مسلم ٢ / ٨٩ ويقال : إن هذه السرية كانت سنة سبع .

(٢) هذا هو الذى كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر فى غزوة سفوان ثم أسلم وقتل شهيدا يوم فتح مكة .

(٣) زاد المعاد ٢ / ١٢٢

(٤) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٢

أدرى هل اختلط السفران على أهل السير ، أو كان الأمران فى سفر واحد فى السنة الرابعة ، وقد أنكر العلامة المنصور فورى أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة . والله أعلم .

هذه هى السرايا والغزوات بعد الأحزاب ، وبنى قريظة ، لم يجر فى واحدة منها قتال مرير ، وإنما وقعت ضما وقعت مصادمة خفيفة ، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية ، أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد . ويظهر بعد التأمل فى الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ فى التطور بعد غزوة الأحزاب ، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم فى انهيار متواصل ، ولم يكن بقى لهم أمل فى نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخضد شوكتها ، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية ، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام ، والتسجيل على بقائها فى ربوع الجزيرة العربية .

وقعة الحديبية
في ذي القعدة سنة ٦ هـ

سبب عمرة الحديبية :

ولما تقدم التطور فى الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين ، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئا فشيئا ، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين فى أداء عبادتهم فى المسجد الحرام ، الذى كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام .

أُرىَ رسول الله ﷺ فى المنام وهو بالمدينة ، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم وقصر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك ، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر .

استنفار المسلمين :

واستنفر العرب ومن حوله من البوادى ليخرجوا معه ، فأبطأ كثير من الأعراب ، وغسل ثيابه ، وركب ناقته القصواء ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نميلة الليثى ، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذى القعدة سنة ٦ هـ ، ومعه زوجته أم سلمة ، فى ألف وأربعمائة ، ويقال ألف وخمسمائة ، ولم يخرج معه

بسلاح ، إلا سلاح المسافر ، السيوف فى القرب .

المسلمون يتحركون إلى مكة :

وتحرك فى اتجاه مكة ، فلما كان بذى الحليفة قلد الهدى وأشعره ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وبعث بين يديه عينا له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريبا من عسفان أتاه عينه ، فقال : إنى تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعا وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . واستشار النبى ﷺ أصحابه وقال : أترون نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين ، وإن نجوا يكن عنق قطعها الله ، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجيء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبى ﷺ : فروحوا ، فراحوا .

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت :

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبى ﷺ عقدت مجلسا استشاريا ، قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن ، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش ، نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشا نازلة بذى طوى ، وأن مائتى فارس فى قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغميم ، فى الطريق الرئيسى الذى يوصل إلى مكة . وقد حاول خالد صد المسلمين ، فقام بفرسانه إزاءهم يتراآى الجيشان ، ورأى خالد المسلمين فى صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال : لقد كانوا على غرة ، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم ، ثم قرر أن يميل على المسلمين — وهم فى صلاة العصر — ميلة واحدة ، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف ، ففاتت الفرصة خالدا .

تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامى :

وأخذ رسول الله ﷺ طريقا وعرا بين شعاب ، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهرى الحمش ، فى طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة ، وترك الطريق الرئيسى الذى يفضى إلى الحرم مارا بالتنعيم ، تركه إلى اليسار ، فلما رأى خالد قترة الجيش الإسلامى قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيرا لقريش .

وسار رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته ، فقال الناس : حل حل ، فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبى ﷺ : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثمد[1] قليل الماء ، إنما يتبرضه[2] الناس تبرضا ، فلم يلبث أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهما من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فو الله مازال يجيش لهم بالرى حتى صدروا .

بديل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة[3] نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة ، فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل[4] ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . قال رسول الله ﷺ : إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ، ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإن أبوا إلا القتال فو الذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره .

---

(١) ثمد : حوض . (٢) يتبرض : يأخذ منه القليل . (٣) عيبة نصح الرجل : موضع سره .
(٤) استعار العوذ المطافيل للنساء مع أولادهن ، والعوذ : الإبل حديثة النتاج ، والمطافيل : التى معها أولادها .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشا : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولا ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشىء . وقال ذو الرأى منهم هات ماسمعته . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فبعث قريش مكرز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : هذا رجل غادر ، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش وأخبرهم .

رسل قريش :

ثم قال رجل من كنانة ــ اسمه الحليس بن علقمة ــ : دعونى آته . فقالوا : آته . فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك . قال : سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا ، وجرى بينه وبين قريش كلام أحفظه .

فقال عروة بن مسعود الثقفى : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعونى آته فقالوا : آته ، فآتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبى ﷺ نحوا من قوله لبديل ، فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ، أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى فوالله إنى لأرى وجوها ، وأرى أوباشا من الناس خلقا أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر : أمصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه ، ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت عندى لم أجزك بها لأجبتك . وجعل يكلم النبى ﷺ ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف ، وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قالوا: المغيرة بن شعبة ، فقال : أى غدر ، أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة

صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبى ﷺ : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء (وكان المغيرة ابن أخى عروة) .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله مارأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

هو الذى كف أيديهم عنكم :

ولما رأى شباب قريش الطائشون ، الطامحون إلى الحرب ، رغبة زعمائهم فى الصلح ، فكروا فى خطة تحول بينهم وبين الصلح ، فقرروا أن يخرجوا ليلا ويتسللوا إلى معسكر المسلمين ، ويحدثوا أحداثا تشعل نار الحرب ، وفعلا قد قاموا بتنفيذ هذا القرار ، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلا فهبطوا من جبل التنعيم ، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين ، غير أن محمد بن سلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعا . ورغبة فى الصلح أطلق سراحهم النبى ﷺ وعفا عنهم ، وفى ذلك أنزل الله ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ (٤٨ : ٢٤) .

عثمان بن عفان سفيرا إلى قريش :

وحينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيرا يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر ، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم ، فاعتذر قائلا : يارسول الله ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن

عفان ، فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت ، فدعاه ، وأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمارا ، وادعهم إلى الإسلام . وأمره أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها أحد بالإيمان .

فانطلق عثمان حتى مر على قريش ببلدح ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله ﷺ كذا وكذا ، قالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ثم أسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس ، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة ، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش . فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت ، لكنه رفض هذا العرض ، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ .

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان :

واحتبسته قريش عندها ـــ ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم فى الوضع الراهن ، ويبرموا أمرهم ، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة ـــ وطال الاحتباس ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة ، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا ، وبايعته جماعة على الموت ، وأول من بايعه أبو سنان الأسدى ، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات ، فى أول الناس ووسطهم وآخرهم ، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان ، ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه ، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له جد بن قيس .

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة ، وكان عمر آخذاً بيده ، ومعقل بن يسار آخذا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ ، وهذه هى بيعة الرضوان التى أنزل الله فيها ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت

الشجرة ﴾ الآية (٤٨ : ١٨) .

إبرام الصلح وبنوده :

وعرفت قريش حراجة الموقف ، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، وأكدت له أن لا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، لاتتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال : قد سهل لكم أمركم ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فجاء سهيل فتكلم طويلا ، ثم اتفقا على قواعد الصلح وهي هذه :

١ ـــ الرسول ـــ ﷺ ـــ يرجع من عامه ، فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثا ، معهم سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من أنواع التعرض .

٢ ـــ وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .

٣ ـــ من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءا من ذلك الفريق ، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق .

٤ ـــ من أتى محمدا من قريش من غير إذن وليه ـــ أي هاربا منهم ـــ رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد ـــ أي هاربا منه ـــ لم يرد عليه .

ثم دعا عليا ليكتب الكتاب ، فأملى عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما الرحمن فو الله لاندري ماهو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم . فأمر النبي ﷺ عليا بذلك . ثم أملى (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ، ولا قاتلناك .ولكن

أكتب محمد بن عبد الله فقال : إنى رسول الله وإن كذبتمونى ، وأمر عليا أن يكتب محمد بن عبد الله ، ويمحو لفظ رسول الله ، فأبى على أن يمحو هذا اللفظ ، فمحاه ﷺ بيده ، ثم تمت كتابة الصحيفة ، ولما تم الصلح دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ — وكانوا حليف بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب كما قدمنا فى أوائل المقالة ، فكان دخولهم فى هذا العهد ؛ تأكيدا لذلك الحلف القديم — ودخلت بنو بكر فى عهد قريش .

رد أبى جندل :

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده . فقال النبى ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال : فوالله إذاً لا أقاضيك على شيء أبدا . فقال النبى ﷺ فأجزه لى . قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل . وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه ، وأخذ بتلابيبه وجره ؛ ليرده إلى المشركين ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ياأبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية .

النحر والحلق للحل عن العمرة :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال : قوموا ، فانحروا ، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها مالقى من الناس ، فقالت : يارسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، ونحر رسول الله ﷺ جملا كان لأبي جهل ، كان في أنفه برة من فضة ، ليغيظ به المشركين ، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثا بالمغفرة وللمقصرين مرة . وفي هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك في شأن كعب بن عجرة .

الإباء عن رد المهاجرات :

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهم بالعهد الذى تم في الحديبية ، فرفض طلبهم هذا ، بدليل أن الكلمة التى كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي : (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته علينا) [1] فلم تدخل النساء في العقد رأسا . وأنزل الله في ذلك ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ حتى بلغ ﴿ بعصم الكوافر ﴾ ، فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى ﴿ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ﴾ إلخ ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها : قد بايعتك . ثم لم يكن يردهن .

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٣٨٠

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك . تزوج بإحداهما معاوية ، وبالأخرى صفوان بن أمية .

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة :

هذه هى هدنة الحديبيه ، ومن سبر أغوار بنودها مع خلفياتها لايشك أنها فتح عظيم للمسلمين ، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أى اعتراف ، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم ، وتنتظر أن تشهد يوما ما نهايتهم ، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية ، وبين الناس ، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية فى جزيرة العرب ، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين ، وأن قريشا لاتقدر على مقاومتهم ، ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن قريشاً نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية ، وأنها لاتهمها الآن إلا نفسها ، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت فى الإسلام بأجمعها ، فلا يهم ذلك قريشا ، ولا تتدخل فى ذلك بأى نوع من أنواع التدخل . أليس هذا فشلا ذريعا بالنسبة إلى قريش ؟ وفتحا مبينا بالنسبة إلى المسلمين ؟ إن الحروب الدامية التى جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها ــ بالنسبة إلى المسلمين ــ مصادرة الأموال وإبادة الأرواح ، وإفناء الناس ، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام ، وإنما كان الهدف الوحيد الذى يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس فى العقيدة والدين ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ . لايحول بينهم وبين مايريدون أى قوة من القوات ، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه ، وبطريق ربما لايحصل بمثله فى الحروب مع الفتح المبين ، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحا كبيرا فى الدعوة ، فبينما كان عدد المسلمين لايزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة ؛ صار عدد الجيش الإسلامى في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف .

أما البند الثانى ؛ فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين ، فالمسلمون لم يكونوا

بادئين بالحروب ، وإنما بدأتها قريش ، يقول الله تعالى ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ ، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها ، وصدها عن سبيل الله ، وتعمل معهم بالمساواة ، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد ، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهياره .

أما البند الأول ؛ فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام ، فهو أيضا فشل لقريش ، وليس فيه ما يشفي قريشا سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط .

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين ، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط ، وهي مافي البند الرابع ، ولكن تلك الخلة تافهة جداً ، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين ، فمعلوم أن المسلم مادام مسلما لا يفر عن الله ورسوله ، وعن مدينة الإسلام ، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهرا أو باطنا ، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين ، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه ، وهذا الذى أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله (١) وأما من أسلم من أهل مكة — فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل — لكن أرض الله واسعة ، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينا لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئا ؟ وهذا الذى أشار إليه النبى ﷺ بقوله « ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا » .(٢)

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش ، لكنه في الحقيقة ينبيء عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخورهم ، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثني ، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جرف هار ، لابد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ . وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا

(١) صحيح مسلم باب صلح الحديبية ٢ / ١٠٥
(٢) نفس المصدر

يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين ، فليس هذا إلا دليلا على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد ، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط .

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي ﷺ :

هذه هي حقيقة بنود هذه الهدنة ، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد ، **الأولى** : أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتي البيت فنطوف به ، فماله يرجع ولم يطف به ؟ **الثانية** : أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق ، والله وعد إظهار دينه ، فماله قبل ضغط قريش ، وأعطى الدنية في الصلح ؟ كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون . وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة ، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير في عواقب بنود الصلح . ولعل أعظمهم حزنا كان عمر بن الخطاب ، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال : يارسول الله ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطي الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : ياابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصري ، ولن يضيعني أبدا . قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به .

ثم انطلق عمر متغيظا فأتى أبا بكر ، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ ، ورد عليه أبو بكر ، كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فو الله إنه لعلى الحق .

ثم نزلت ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ إلخ فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال : يارسول الله أو فتح هو ؟ قال نعم . فطابت نفسه ورجع .

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندما شديدا . قال عمر : فعملت لذلك أعمالا ، مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة

كلامي الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا .[1]

انحلت أزمة المستضعفين :

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واطمأن بها ، انفلت رجل من المسلمين ، ممن كان يعذب فى مكة ، وهو أبو بصير رجل من ثقيف حليف لقريش ، فأرسلوا فى طلبه رجلين وقالوا للنبى ﷺ العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه النبى ﷺ إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا يافلان جيدا . فاستله الآخر ، فقال : أجل . والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه،فضربه حتى برد .

وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعرا ، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال : قتل صاحبى ، وإنى لمقتول ، فجاء أبو بصير وقال : يانبى الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم ، ثم أنجانى الله منهم ، قال رسول الله : ويل أمه ، مسعر حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبى بصير ، فجعل لايخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير،حتى اجتمعت منهم عصابة . فو الله مايسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل ، فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبى ﷺ إليهم ، فقدموا عليه المدينة .[2]

---

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة بالمدنة ، فتح البارى ٧ / ٤٣٩ إلى ٤٥٨ ، صحيح البخارى ١ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٢ / ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٧١٧ ، صحيح مسلم ٢ / ١٤٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ابن هشام ٢ / ٣٠٨ إلى ٣٢٢ ، زاد المعاد ٢ / ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٠٧ إلى ٣٠٥ ، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٣٩ ، ٤٠

(٢) المصادر السابقة

إسلام أبطال من قريش :

وفى أوائل سنة ٧ من الهجرة بعد هذه الهدنة أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ، ولما حضروا عند النبى ﷺ قال : إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها .[١]

(١) اختلفوا كثيرا فى تعيين السنة التى أسلم فيها هؤلاء الصحابة ، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح أنها سنة ثمان ، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشى معروفة ، وأسلم خالد وعثمان بن طلحة حين رجع عمرو ابن العاص من الحبشة فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه فى الطريق ، وحضر الثلاثة عند النبى ﷺ وأسلموا وهذا يقتضى أنهم أسلموا فى أوائل سنة سبع . والله أعلم .

المرحلة الثانية

طور جديد

إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد فى حياة الإسلام ، والمسلمين ، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها فى عداء الإسلام ، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام ، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة ـــ قريش وغطفان واليهود ـــ ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها فى ربوع جزيرة العرب ؛ انخفضت حدة مشاعر الوثنيين ، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير ، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازا كبيرا بعد هذه الهدنة ، وجل ماجاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود .

أما اليهود فقد كانوا جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدس والتامر .كانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ ، وتؤجج نار الفتنة ، وتغرى الأعراب الضاربة حول المدينة ، وتبيت للقضاء على النبى ﷺ والمسلمين ، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم ، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبى ﷺ بعد الهدنة هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر .

ولكن هذه المرحلة التى بدأت بعد الهدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة ، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها ، وقد تضاعف نشاط المسلمين فى هذا المجال ، وبرز نشاطهم فى هذا الوجه على نشاطهم العسكرى . ولذلك نرى

أن نقسم هذه المرحلة على قسمين :

(١) النشاط فى مجال الدعوة ، أو مكاتبة الملوك والأمراء .

(٢) النشاط العسكرى .

وقبل أن نتابع النشاط العسكرى فى هذه المرحلة ، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء ، إذ الدعوة الإسلامية هى المقدم طبعا ، بل ذلك هو الهدف الذى عانى له المسلمون ماعانوه من المصائب والآلام ، والحروب والفتن ، والقلاقل والاضطرابات .

مكانة الملوك والأمراء

فى أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لايقبلون إلا وعليه خاتم ، فاتخذ النبى ﷺ خاتما من فضة ، نقشه : محمد رسول الله ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، رسول سطر ، والله سطر ، هكذا : الله

رسول[1]

محمد

واختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك ، وقد جزم العلامة المنصورفورى أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام[2] . وفيما يلى نصوص هذه الكتب ، وبعض ما تمخضت عنه .

١ ــ الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة :

وهذا النجاشى اسمه أصحمة بن الأبجر ، كتب إليه النبى ﷺ مع عمرو

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٨٧٢ ، ٨٧٣

(٢) رحمة للعالمين ١ / ١٧١

بن أمية الضمرى فى آخر سنة ست أو فى المحرم سنة سبع من الهجرة . وقد ذكر الطبرى نص الكتاب ، ولكن النظر الدقيق فى ذلك النص ، يفيد أنه ليس نص الكتاب الذى كتبه ﷺ بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة فى العهد المكى ، فقد ورد فى آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ (وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر) .

وروى البيهقى عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبى ﷺ إلى النجاشى وهو هذا : هذا كتاب من محمد النبى إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الإسلام ، فإنى أنا رسوله فأسلم تسلم ، ﴿ ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ، فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك .

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه فى الماضى القريب ــ كما أورده ابن القيم مع الاختلاف فى كلمة فقط ــ وبذل الدكتور فى تحقيق ذلك النص جهدا بليغا واستعان فى ذلك كثيرا باكتشافات العصر الحديث ، وأورد صورته فى الكتاب وهو هكذا .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته . ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى ،

وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ﷺ ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبل نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى [١].

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى النجاشى بعد الحديبية ، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر فى الدلائل ، وأما أن هذا الكتاب هو الذى كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه ، والذى أورده البيهقى عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التى كتبها النبى ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية ، فإن فيه الآية الكريمة : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ﴾ إلخ كما كان دأبه فى تلك الكتب ، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحا ، وأما النص الذى أورده الدكتور حميد الله ، فالأغلب عندى أنه نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته ، ولعل هذا هو السبب فى ترك الاسم .

وهذا الترتيب ليس عندى عليه دليل قطعى سوى الشهادات الداخلية التى تؤديها نصوص هذه الكتب . والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم أن النص الذى أورده البيهقى عن ابن عباس هو نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد فى هذا النص صريحا والعلم عند الله .[٢]

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمرى كتاب النبى ﷺ إلى النجاشى أخذه النجاشى ، ووضعه على عينه ونزل عن سريره على الأرض ، وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب . وكتب إلى النبى ﷺ بذلك ، وهاك نصه .

---

(١) انظر رسول أكرم كى سياسى زندكى (بالأردو) ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، وفى زاد المعاد : أسلم أنت بدل والسلام على من اتبع الهدى . انظر زاد المعاد ٣ /٦٠

(٢) انظر لهذه المباحث كتاب الدكتور حميد الله « رسول أكرم كى سياسى زندكى » ص . ١٠٨ ، إلى ١١٤ ومن ١٢١ إلى ١٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يانبي الله من الله ورحمة الله وبركاته ، الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

ـ فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء ، والأرض إن عيسى لايزيد على ماذكرت تفروقا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت بها إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين [1]

وكان النبى ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرا ومن معه من مهاجرى الحبشة ، فأرسلهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى ، فقدم بهم على النبى ﷺ وهو بخيبر [2]. توفى النجاشي هذا فى رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك ، ونعاه النبى ﷺ يوم وفاته ، وصلى عليه صلاة الغائب . ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبى ﷺ كتابا آخر ولايدرى هل أسلم أم لا ؟ [3]

٢ ـ الكتاب إلى المقوقس ملك مصر :

وكتب النبى ﷺ إلى جريج بن متى [4] الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية : « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، بسلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٥٩

(٣) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٢ / ٩٩

(٤) هذا على رأى العلامة المنصورفورى فى كتابه رحمة للعالمين ١ / ١٧٨ ؛ ويقال الدكتور حميد الله وإن اسمه بنيامين » انظر : وسيلى أكرم كى سياسى زندكى ص ١٤١ .

عليك إثم أهل القبط . ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لانعبد إلا الله ، ولانشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾.[1]

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة . فلما دخل حاطب على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولايعتبر غيرك بك .
فقال المقوقس : إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فَقْد ماسواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبى أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى ، فوجدته لايأمر بمزهود فيه ، ولاينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر .

وأخذ كتاب النبى ﷺ ، فجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ودفع به إلى جارية له ، ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم » لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ماذكرت فيه ، وما

---

(١) هذا النص أورده ابن القيم فى زاد المعاد ٣ / ٦١ والذى أورده الدكتور حميد الله أخذا من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص ، ففيه « فأسلم تسلم يؤتك الله » الخ . وفيه « إثم القبط » بدل قوله « إثم أهل القبط » انظر : رسول أكرم كى سياسى زندكى ص ١٣٦ ، ١٣٧

تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين ، لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

ولم يزد على هذا ولم يسلمَ ، والجاريتان مارية ، وسيرين ، والبغلة دُلْدُل بقيت إلى زمن معاوية [(1)]، واتخذ النبى ﷺ مارية سرية له ، وهى التى ولدت له إبراهيم . وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصارى .

٣ ــ الكتاب إلى كسرى ملك فارس :

وكتب النبى ﷺ إلى كسرى ملك فارس « بسم الله الرحمن الرحيم « من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، «أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمى ، فدفعه السهمى إلى عظيم البحرين ، ولا ندرى هل بعث عظيم البحرين رجلا من رجالاته ، أم بعث عبد الله السهمى ، وأيا ما كان فلما قرىء الكتاب على كسرى مزقه ، وقال فى غطرسة : عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبلى ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : مزق الله ملكه ، وقد كان كما قال ، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين عندك جلدين ، فليأتيانى به . فاختار باذان رجلين ممن عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدما المدينة ، وقابلا

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١

النبى ﷺ قال أحدهما : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثنى إليك لتنطلق معى ، وقال قولا تهديديا ، فأمرهما النبى ﷺ أن يلاقياه غدا .

وفى ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنه سبع ،[1] وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحى ، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك : فقالا : هل تدرى ماتقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر ، أفنكتب هذا عنك ، ونخبره الملك . قال : نعم أخبراه ذلك عنى ، وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ كسرى ! وينتهى إلى منتهى الخف والحافر . وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ماتحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ، وقال له شيرويه فى كتابه : انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى .

وكان ذلك سببا فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن.[2]

٤ ــ الكتاب إلى قيصر ملك الروم :

وروى البخارى ضمن حديث طويل نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى ملك الروم هرقل ، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم

---

(١) فتح البارى ٨ / ١٢٧

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤٧ ، فتح البارى ٨ / ١٢٧ ، ١٢٨ وانظر رحمة للعالمين أيضا ج

الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .[1]

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ، ليدفعه إلى قيصر ، وقد روى البخارى عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء،[2] فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا ، فقال : ادنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه ، فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه .

ثم قال : أول ماسألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ فقلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه : قلت : لا . قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو فاعل فيها — قال . ولم

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٤ ، ٥

(٢) كان قيصر جاء إذ ذاك فى إيلياء — بيت المقدس — من حمص ، شكرا لما من الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٢ / ٩٩) ، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز ، وصالحوا الروم على رد ماكانوا قد احتلوا من بلاد قيصر ، وردوا إليه الصليب الذى تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه ، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩ م (أى سنة ٧ هـ) يضع الصليب فى موضعه ، ويشكر الله على هذا الفتح المبين .

تمكنني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ــ قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولاتشركوا به شيئا ، واتركوا مايقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر ، وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثر اللغط ، وأمر بنا فأخرجنا ، قال : فقلت لأصحابه حين أخرجنا ، لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام .[1]

---

(١) صحيح البخاري ١ / ٤ ، صحيح مسلم ٢ / ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩

هذا ماراه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر ، وقد كان من آثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة بن الكلبي ، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة ، ولما كان دحية بحسمى في الطريق لقيه ناس من جذام ، فقطعوها عليه ، فلم يتركوا معه شيئا ، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته ، فأخبره ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى ، وهى وراء وادى القرى في خمسمائة رجل ، فشن زيد الغارة على جذام ، فقتل فيهم قتلا ذريعا ، واستاق نعمهم ونساءهم ، فأخذ من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، والسبى مائة من النساء والصبيان .

وكان بين النبى ﷺ وبين قبيلة جذام موادعة ، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامى أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبى ﷺ ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق ، فقبل النبى ﷺ احتجاجه وأمر برد الغنائم والسبى .

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه السرية قبل الحديبية ، وهو خطأ واضح ، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية . ولذا قال ابن القيم : هذا بعد الحديبية بلا شك .(١)

٥ ــ الكتاب إلى المنذر بن ساوى :

وكتب النبى ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث إليه العلاء بن الحضرمى بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ :أما بعد يارسول الله ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث إلى فى ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله ﷺ ·

---

(١) انظر زاد المعاد ٢ / ١٢٢ ، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٩

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية »[1]

٦ ــ الكتاب إلى هوذة بن على صاحب اليمامة :

وكتب النبى ﷺ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك » .

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامرى ، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختوما أنزله ، وحياه ، وقرأ عليه الكتاب ، فرد عليه ردا دون رد ، وكتب إلى النبى ﷺ : ما أحسن ماتدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليطا بجائزة ، وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبى ﷺ فأخبره ، وقرأ النبى ﷺ كتابه فقال : لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت ، باد ، وباد ما فى يديه . فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات ، فقال النبى ﷺ : أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى ، يقتل بعدى ، فقال

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١ ، ٦٢ ، والنص الذى أورده الدكتور حميد الله آخذا من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب يختلف فى كلمة واحدة ، ففيه « لا إله غيره » بدل قوله : « لا إله إلا هو » .

قائل : يارسول الله من يقتله ؟ فقال : أنت وأصحابك ، فكان كذلك .[1]

٧ ــ الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق :

كتب إليه النبي ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق ، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » .

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة ، ولما أبلغه الكتاب قال : من ينزع ملكي مني ؟ أنا سائر إليه ، ولم يسلم .[2]

٨ ــ الكتاب إلى ملك عمان :

وكتب النبي ﷺ كتابا إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبد ابني الجلندى ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله (ﷺ) إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فإنكما أن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخيل تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتي على ملككما » .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه . قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ــ وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقا ــ فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٦٣

(٢) نفس المصدر ٣ /٦٢ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١ /١٤٦ .

أخيك ، فقال : أخي المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعو إلى الله وحـــده لاشريك له ، وتخلع ماعبد من دونه ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال : ياعمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة . قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبا . فسألنى أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال : وكيف صنع قومه بملكه ، فقلت أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر ياعمرو ماتقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب . قلت : ما كذبت ، وما نستحله فى ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت : بلى ، قال : فبأى شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ ، قال : لا والله لو سألنى درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدع عبدك لايخرج لك خرجا ، ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل : رجل رغب في دين ، فاختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع .قال : أنظر ماتقول ياعمـرو ؟ قلت : والله صدقـتك . قال عبـــد : فأخبرنى ماالذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا ، وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا . قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه . فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم ، قال : إن هذا لخلق حسن . وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل . قال : ياعمرو ،وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم ، فقال : والله ماأرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا . قال : فمكثت ببابه أياما ،

وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعى ، فقال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوما ، ففض خاتمه ، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه ، إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال : دعنى يومى هذا ، وارجع إلى غدا .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه . حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى ، وهو لاتبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله لقت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : أنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه ، فقال : مانحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلى ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا النبى ﷺ ، وخليا بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا على من خالفنى.[1]

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيرا عن كتب بقية الملوك ، والأغلب أنه كان بعد الفتح .

وبهذه الكتب كان النبى ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض . فمنهم من آمن به ومنهم من كفر . ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين ، وعرف لديهم باسمه ودينه .

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٦٢ ، ٦٣

النشاط العسكري بعد صلح الحديبية
غَزْوَةُ الغَابَةِ أو غَزْوَةُ ذِي قَرَد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بنى فزارة قامت بعمل القرصنة فى لقاء رسول الله ﷺ .

وهى أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية ، وقبل خيبر . ذكـــر البخارى فى ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث ، وروى ذلك مسلم مسندا من حديث سلمة بن الأكوع . وذكر الجمهور من أهل المغازى أنها كانت قبل الحديبية وما فى الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازى [1]

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح ، وأنا معه بفرس أبى طلحة ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزارى قد أغار على الظهر ، فاستاقه أجمع ، وقتل راعيه ، فقلت : يرباح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة ، وأخبر رسول الله ﷺ . ثم قمت على أكمة ، واستقبلت المدينة ، فناديت ثلاثا : يا صباحاه ، ثم خرجت فى آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز ، أقول :

أنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع

---

(١) انظر صحيح البخارى باب غزوة ذات قرَد ٢ / ٦٠٣ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢ / ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، وفتح البارى ٧ / ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، زاد المعاد ٢ / ١٢٠

فو الله مازلت أرميهم وأعقر بهم ، فإذا رجع إلى فارس جلست فى أصل الشجرة ، ثم رميته فعقرت به ، حتى إذا دخلوا فى تضايق الجبل علوته ، فجعلت أرديهم بالحجارة ، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهرى ، وخلوا بينى وبينه ، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة ، وثلاثين رمحا يستخفون ، ولا يطرحون شيئا إلا جعلت عليه آراما من الحجارة ، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه . حتى أتوا متضايقا من ثنية فجلسوا يتغدون ، وجلست على رأس قرن ، فصعد إلى منهم أربعة فى الجبل ، قلت : هل تعرفوننى ؟ أنا سلمة بن الأكوع ، لا أطلب رجلا منكم إلا أدركته ، ولا يطلبنى فيدركنى ، فرجعوا . فما برحت مكانى حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر . فإذا أولهم أخرم ، وعلى أثره أبو قتادة ، وعلى أثره المقداد بن الأسود ، فالتقى عبد الرحمن وأخرم ، فعقر بعبد الرحمن فرسه ، وطعنه عبد الرحمن فقتله ، وتحول على فرسه ولحق قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله ، وولى القوم مدبرين ، نتبعهم ، أعدو على رجلى ، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذا قرد ، ليشربوا منه ، وهم عطاش ، فأجليتهم عنه ، فما ذاقوا قطرة منه ، ولحقنى رسول الله ﷺ والخيل عشاء ، فقلت : يارسول الله إن القوم عطاش ، فلو بعثتنى ف مائه رجل استنقذت ما عندهم من السرج ، وأخذت بأعناق القوم ، فقال : يا ابن الأكوع . ملكت فأسجح[1] ، ثم قال : إنهم ليقرون الآن فى غطفان .

وقال رسول الله ﷺ : خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة . وأعطانى سهمين ، سهم الراجل وسهم الفارس ، وأردفنى وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة .

استعمل رسول الله ﷺ على المدينة فى هذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو .[2]

(١) أسجح : أى سهل بالمعنى قدرت فاعف . (٢) انظر المصدرين السابقين ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ .

غزوة خيبر ووادي القرى
في المحرم سنة ٧ هـ

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلا من المدينة فى جهة الشمال ، وهى الآن قرية فى مناخها بعض الوخامة .

سبب الغزوة :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة ، وأمن منه أمنا باتا بعد الهدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين — اليهود وقبائل نجد — حتى يتم الأمن والسلام ، ويسود الهدوء فى المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هى وكرة الدس والتآمر ، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولا .

أما كون خيبر بهذه الصفة ، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا فى الاتصالات بالمنافقين — الطابور الخامس فى المجتمع الإسلامى — وبغطفان وأعراب البادية — الجناح الثالث من الأحزاب — وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال ، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه فى محن متواصلة ، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبى ﷺ ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية ، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين ،

مثل سلام بن أبى الحقيق ، وأسير بن زارم ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك . وإنما أبطأوا فى القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم ــ وهى قريش ــ كانت مجابهة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين ، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خيبر :

قال ابن إسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذاالحجة وبعض المحرم ، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر .

قال المفسرون : إن خيبر كانت وعدا وعدها الله تعالى بقوله : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ (٤٨ : ٢٠) يعنى صلح الحديبية ، وبالمغانم الكثيرة خيبر .

عدد الجيش الإسلامى :

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة الحديبية ، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلا : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل ، فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ (٤٨ : ١٥) .

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر ، أعلن أن لايخرج معه إلا راغب فى الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة .

واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وقال ابن إسحاق : نميلة بن عبد الله الليثى ، والأول أصح عند المحققين[1]

---

(١) انظر فتح البارى ٧ / ٤٦٥ ، زاد المعاد ٢ / ١٣٣

وحينئذ قدم أبو هريرة المدينة مسلما ، فوافق سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعا فزوده ، حتى قدم على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهماتهم .

اتصال المنافقين باليهود :

وقد قام المنافقون يعملون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر : أن محمدا قصد قصدكم وتوجه إليكم ، فخذوا حذركم ، ولا تخافوا منه ، فإن عددكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزّل لا سلاح معهم إلا قليل . فلما علم ذلك أهل خيبر ، أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان . يستمدونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ، ومظاهرين لهم على المسلمين . وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين .

الطريق إلى خيبر :

وسلك رسول الله ﷺ فى اتجاهه نحو خيبر جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم على الصهباء ، ثم نزل على واد يقال له الرجيع ، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر ، لإمداد اليهود ، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حسا ولغطا ، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا ، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش — وكان اسم أحدهما حسيل — ليدلاه على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال — أى جهة الشام — فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان .

قال أحدهما : أنا أدلك يا رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال : يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد ، فأمر أن يسميها له واحدا واحدا . قال : اسم واحد منها حزن فأبى النبى ﷺ من سلوكه ، وقال : اسم الآخر شاش ، فامتنع منه أيضا وقال : اسم آخر حاطب . فامتنع منه أيضا ، وقال حسيل : فما بقى إلا واحدا قال عمر : ما اسمه قال : مرحب ، فاختار النبى ﷺ سلوكه .

بعض ماوقع فى الطريق :

١ ـــ عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلا ، فقال ، رجل من القوم لعامر : ياعامر ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ ـــ وكان عامر رجلا شاعرا ـــ فنزل يحدو بالقوم . يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينـــة علينـــا إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر بن الأكوع . قال : يرحمه الله . قال رجل من القوم : وجبت يانبى الله ، لولا أمتعتنا به .(١)

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لايستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد(٢) ، وقد وقع فى حرب خيبر .

٢ ـــ وفى الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير « الله أكبر

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣ ، صحيح مسلم باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢ / ١١٥
(٢) نفس المصدرالأخير

الله أكبر لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أربعوا على أنفسكم ، إنكم لاتدعون أصما ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا .[1]

٣ ــ وبالصهباء من أدنى خيبر صلى العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثرى ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمضمض ، ومضمض الناس . ثم صلى ولم يتوضأ[2]، ثم صلى العشاء[3].

الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر :

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريبا من خيبر ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبى ﷺ إذا أتى قوما بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ، ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخميس ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبى ﷺ : الله أكبر ، خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .[4]

وكان النبى ﷺ اختار لمعسكره منزلا ، فأتاه حباب بن المنذر فقال : يارسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى في الحرب ؟ قال بل هو الرأى ، فقال : يارسول الله إن هذا المنزل قريب جدا من حصن نطاة ، وجميع مقاتلى خيبر فيها ، وهم يدرون أحوالنا ، ونحن لا ندرى أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا . وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضا هذا بين

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٥

(٢) نفس المصدر ٢ / ٦٠٣

(٣) مغازى الواقدى (غزوة خيبر ص ١١٢)

(٤) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣ ، ٦٠٤

النخلات ، ومكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرا . قال ﷺ : الرأى ما أشرت ، ثم تحول إلى مكان آخر .

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال : قفوا . فوقف الجيش فقال : اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإنا لنسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير مافيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله [1].

التهيؤ للقتال وحصون خيبر :

ولما كانت ليلة الدخول قال : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال : أين على بن أبى طالب ، فقالوا : يارسول الله هو يشتكى عينيه [2]. قال : فأرسلوا إليه . فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرىء ، كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فو الله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم [3].

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

١ ـــ حصن ناعم　　　　٢ ـــ حصن الصعب بن معاذ

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣٢٩

(٢) وكان لأجل هذه الشكوى تخلف فى أول المسير ، ثم لحق بالجيش .

(٣) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٥٠٥ ، ٦٠٦ ، ويؤخذ من بعض الروايات أن إعطاء الراية لعلى كان بعد فشل عدة محاولات لفتح حصن من حصونهم . والراجح عند المحققين هو ما ذكرنا .

٣ ـــ حصن قلعة الزبير ٤ ـــ حصن أبي

٥ ـــ حصن النزار

والحصون الثلاثة الأولى تقع فى منطقة يقال لها (النطاة) ، وأما الحصنان الآخران فيقعان فى منطقة تسمى بالشق .

أما الشطر الثانى ، ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط :

١ ـــ حصن القموص (كان حصن بنى أبى الحقيق من بنى النضير) .

٢ ـــ حصن الوطيح .

٣ ـــ حصن السلالم .

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع فى مناعتها وقوتها .

والقتال المرير إنما دار فى الشطر الأول منها ، أما الشطر الثانى فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال .

بدء المعركة وفتح حصن ناعم :

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم ، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجى ، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يعد بالألف .

خرج على بن أبى طالب رضى الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام ، فرفضوا هذه الدعوة ، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب ، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة . قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عمي عامر فقال :

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ترس عمي عامر ، وذهب عامر يسفل له ، وكان سيفه قصيرا ، فتناول به ساق يهودي ليضربه ، فيرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبته فمات منه ، وقال فيه النبي ﷺ : إن له لأجرين وجمع بين إصبعيه ، إنه لجاهِدٌ مجاهِدٌ قل عربي مشى بها مثله[1] .

ويبدو أن مرحبا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى ، وجعل يرتجز بقوله : قد علمت خيبر أني مرحب .. إلخ ، فبرز له علي بن أبي طالب . قال سلمة بن الأكوع : فقال علي :

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه.[2]

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن ، وقال : من أنت ، فقال : أنا علي بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوتم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو ، يقول : من يبارز ؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه : يارسول الله ، يقتل ابني ؟ قال : بل ابنك يقتله . فقتله الزبير .

ودار القتال المرير حول حصن ناعم ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت لأجله مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من

---

(١) صحيح مسلم باب غزوة خيبر ٢ / ١٢٢ ، باب غزوة ذي قرد وغيرها ٢ / ١١٥ ، صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣

(٢) بين المصادر اختلاف كبير في الرجل الذي قتل مرحبا ، وفي اليوم الذي قتل فيه ، وفتح هذا الحصن . وبعض هذا الاختلاف موجود في سياق روايات الصحيحين أيضا ، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخاري .

المصادر أن هذا القتال دام أياما لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين ، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتحم المسلمون حصن ناعم .

فتح حصن الصعب بن معاذ :

وكان حصن الصعب الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري ، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث ، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصية .

وروى ابن إسحاق : أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء ، فقال : اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء ، وأكثرها طعاما وودكا . فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاما وودكا منه[1].

ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم في المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن . ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات .

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية .

---

(١) ابن هشام ملخصا ٢ / ٣٣٢ والودك : دسم اللحم .

فتح قلعة الزبير :

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطاة إلى قلعة الزبير ، وهو حصن منيع فى رأس قلة ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار ، وأقام محاصرا ثلاثة أيام . فجاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرا ما بالوا ، إن لهم شرابا وعيونا تحت الأرض ، يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك . فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

فتح قلعة أبى :

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبى وتحصنوا فيه ، وفرض المسلمون عليهم الحصار ، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلهما أبطال المسلمين ، وكان الذى قتل المبارز الثانى هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى صاحب العصابة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة ، واقتحم معه الجيش الإسلامى ، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن فى الشطر الأول .

فتح حصن النزار :

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل ، ولذلك أقاموا فى هذه القلعة مع الذرارى والنساء ، بينما كانوا قد

أخلوا منها القلاع الأربعة السابقة .

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلا للاقتحام فيه ، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال ، وبإلقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين ، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف ، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن ، واقتحموه ، ودار قتال مرير في داخل الحصن ، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، بل فروا — من فروا — من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم .

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر ، وهي ناحية النطاة والشق ، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى ، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذه الحصون ، وهربوا إلى الشطر الثاني من بلدة خيبر .

فتح الشطر الثاني من خيبر :

ولما فتح ناحية النطاة والشق ، تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلالم حصن أبي الحقيق من بني النضير ، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطاة والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازي هل جرى هناك قتال في أي حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صريح في جريان القتال لفتح حصن القموص .

بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام.[1]

أما الواقدى ، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال . وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال .

ومهما كان فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية — الكتيبة — فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوما ، واليهود لايخرجون من حصونهم ، حتى همّ رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

المفـاوضـة :

وأرسل ابن أبى الحقيق إلى رسول الله ﷺ : انزل فأكلمك ؟ قال : نعم فنزل ، وصالح على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة ، وترك الذرية لهـم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ماكان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء — أى الذهب والفضة — والكراع والحلقة إلا ثوبا على ظهر إنسان[2] ، فقال رسول الله ﷺ : وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئا ، فصالحوه على ذلك[3] . وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين ، وبذلك تم فتح خيبر .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧

(٢) ولكن صرح فى رواية أبى داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر سنن أبى داود ، باب ما جاء فى حكم أرض خيبر ٢ / ٧٦)

(٣) زاد المعاد ٢ / ١٣٦

قتل ابنى أبى الحقيق لنقض العهد :

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبى الحقيق مالا كثيرا ، غيبا مسكا فيه مال وحلى لحيى بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

قال ابن إسحاق : وأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فاتى رجل من اليهود فقال : إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال : رسول الله ﷺ لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟ قال : نعم ! فأمر بالخربة ، فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقى ، فأبى أن يؤديه . فدفعه إلى الزبير ، وقال : عذبه حتى نستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن سلمة ، فضرب عنقه بمحمود بن سلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم ألقى عليه الرحى ، وهو يستظل بالجدار فمات) .

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابنى أبى الحقيق ، وكان الذى اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة .

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيى بن أخطب ، وكانت تحت كنانة ابن أبى الحقيق ، وكانت عروسا حديثة عهد بالدخول .

قسمة الغنائم :

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلى اليهود من خيبر ، فقالوا : يامحمد ، دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لايفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم . وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم .

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهما ، وجمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم ، سهم لنوائبه وما يتنزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم ، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفا وأربعمائة وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم واحد.[1]

ويدل على كثرة مغانم خيبر مارواه البخارى عن ابن عمر قال : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر ، وما رواه عن عائشة قالت : لما فتحت خيبر قلنا : الآن نشبع من التمر[2] . ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل.[3]

قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعريين :

وفى هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه .

قال أبو موسى : بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ـــ أنا وأخوان لى ـــ فى بضع وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفرا وأصحابه عنده ، فقال : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى

(١) زاد المعاد ٢ / ١٣٧ ، ١٣٨

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٩

(٣) زاد المعاد ٢ / ١٤٨ ، صحيح مسلم ٢ / ٩٦

قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئا إلا لمن شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم .(١)

ولما قدم جعفر على النبي ﷺ تلقاه وقبله ، وقال : والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر .(٢)

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمرى ، يطلب توجيههم إليه ، فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلا ، معهم من بقى من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك .(٣)

الزواج بصفية :

ذكرنا أن صفية جعلت في السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره ، ولما جمع السبي جاء دحية بن خليفة الكلبي ، فقال : يانبي الله ، أعطني جارية من السبي . فقال : اذهب فخذ جارية . فأخذ صفية بنت حيى ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يانبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة وبنى النضير ، لاتصلح إلا لك ، قال : ادعوه بها . فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال : خذ جارية من السبي غيرها ، وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعا إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح عروسا بها ، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق ، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق يبنى بها .(٤)

(١) صحيح البخارى ١ / ٤٤٣ ، وانظر أيضا فتح البارى ٧ / ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧

(٢) زاد المعاد ٢ / ١٣٩

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٢٨

(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٤ ، ٢ / ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، زاد المعاد ٢ / ١٣٧

ورأى بوجهها خضرة ، فقال : ما هذا ؟ قالت : يارسول الله ، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط في حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهي . فقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة.(١)

أمر الشاة المسمومة :

ولما اطمأن رسول الله بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث ، ــ امرأة سلام بن مشكم ــ شاة مصلية ، وقد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع ، فلاك منها مضغة ، فلم يسغها ، ولفظها ، ثم قال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم . ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : قلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر ، فتجاوز عنها .

وكان معه بشر بن البراء بن معرور ، أخذ منها أكلة ، فأساغها ، فمات منها .

واختلفت الروايات فى التجاوز عن المرأة وقتلها ، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولا ، فلما مات بشر قتلها قصاصا.(٢)

قتلى الفريقين فى معارك خيبر :

وجملة من استشهد من المسلمين فى معارك خيبر ستة عشر رجلا ، أربعة من قريش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر ،

(١) نفس المصدر الأخير ، وابن هشام ٢ / ٣٣٦

(٢) انظر زاد المعاد ٢ / ١٣٩ ، ١٤٠ ، فتح البارى ٧ / ٤٩٧ ، وأصل القصة مروية فى البخارى مطولا ومختصرا ، ١ / ٤٤٩ ، ٢ / ٦١٠ ، ٨٦٠ ، وفى ابن هشام ٢ / ٣٣٧ ، ٣٣٨

والباقون من الأنصار .

ويقال : إن شهداء المسلمين فى هذه المعارك ١٨ رجلا . وذكر العلامة المنصور فورى ١٩ رجلا ، ثم قال : إنى وجدت بعد التفحص ٢٣ اسما ، واحد منها فى الطبرى فقط ، وواحد عند الواقدى فقط ، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة ، وواحد اختلفوا هل قتل فى بدر أو خيبر . والصحيح أنه قتل فى بدر .(١)

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلا .

فدك :

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر ، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك ، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه ، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب فى قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك ، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر ، فقبل ذلك منهم ، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة ، لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب .(٢)

وادى القرى :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر ، انصرف إلى وادى القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وانضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمى وهم على تعبئة ، فقتل مدعم عبدا لرسول الله ﷺ ، فقال الناس : هنيئا له الجنة ، فقال النبى ﷺ : كلا . والذى

---

(١) رحمة للعالمين ٢ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٣٧ ، ٣٥٣

نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم ، لم تصبها المقاسم ، لتشتعل عليه نارا . فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شراكين ، فقال النبي ﷺ : شراك من نار أو شراكان من نار [1]

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عبادة بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير ابن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلا ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام .

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم ، فيصلي بأصحابه ، ثم يعود ، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا .

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام ، وقسم على أصحابه ما أصاب بها ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها [2] (كما عامل أهل خيبر) .

تيمـــاء :

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادي القرى لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح . فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ ، وأقاموا بأموالهم [3]، وكتب لهم بذلك كتابا ، وهاك

(1) صحيح البخاري ٢ / ٦٠٨
(2) زاد المعاد ٢ / ١٤٦ ، ١٤٧
(3) نفس المصدر ٢ / ١٤٧

نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عاديا ، إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد ، والنهار شد ، وكتب خالد بن سعيد.[1]

العود إلى المدينة :

ثم أخذ رسول الله فى العودة إلى المدينة ، وفى مرجعه ذلك سار ليلة ، ثم نام فى آخر الليل ببعض الطريق ، وقال لبلال : اكلأ لنا الليل فغلبت بلالا عيناه ، وهو مستند إلى راحلته ، فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ ، ثم خرج من ذلك الوادى ، وتقدم ، ثم صلى الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة فى غير هذا السفر .[2]

وبعد النظر فى تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبى ﷺ كان فى أواخر صفر أو فى ربيع الأول سنة ٧ هـ .

سرية أبان بن سعيد :

كان النبى ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكرى أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعا ، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة ، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب ، تحت قيادة أبان بن سعيد ، بينما كان هو إلى خيبر ، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ماكان واجبا عليه ، فوافى النبى ﷺ بخيبر ، وقد افتتحها .

---

(١) ابن سعد

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٤٠ ، والقصة معروفة مروية فى عامة كتب الحديث : وانظر زاد المعاد ٢ / ١٤٧

والأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧ هـ . وورد ذكـــر هذه السرية في البخارى[(١)]. قال ابن حجر : لم أعرف حال هذه السرية .[(٢)]

(١) انظر صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٨ ، ٦٠٩

(٢) فتح البارى ٧ / ٤٩١

بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة

غـــزوة ذات الرقـــاع :

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة ؛ تفرغ تماما للالتفات إلى الجناح الثالث ، أى إلى الأعراب القساة الضاربين فى فيافى نجد ، والذين مازالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى .

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة ، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع ، كانت الصعوبة فى فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تماما تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر ، ولذلك لم تكن تجدى فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب ، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى .

ولفرض الشوكة — أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة — قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع .

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه الغزوة فى السنة الرابعة ، ولكن مساهمة أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة رضى الله عنهما فى هذه الغزوة تدل على وقوعها بعد خيبر ، والأغلب أنها وقعت فى شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ .

وملخص ماذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبي ﷺ سمع باجتماع أنمار أوبني ثعلبة وبني محارب من غطفان ، فأسرع بالخروج إليهم في أربعمائة أو سبعمائة من أصحابه ، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان ، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل على بعد يومين من المدينة ، ولقى جمعا من غطفان فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال ، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف .

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع ؛ لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا .(١)

وفيه عن جابر : كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس في العضاة ، يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فنمنا نومة ؛ فجاء رجل من المشركين ، فاخترط سيف رسول الله ﷺ ، فقال : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله . قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتا ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس . ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ .

وفي رواية : وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا ، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين ، وكان للنبي ﷺ أربع ، وللقوم ركعتان (٢).

وفي رواية أبي عوانة : فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ،

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة ذات الرقاع ٢ / ٥٩٢ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذات الرقاع ٢ / ١١٨

(٢) صحيح البخاري ١ / ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٢ / ٥٩٣

فقال : من يمنعك مني ؟ قال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قال الأعرابي : أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، قال : فخلى سبيله . فجاء إلى قومه ، فقال جئتكم من عند خير الناس [1].

وفي رواية البخاري قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث[2] قال ابن حجر : ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور ، وأنه أسلم . لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان في غزوتين والله أعلم [3].

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق دما في أصحاب محمد ﷺ ، فجاء ليلا ، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيئة[4] للمسلمين من العدو ، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر ، فضرب عبادا وهو قائم يصلي بسهم فنزعه ، ولم يبطل صلاته ، حتى رشقه بثلاثة أسهم ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، فأيقظ صاحبه ، فقال : سبحان الله ، هلا نبهتني ، فقال : إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها [5]

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة ، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة ؛ نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترىء أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة ، بل استكانت شيئا فشيئا حتى استسلمت ، بل وأسلمت ، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة ، وتغزو حنينا ، وتأخذ من غنائمها ، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح ، فبهذا تم كسر

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٤ ، وانظر فتح الباري ٧ / ٤١٦

(٢) صحيح البخاري ٢ / ٥٩٣

(٣) فتح الباري ٧ / ٤٢٨ (٤) ربيئة : الشخص المخصص للمراقبة .

(٥) زاد المعاد ٢ / ١١٢ ، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢ / ٢٠٣ ، إلى ٢٠٩ ، زاد المعاد ٢ / ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، فتح الباري ٧ / ٤١٧ إلى ٤٢٨ .

الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الآحزاب ، وساد المنطقة الأمن والسلام ، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل ، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة ، لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين .

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧ هـ . وبعث في خلال ذلك عدة سرايا ، وهاك بعض تفصيلها :

١ ــ سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بقديد ، في صفر أو ربيع الأول سنة ٧ هـ . كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر . فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقوا النعم ، وطاردهم جيش كبير من العدو ، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر ، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين . ونجح المسلمون في بقية الانسحاب .

٢ ــ سرية حسمى في جمادى الثانية سنة ٧ هـ ، وقد مضى ذكرها في مكاتبة الملوك .

٣ ــ سرية عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة ٧ هـ . ومعه ثلاثون رجلا ، كانوا يسيرون الليل ويستخفون في النهار ، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا ، وجاء عمر إلى محالهم ، فلم يلق أحدا فانصرف راجعا إلى المدينة .

٤ ــ سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك في شعبان سنة ٧ هـ ، في ثلاثين رجلا . خرج إليهم واستاق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل ، فرموهم بالنبل حتى فنى نبل بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعا إلا بشير فإنه ارتث إلى فدك ، فأقام عند يهود ، حتى برأت جراحه ، فرجع إلى المدينة .

٥ ــ سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة ٧ هـ إلى بني عوال ، وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة ، وقيل إلى الحرقات من جهينة في مائة وثلاثين

رجلا ، فهجموا عليهم جميعا ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعما وشاء ، وفي هذه السرية قتل أسامةُ بن زيد مرداسَ بن نهيك بعد أن قال : لاإله إلا الله . فقال النبي ﷺ ، هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

٦ ـــ سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثين راكبا . وذلك أن أسيراً أو بشيراً بن زرام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين ، فأخرجوا أسيرا في ثلاثين من أصحابه ، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر ، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين .

٧ ـــ سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار (بالفتح ، أرض لغطفان وقيل لفزارة وعذرة) في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثمائة من المسلمين ، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة . فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسير بشير هربوا ، وأصاب بشير نعما كثيرة ، وأسر رجلين ، فقدم بهما إلى المدينة ، إلى رسول الله ﷺ ، فأسلما .

٨ ـــ سرية أبي حدرد الأسلمي إلى الغابة . ذكرها ابن القيم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء ، وملخصها أن رجلا من جشم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة ، يريد أن يجمع قيسا على محاربة المسلمين . فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين فاختار أبو حدرد خطة حربية حكيمة ، وهزم العدو هزيمة منكرة ، واستاق الكثير من الإبل والغنم[1] .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٤٩ ، ١٥٠ ، وانظر لتفصيل هذه السرايا رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، زاد المعاد ٢ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، تلقيح فهوم أهل الأثر مع حواشيها ص ٣١ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

عمرة القضاء

قال الحاكم : تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم ،وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معتمرين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان . أ هـ[1] .

واستخلف على المدينة عويف أبا رهم الغفارى ، وساق ستين بدنة ، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمى ، وأحرم للعمرة من ذى الحليفة ، ولبى ، ولبى المسلمون معه ، وخرج مستعدا بالسلاح والمقاتلة ، خشية أن يقع من قريش غدر ، فلما بلغ يأجج وضع الأداة كلها ، الحجف ، والمجان ، والنبل ، والرماح ، وخلف عليها أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل ، ودخل بسلاح الراكب والسيوف فى القرب[2].

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكبا على ناقته القصواء ، والمسلمون متوشحو السيوف ، محدقون برسول الله ﷺ يلبون .

وخرج المشركون إلى جبل قعيقعان ـــ الجبل الذى فى شمال الكعبة ـــ ليروا المسلمين ، وقد قالوا فيما بينهم : إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى

---

(١) فتح البارى ٧ / ٧٠٠ .

(٢) نفس المصدر وزاد المعاد ٢ / ١٥١ .

يثرب ، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا مابين الركنين . ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرسلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء ، وإنما أمرهم بذلك ليرى المشركين قوته[١] ، كما أمرهم بالاضطباع ، أى أن يكشفوا المناكب اليمنى ، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى .

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون ــ وقد صف المشركون ينظرون إليه ــ فلم يزل يلبى حتى استلم الركن بمحجنه ، ثم طاف ، وطاف المسلمون ، وعبد الله بن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ يرتجز متوشحا بالسيف :

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله ... فى صحف تتلى على رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله ... إنى رأيت الحق فى قبوله
بأن خير القتل فى سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[٢] .

وفى حديث أنس فقال عمر : يا ابن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ ، وفى حرم الله تقول الشعر ؟ . فقال له النبي ﷺ : خل عنه ياعمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل[٣] .

ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط ، فلما رآهم المشركون قالوا : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[٤] .

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٢١٨ ، ٢ / ٦١٠ ، ٦١١ ، صحيح مسلم ١ / ٤١٢ .
(٢) اضطربت الأشعار وترتيبها فى الروايات فجمعنا بين شتيتها .
(٣) رواه الترمذى ، أبواب الاستئذان والأدب ، باب ما جاء فى إنشاد الشعر ٢ / ١٠٧ .
(٤) صحيح مسلم ١ / ٤١٢ .

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة ، فلما فرغ من السعى ، وقد وقف الهدى عند المروة ، قال : هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر . فنحر عند المروة وحلق هناك ، وكذلك فعل المسلمون ، ثم بعث ناسا إلى يأجج ، فيقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثا ، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليا ، فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا ، فقد مضى الأجل ، فخرج النبى ﷺ ، ونزل بسرف فأقام بها .

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة ، تنادى ، ياعم ياعم ، فتناولها على ، واختصم فيها على وجعفر وزيد ، فقضى النبى ﷺ لجعفر ، لأن خالتها كانت تحته .

وفى هذه العمرة تزوج النبى ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية ، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول فى مكة بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة ، فجعلت أمرها إلى العباس ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها إياه ، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشى ، فبنى بها بسرف [(١)].

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية ، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أى المصالحة التى وقعت فى الحديبية ، والوجه الثانى رجحه المحققون [(٢)] وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء : القضاء ، والقضية ، والقصاص ، والصلح [(٣)].

وبعد الرجوع من عمرة القضاء بعث عدة سرايا ، هاك تفصيلها :

١ ــ سرية ابن أبى العوجاء ، فى ذى الحجة سنة ٧ هـ ، فى خمسين

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٥٢ .

(٢) انظر زاد المعاد ١ / ١٧٢ ، فتح البارى ٧ / ٥٠٠

(٣) انظر نفس المصدر الأخير .

رجلا بعثه رسول الله إلى بنى سليم ، ليدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى مادعوتنا ، ثم قاتلوا قتالا شديدا ، جرح فيه أبو العوجاء ، وأسر رجلان من العدو .

٢ ــ سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك فى صفر سنة ٨ هـ . بعث فى مائتى رجل ، فأصابوا من العدو نعما ، وقتلوا منهم قتلى .

٣ ــ سرية ذات أطلح فى ربيع الأول سنة ٨ هـ . كانت بنو قضاعة قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصارى فى خمسة عشر رجلا ، فلقوا العدو ، فدعوهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهدوا كلهم إلا رجل واحد ، فقد ارتث من بين القتلى (١).

٤ ــ سرية ذات عرق إلى بنى هوازن فى ربيع الأول سنة ٨ هـ . كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى ، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسدى فى خمسة وعشرين رجلا ، فاستاقوا نعما من العدو ، ولم يلقوا كيدا (٢)

---

(١) رحمة للعالمين ٢ / ٢٣١ .

(٢) نفس المصدر وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ص ٣٣ حاشية .

مَعْرَكَةُ مُؤْتَةَ

وهذه المعركة أكبر لقاء مثخن ، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ ، وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى ، وقعت في جمادى الأولى سنة ٨ هـ ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ م .

ومؤتة (بالضم فالسكون) هي قرية بأدنى بلقاء الشام ، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان .

سبب المعركة :

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ــ وكان عاملا على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر ــ فأوثقه رباطا ، ثم قدمه ، فضرب عنقه .

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم ، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليهم جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل [١]، وهو أكبر جيش إسلامي ، لم

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٥٥ ، فتح الباري ٧ / ٥١١ .

يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب .

أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم :

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة ، وقال : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة (١). وعقد لهم لواء أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة (٢).

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا مَن هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم ، وقاتلوهم ، وقال لهم : اغزوا بسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لاتغدروا ، ولاتغلوا ، ولاتقتلوا وليدا ولاامرأة ، ولاكبيرا فانيا ، ولا منعزلا بصومعة ، ولا تقطعوا نخلا ولاشجرة ، ولاتهدموا بناء (٣).

توديع الجيش الإسلامى وبكاء عبد الله بن رواحة :

ولما تهيأ الجيش الإسلامى للخروج حضر الناس ، وودعوا أمراء رسول الله ﷺ ، وسلموا عليهم ، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش ، عبد الله بن رواحة ، فقالوا : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ، ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ (١٩ : ٧١) فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صحبكم الله بالسلامة ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين غانمين ، فقال عبد الله بن رواحة .

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢ / ٦١١

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٧

(٣) نفس المصدر ، ورحمة للعالمين ٢ / ٢٧١

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع[1] تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي[2] أرشده الله من غاز، وقــــد رشدا

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله ﷺ مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف وودعهم[3].

تحرك الجيش الإسلامى ، ومباغته حالة رهيبة :

وتحرك الجيش الإسلامى فى اتجاه الشمال حتى نزل معان ، من أرض الشام ، مما يلى الحجاز الشمالى ، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى مائة ألف .

المجلس الاستشارى بمعان :

لم يكن المسلمون أدخلوا فى حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم ، الذى بوغتوا به فى هذه الأرض البعيدة ـــ وهل يهجم جيش صغير ، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب ، على جيش كبير عرمرم ، مثل البحر الخضم ، قوامه مائتا ألف مقاتل ؟ حار المسلمون ، وأقاموا فى معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وينظرون ويتشاورون ، ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأى ، وشجع الناس ، قائلا : ياقوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد

---

(١) الفرع : السعة (٢) الجدث : القبر

(٣) ابن هشام ٢ / ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٦ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٧ .

ولاقوة ولاكثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة . وأخيرا استقر الرأى على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة

الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو :

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان ، تحركوا إلى أرض العدو ، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء لها « مشارف » ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى مؤتة ، فعسكروا هناك ، وتعبأوا للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى ، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصارى .

بداية القتال ، وتناوب القواد :

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان ، وبدأ القتال المرير ، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل . معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة ، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب .

أخذ الراية زيد بن حارثة ــ حب رسول الله ﷺ ــ وجعل يقاتل بضراوة بالغة ، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإسلام ، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط فى رماح القوم ، وخر صريعا .

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، وطفق يقاتل قتالا منقطع النظير ، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، ولم يزل بها حتى قطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه ، فلم يزل رافعا إياها حتى قتل . يقال : إن روميا ضربه ضربة قطعته نصفين ، وأثابه الله بجناحيه جناحين فى الجنة ، يطير بهما حيث يشاء ، ولذلك سمى بجعفر الطيار ، وبجعفر ذى الجناحين .

روى البخارى عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ، ليس منها شيء في دبره . يعنى ظهره(١).

وفي رواية أخرى قال ابن عمر : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية(٢). وفي رواية العمرى عن نافع زيادة « فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده »(٣).

ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله ابن رواحة، وتقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... كارهة أو لتطاوعنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالى أراك تكرهين الجنه

ثم نزل ، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال : شد بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة ، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم ، فقاتل حتى قتل .

الراية إلى سيف من سيوف الله :

وحينئذ تقدم رجل من بنى عجلان ـــ اسمه ثابت بن أرقم ـــ فأخذ الراية وقال : يامعشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال :

---

(١) صحيح البخارى ، باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢ / ٦١١ .

(٢) نفس المصدر ٢ / ٦١١ .

(٣) انظر فتح البارى ٧ / ٥١٢ ، وظاهر الحديثين التخالف في العدد ، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمى السهام ، انظر المصدر المذكور .

ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية قاتل قتالا مريرا ، فقد روى البخارى عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية(1). وفى لفظ آخر : لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت فى يدى صفيحة لى يمانية(2).

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة ـــ مخبرا بالوحى ، قبل أن يأتى إلى الناس الخبر من ساحة القتال ـــ : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـــ وعيناه تذرفان ـــ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم(3).

نهاية المعركة :

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين كان مستغربا جدا أن ينجح هذا الجيش الصغير فى الصمود أمام تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم ، ففى ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه .

واختلفت الروايات كثيرا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرا . ويظهر بعد النظر فى جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار ، فى أول يوم من القتال ، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية ، تلقى الرعب فى قلوب الرومان ؛ حتى ينجح فى الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة ، فقد كان يعرف جيدا أن الإفلات من براثنهم صعب جدا لو انكشف المسلمون ، وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثانى غير أوضاع الجيش ، وعبأه من جديد ، فجعل

(1) صحيح البخارى باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢ / ٦١١
(2) نفس المصدر ٢ / ٦١١ .
(3) نفس المصدر ٢ / ٦١١ .

مقدمته ساقة ، وميمنته ميسرة ، وعلى العكس ، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم ، وقالوا : جاءهم مدد ، فرعبوا ، وصار خالد ـــ بعد أن تراآى الجيشان ، وتناوشا ساعة ـــ يتأخر بالمسلمين قليلا قليلا ، مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظنا منهم أن المسلمين يخدعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين ، ونجح المسلمون فى الانحياز سالمين ، حتى عادوا إلى المدينة[1] .

قتلى الفريقين :

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلا ، أما الرومان ، فلم يُعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم .

أثر المعركة :

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر ، الذى عانوا مرارتها لأجله ، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين ، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة ، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض ، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف ، فكان لقاء هذا الجيش الصغير ـــ ثلاثة آلاف مقاتل ـــ مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير ـــ مائتا ألف مقاتل ـــ ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر ، كان كل ذلك من عجائب الدهر ، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته ، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله ، وأن صاحبهم رسول الله حقا ، ولذلك نرى القبائل اللدودة التى كانت لاتزال تثور على

---

(١) انظر فتح البارى ٧ / ٥١٣ ، ٥١٤ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٦ ، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والتى قبلهما .

المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام ، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها .

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان ، فكانت توطئة وتمهيدا لفتوح البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية .

* * *

سرية ذات السلاسل :

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة ، من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين ، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان ، وتكون سببا للائتلاف بينها وبين المسلمين ،حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى .

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بلى ، فبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ٨ هـ على إثر معركة مؤتة ليستألفهم ، ويقال : بل نقلت الاستخبارات أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا ، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة ، فبعثه إليهم ، ويمكن أن يكون السببان اجتمعا معا .

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرسا ، وأمره أن يستعين بمن مر به من بلى وعذرة وبلقين ، فسار الليل وكمن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا ، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء ، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار — فيهم أبو بكر وعمر — وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جميعا ولا يختلفا ، فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت عليَّ مددا ، وأنا الأمير ، فأطاعه أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلي بالناس .

وسار حتى وطىء بلاد قضاعة ، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم ، ولقى فى آخر ذلك جمعا ، فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا .

وبعث عوف بن مالك الأشجعى بريدا إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم ، وما كان فى غزاتهم .

وذات السلاسل (بضم السين الأولى وفتحها : لغتان) بقعة وراء وادى القرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جذام يقال له السلسل ، فسمى ذات السلاسل(١) .

سرية أبى قتادة إلى خضرة :

كانت هذه السرية فى شعبان سنة ٨ هـ . وذلك لأن بنى غطفان كانوا يتحشدون فى خضرة ــ وهى أرض محارب بنجد ــ فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة فى خمسة عشر رجلا فقتل منهم ، وسبا وغنم ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة(٢) .

---

(١) انظر ابن هشام ٢ / ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٧ .
(٢) رحمة للعالمين ٢ / ٢٣٣ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٣٣ .

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم : هو الفتح الأعظم الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين ، من أيدى الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء ، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به في دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا أ هـ (١) .

سبب الغزوة :

قدمنا في وقعة الحديبية أن بندا من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد ـ ﷺ ـ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين تعتبر جزءا من ذلك الفريق ، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق .

وحسب هذا البند دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش ، وصارت كل من القبيلتين فى أمن من الأخرى ، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وثارات فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، ووقعت

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٠ .

هذه الهدنة ، وأمن كل فريق من الآخر اغتنمها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الديلى فى جماعة من بنى بكر فى شهر شعبان سنة ٨ هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلا ، وهم على ماء يقال له « الوتير » فأصابوا منهم رجالا ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم يابنى بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعى ، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فوقف عليه ، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال :

يارب إنى ناشد محمدا ... حلفنا وحلف أبيه الأتلدا[١]
قد كنتم ولدا وكنا والدا[٢] ... ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر ، هداك الله ، نصرا أيدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله ، قد تجردا ... أبيض مثل البدر ، يسمو صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا ... فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كداء رصدا ... وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل ، وأقل عددا ... هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا[٣]

---

(١) الأتلد : القديم ، يشير إلى الحلف الذى كان بين خزاعة وبين بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب .
(٢) يشير إلى أم عبد مناف — وهى حبى زوجة قصى — كانت من خزاعة .
(٣) يقول : قتلنا وقد أسلمنا .

فقال رسول الله ﷺ : نصرت ياعمرو بن سالم ، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة .

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح :

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرا محضا ونقضا صريحا للميثاق لم يكن له أى مبرر ، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها ، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة ، فعقدت مجلسا استشاريا ، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلا لها ؛ ليقوم بتجديد الصلح .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم . قال : كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد فى المدة .

وخرج أبو سفيان ــ حسب ما قررته قريش ــ فلقى بديل بن ورقاء بعسفان ــ وهو راجع من المدينة إلى مكة ــ فقال : من أين أقبلت يا بديل ؟ ــ وظن أنه أتى النبى ﷺ ــ فقال : سرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى . قال : أو ما جئت محمدا ؟ قال : لا .

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا .

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يابنية ، أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس . فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر ابن الخطاب فكلمه ، فقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : ياعلي ، إنك أمس القوم بي رحما ، وإني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لي إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة ، فقال : هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان ، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط : يأبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي ، فانصحني . قال : والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك . ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكني لم أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ، إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، وانطلق .

ولما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمدا فكلمته ، فوالله ما رد علي شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، قد أشار علي بشيء صنعته ، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئا أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا فهل أجاز ذلك محمدا ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء :

يؤخذ من رواية الطبراني أن رسول الله ﷺ أمر عائشة ـــ قبل أن يأتي

إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام ــ أن تجهزه ، ولا يعلم أحد ، فدخل عليها أبو بكر ، فقال : يا بنية ماهذا الجهاز ؟ قالت : والله ما أدرى . فقال : والله ماهذا زمان غزو بنى الأصفر ، فأين يريد رسول الله ؟ قالت : والله لا علم لى . وفى صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا ، وارتجز : يارب إنى ناشد محمدا .. الأبيات . فعلم الناس بنقض الميثاق ، وبعد عمرو جاء بديل ثم أبو سفيان وتأكد عند الناس الخبر ، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة . وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها .

وزيادة فى الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبى قتادة بن ربعى إلى بطن أضم فيما بين ذى خشب وذى المروة على ثلاثة برد من المدينة ، فى أول شهر رمضان سنة ٨ هـ ، ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ، ولتذهب بذلك الأخبار ، وواصلت هذه السرية سيرها ، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة ، فسارت إليه حتى لحقته(١) .

وكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى قرون رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليا والمقداد ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها ، وقالا : معك كتاب ؟ فقالت ما معى كتاب ،

---

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضبط ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فقتله محلم بن جثامة لشىء كان بينهما ، وأخذ بعيره ومتيعه ، فأنزل الله ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ الآية ، وجاءوا بمحلم ليستغفر له رسول الله ﷺ ، فلما قام بين يديه قال : اللهم لا تغفر لمحلم ، وقالها ثلاثا ، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه ، قال ابن إسحاق : وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك . انظر زاد المعاد ٢ / ١٥٠ ، وابن هشام ٢ / ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ .

ففتشا رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها علي : أحلف بالله ، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ حاطبا ، فقال : ما هذا ياحاطب ؟ فقال : لا تعجل عليّ يارسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش ، لست من أنفسهم ، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي . فقال عمر بن الخطاب : دعني يارسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فذرفت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم[1].

وهكذا أخذ الله العيون ، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة :

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك سنة ٨ هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متجها إلى مكة ، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري .

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلما مهاجرا ، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية ، فأعرض

(١) انظر صحيح البخاري ١ / ٤٢٢ ، ٢ / ٦١٢ .

عنهما ؛ لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك . وقال على لأبى سفيان بن الحارث : ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ (١٢ : ٩١) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا . ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم
الراحمين ﴾ (١٢ : ٩٢) فأنشده أبو سفيان أبياتا منها : ٧

لعمرك إنى حين أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى
هدانى هاد غير نفسى ودلنى ... على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتنى كل مطرد[1]

الجيش الإسلامى ينزل بمر الظهران :

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ الكديد ـــ وهو ماء بين عسفان وقديد ـــ فأفطر وأفطر الناس معه[2] ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران ـــ وادى فاطمة ـــ نزله عشاء ، فأمر الجيش ، فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

أبو سفيان بين يدى رسول الله ﷺ :

وركب العباس ـــ بعد نزول المسلمين بمر الظهران ـــ بغلة رسول الله

---

(١) حسن إسلام أبى سفيان هذا بعد ذلك ، ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وشهد له بالجنة ، وقال : أرجو أن يكون خلفا من حمزة . ولما حضرته الوفاة قال : لا تبكوا على ، فو الله ما تعلقت بخطيئة منذ أسلمت . زاد المعاد ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦١٣ .

ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحطابة أو أحدا يخبر قريشا ؛ ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إني لأسير عليها — أى على بغلة رسول الله ﷺ — إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا . قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة ، خمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتى ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبي وأمي . قلت : هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، واصباح قريش والله .

قال : فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي ، قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة ، حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، فركب خلفي ، ورجع صاحباه .

قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان ، عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ

فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دوني ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلا يا عمر ، فو الله لو كان من رجال بني عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلا يا عباس ، فو الله لإسلامك كان أحب إلى من إسلام الخطاب ، لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله ﷺ : اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به ، فذهبت ، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد .

قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ، قال : بأبى أنت وأمى ،ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيئا . فقال له العباس : ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

قال العباس : يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا . قال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

الجيش الإسلامى يغادر مر الظهران إلى مكة :

وفى هذا الصباح ــ صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ ــ غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل[(١)] حتى تمر به جنود الله فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ،كلما مرت به قبيلة قال : ياعباس من هذه ؟ فيقول ــ مثلا ــ : سليم ، فيقول : مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : ياعباس

(١) الخطم : الأنف ، شىء يخرج من الجبل يضيق به الطريق .

من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها ، فإذا أخبره قال مالي ولبني فلان ؟ حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لايرى منهم إلا الحدق من الحديد ، قال : سبحان الله ياعباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . ثم قال : والله ياأبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما . قال العباس : ياأبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة ،اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يارسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟ فقال : كذا كذا . فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يارسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد . وقيل : بل دفعه إلى الزبير .

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي :

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له العباس : النجاء إلى قومك . فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد ،قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمش الساقين ، قبح من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وبشوا أوباشا لهم ، وقالوا :

نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا . فتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان فيهم رجل من بنى بكر — حماس بن قيس — كان يعد قبل ذلك سلاحا ، فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم قال :

إن يُقبِلوا اليوم فمالى عَلَّه　　　هذا سلاح كامل وآله
وذو غرارين سريع السله [1]

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا فى الخندمة .

الجيش الإسلامى بذى طوى :

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى — وكان يضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل — وهناك وزع جيشه وكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى — وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب — فأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا ، حتى توافونى على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى ، وكان معه راية رسول الله ﷺ ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها — من كداء — وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر — وهم الذين لا سلاح معهم — فأمره أن يأخذ بطن الوادى ، حتى ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامى يدخل مكة :

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامى على الطريق التى كلفت

(١) علّه : يقال عَلَّ الرجل يعل من المرض ، غرارين : حدين ، السله : الانتشال والسحب .

الدخول منها فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه ، وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهرى وخنيس بن خالد بن ربيعة ، كانا قد شذا عن الجيش ، فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعا ، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخندمة فناوشوهم شيئا من قتال ، فأصابوا من المشركين اثنى عشر رجلا فانهزم المشركون ، وانهزم حماس بن قيس ـــ الذى كان يعد السلاح لقتال المسلمين ـــ حتى دخل بيته ، فقال لامرأته : أغلقى على بابى . فقالت : وأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمه
واستقبلتنا بالسيوف المسلمه ... يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضربا فلا يسمع إلا غمغمه ... لهم نهيت خلفنا وهمهمه[1]
لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا .

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، وضرب له هناك قبة ، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام :

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفى يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ﴾ (١٧ : ٨١) ﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ (٣٤ : ٤٩) والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقتصر على الطواف ، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها

---

(١) النهيت والهمهمة : أصوات .

ففتحت ، فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — يستقسمان بالأزلام ، فقال : قاتلهم الله ، والله مااستقسما بها قط . ورأى فى الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيت .

الرسول ﷺ يصلى فى الكعبة ثم يخطب أمام قريش :

ثم أغلق عليه الباب ، وعلى أسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب ، حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عمودين عن يساره ، وعمودا عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه — وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة — ثم صلى هناك ، ثم دار فى البيت ، وكبر فى نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضادتى الباب ، وهم تحته ، فقال :

لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد — السوط والعصا — ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية ﴿ يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ (٤٩ : ١٣) .

لاتثريب عليكم اليوم :

ثم قال : يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ

كريم وابن أخ كريم ، قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لاتثريب عليكم اليوم ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء .

- مفتاح البيت إلى أهله :

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه علىّ رضى الله عنه ، ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، وفى رواية : أن الذى قال ذلك هو العباس ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال له : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ، وفى رواية ابن سعد فى الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه : خذوها خالدة تالدة ، لاينزعها منكم إلا ظالم ، ياعثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

بلال يؤذن على الكعبة :

وحانت الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيدا أن لايكون سمع هذا ، فيسمع منه مايغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبى ﷺ فقال لهم : قد علمت الذى قلتم ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله مااطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك .

صلاة الفتح أو صلاة الشكر :

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانىء بنت أبى طالب ، فاغتسل وصلى ثمانى ركعات فى بيتها ، وكان ضحى ، فظنها من ظنها صلاة الضحى

وإنما هذه صلاة الفتح ، وأجارت أم هانىء حموين لها ، فقال رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرت ياأم هانىء ، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما ، فأغلقت عليهما باب بيتها ، وسألت النبي ﷺ ، فقال لها ذلك .

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين :

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين ، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، وهم عبد العزى بن خطل ، وعبد الله ابن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس ابن صبابة ، وهبار بن الأسود ، وقينتان كانتا لابن خطل ، كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وهي التي وجد معها كتاب حاطب .

فأما ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ ، وشفع فيه فحقن دمه ، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه ، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر ، ثم ارتد ورجع إلى مكة .

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن ، فاستأمنت له امرأته ، فأمنه النبي ﷺ فتبعته ، فرجع معها وأسلم ، وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل فكان متعلقا بأستار الكعبة ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال : اقتله . فقتله .

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله ، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك ، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ، ثم ارتد ولحق بالمشركين .

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة ، فقتله علي .

وأما هبار بن الأسود فهو الذى كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ، ففر هبار يوم مكة ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

وأما القينتان فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرى ، فأسلمت ، كما استؤمن لسارة وأسلمت .

قال ابن حجر : وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلاطل الخزاعى فقتله على ، وذكر الحاكم أيضا ممن أهدر دمه كعب بن زهير ، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك ، وأسلم ومدح ، ووحشى بن حرب ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، وقد أسلمت ، وأرنب مولاة ابن خطل أيضا قتلت ، وأم سعد ، قتلت فيما ذكر ابن إسحاق ، فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة ، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان ، اختلف فى اسمهما ، أو باعتبار الكنية واللقب[1] .

إسلام صفوان بن أمية ، وفضالة بن عمير :

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه ، لكنه بصفته زعيما كبيرا من زعماء قريش خاف على نفسه وفر ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ﷺ فأمنه ، وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فرده ، فقال لرسول الله ﷺ : اجعلنى بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر . ثم أسلم صفوان ، وقد كانت امرأته أسلمت قبله ، فأقرهما على النكاح الأول .

وكان فضالة رجلا جريئا جاء إلى رسول الله ﷺ ، وهو فى الطواف ، ليقتله فأخبره الرسول ﷺ بما فى نفسه فأسلم .

خطبة الرسول ﷺ فى اليوم الثانى من الفتح :

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ فى الناس خطيبا ، فحمد

---

(١) فتح البارى ٨ / ١١ ، ١٢ .

الله ، وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهله ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات الأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي رواية : لايعضد شوكه ، ولاينفر صيده ، ولاتلتقط ساقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاه ، فقال العباس : يارسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم وبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر .

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : يامعشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاءوا فدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله .

وفي رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له « أبو شاه » فقال : اكتب لي يارسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأبي شاه[1] .

تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة :

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ ـــ وهي بلده ووطنه ومولده ـــ قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ـــ وهو يدعو على الصفا رافعا يديه ـــ فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لاشيء يارسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم .

---

(١) انظر لهذه الروايات صحيح البخاري ١ / ٢٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٢ ـــ ٢ / ٦١٥ ، ٦١٧ ، وصحيح مسلم ١ / ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، وابن هشام ٢ / ٤١٥ ، ٤١٦ ، أبو داود ١ / ٢٧٦ .

أخذ البيعة :

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة الحق ، وعلموا أن لاسبيل إلى النجاح إلا الإسلام ، فأذعنوا له ، واجتمعوا للبيعة ، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه ، يأخذ على الناس ، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وفي المدارك[1] : روى أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعمر قاعد أسفل منه ، يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة خوفا من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله ﷺ : أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا ، فبايع عمر النساء على أن لايشركن بالله شيئا . فقال رسول الله ﷺ : ولاتسرقن . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنات ؟ فقال أبو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال : وإنك لهند ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يانبي الله ، عفا الله عنك .

فقال : ولايزنين . فقالت : أو تزني الحرة ؟ فقال : ولايقتلن أولادهن . فقالت : ربيناهم صغارا ، وقتلتموهم كبارا ، فأنتم وهم أعلم ــ وكان ابنها حنظلة ابن أبي سفيان قد قتل يوم بدر ــ فضحك عمر حتى استلقى ، فتبسم رسول الله ﷺ .

فقال : ولا يأتين ببهتان . فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وماتأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ولايعصينك في معروف . فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك .

---

(١) انظر مدارك التنزيل للنسفي تفسير آية البيعة .

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك في غرور .

إقامته ﷺ بمكة ، وعمله فيها :

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوما ، يجدد معالم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى ، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعى ، فجدد أنصاب الحرم ، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ، ولكسر الأوثان التى كانت حول مكة ، فكسرت كلها ، ونادى منادية بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره .

السرايا والبعوث :

١ — ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى ، لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدمها ، وكانت بنخلة ، وكانت لقريش وجميع بنى كنانة ، وهى أعظم أصنامهم ، وكان سدنتها بنى شيبان ، فخرج إليها خالد فى ثلاثين فارسا حتى انتهى إليها ، فهدمها ، ولما رجع سأله رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها ، فرجع خالد متغيظا قد جرد سيفه ، فخرجت إليه إمرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجزلها باثنتين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العزى ، وقد أيست أن تعبد فى بلادكم أبدا .

٢ — ثم بعث عمرو بن العاص فى نفس الشهر إلى سواع ليهدمه ، وهو صنم لهذيل برهاط ، على ثلاثة أميال من مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن : ماتريد ؟ قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لاتقدر على ذلك ، قال : لم ؟ قال : تمنع . قال : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ، فهل يسمع أو يبصر ؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته ، فلم يجدوا فيه شيئا ، ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله .

٣ ـــ وفى نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارسا إلى مناة ، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادتها : ماتريد ؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد ، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها ، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك ، فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا فى خزانته شيئا .

٤ ـــ ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ فى شعبان من نفس السنة (٨ هـ) إلى بنى جذيمة ، داعيا إلى الإسلام ، لا مقاتلا . فخرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم ، فانتهى إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : « صبأنا صبأنا » فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيرا ، فأمر يوما أن يقتل كل رجل أسيره ، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبى ﷺ ، فذكروا له ، فرفع ﷺ يديه وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ـــ مرتين ـــ[١] .

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار ، وبعث رسول الله ﷺ عليا فودى لهم قتلاهم وماذهب منهم ، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر فى ذلك ، فبلغ ﷺ فقال : مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فو الله لو كان أُحُدٌ ذهبا ، ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته[٢].

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٤٥٠ ، ٢ / ٦٢٢

(٢) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢ / ٣٨٩ إلى ٤٣٧ ، وصحيح البخارى ١ / كتاب الحج وكتاب المناسك و ٢ / ٦١٢ إلى ٦١٥ ، ٦٢٢ ، فتح البارى ٨ / ٣ إلى ٢٧ ، وصحيح مسلم ١ / ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٢ / ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ، وزاد المعاد ٢ / ١٦٠ إلى ١٦٨ ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٢ إلى ٣٥١ .

تلك هى غزوة فتح مكة ، وهى المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذى قضى على كيان الوثنية قضاء باتا ، لم يترك لبقائها مجالا ولا مبررا فى ربوع الجزيرة العربية ، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والاصطدام الذى كان دائرا بين المسلمين والوثنيين ، وكانت تلك القبائل تعرف جيدا أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق ، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أى تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت ، فأهلكوا وجعلوا كعصف مأكول .

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضا ، وناظره فى الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير فى الإسلام ، حتى إن عدد الجيش الإسلامى الذى لم يزد فى الغزوات السالفة على ثلاثة آلاف إذا هو يزخر فى هذه الغزوة فى عشرة آلاف .

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس ، وأزالت عنها آخر الستور التى كانت تحول بينها وبين الإسلام . وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسى والدينى كليهما معا فى طول جزيرة العرب وعرضها ، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدنيوية .

فالطور الذى كان قد بدأ بعد هدنة الحديبية لصالح المسلمين قد تم ، وكمل بهذا الفتح المبين ، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تماما ، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تماما . ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى الرسول ﷺ ، فيعتنقوا الإسلام ، ويحملوا دعوته إلى العالم ، وقد تم استعدادهم لذلك فى سنتين آتيتين .

المرحلة الثالثة

وهى آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ ، تمثل النتائج التى أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية ، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عاما .

وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون فى هذه الأعوام ، تغير لأجله مجرى الأيام ، وتحول به جو العرب ، فقد كان الفتح حدا فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده ، فإن قريشا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره ، والعرب فى ذلك تبع لهم ، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب .

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين :

(١) صفحة المجاهدة والقتال .

(٢) صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام .

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا فى هذه المرحلة ، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى ، إلا أنا اخترنا فى الترتيب الوضعى ، أن نأتى على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى ، ونظرا إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى ، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها فى الترتيب .

غَـزْوَةُ حُنَيْن

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شده لها العرب ، وبوغتت القبائل المجاورة بالأمر الواقع ، الذى لم يكن يمكن لها أن تدفعه ، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة ، وفى مقدمتها بطون هوازن وثقيف ، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال ــ وكلها من قيس عيلان ــ رأت هذه البطون من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع ، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصرى ، وقررت المسير إلى حرب المسلمين .

مسير العدو ونزوله بأوطاس :

ولما أجمع القائد العام ــ مالك بن عوف ــ المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فسار حتى نزل بأوطاس ــ وهو واد فى دار هوازن بالقرب من حنين ، لكن وادى أوطاس غير وادى حنين ، وحنين واد إلى جنب ذى المجاز ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات[1] .

---

(١) انظر فتح البارى ٨ / ٢٧ ، ٤٢ .

مجرب الحروب يغلط رأى القائد :

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة ــ وهو شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعا مجربا ــ قال دريد : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصبى وثغاء الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم ، فدعا مالكا وسأله عما حمله على ذلك ، فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيئا ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك . ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء ، ثم قال : يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئا ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ، ثم ألق الصباة على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

ولكن مالكا ــ القائد العام ــ رفض هذا الطلب قائلا : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعنى هوازن أو لأتكأن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأى ، فقالوا : أطعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى .

يا ليتنى فيها جذع　　　أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الدمع　　　كأنها شاة صدع

سلاح استكشاف العدو :

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين ، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم . قال : ويلكم ، ماشأنكم ؟ قالوا :

رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى .

سلاح استكشاف رسول الله ﷺ :

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو ، فبعث أبا حدرد الأسلمى ، وأمره أن يدخل فى الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل .

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين :

وفى يوم السبت ـــ السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ ـــ غادر رسول الله ﷺ مكة ـــ وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله فى مكة ـــ خرج فى اثنى عشر ألفا من المسلمين ، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد .

ولما كان عشية جاء فارس ، فقال : إنى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله ، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبى مرثد الغنوى[١] .

وفى طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط ، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ويعكفون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر ، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلها كما

(١) انظر سنن أبى داود

لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم[1] .

وقد كان بعضهم قال نظرا إلى كثرة الجيش : لن نغلب اليوم ، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يباغت الرماة والمهاجين :

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء لعشر خلون من شوال ، وكان مالك بن عوف قد سبقهم ، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي ، وفرق كمناءه في الطرق والمداخل ، والشعاب والأخباء والمضايق ، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا ، ثم يشدوا شدة رجل واحد .

وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس ، وفي عماية الصبح استقبل المسلمون وادي حنين ، وشرعوا ينحدرون فيه ، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو في مضايق هذا الوادي ، فبينما هم ينحطون إذا تمطر عليهم النبال ، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، فانشمر المسلمون راجعين ، لا يلوي أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة ، حتى قال أبو سفيان بن حرب ، وهو حديث عهد بالإسلام : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ــ الأحمر ــ وصرخ جبلة أو كلدة بن الجنيد : ألا بطل السحر اليوم .

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول : هلموا إليّ أيها الناس ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته .

---

(١) روى ذلك الترمذي .

وحينئذ ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها . فقد طفق يركض بغلته قِبَل الكفار وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذا بلجام بغلته ، والعباس بركابه ، يكفانها ، أن لا تسرع . ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلا : اللهم أنزل نصرك .

رجوع المسلمين واحتدام المعركة :

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس ــ وكان جهير الصوت ــ أن ينادى الصحابة قال العباس : فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السمرة ؟ قال : فو الله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يالبيك ، يالبيك[1] . ويذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه ، فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار ، يا معشر الأنصار ، يامعشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة فى بنى الحارث بن الخزرج ، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة . وتجالد الفريقان مجالدة شديدة ، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال ، وقد استحر واحتدم ، فقال : « الآن حمى الوطيس » . ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض ، فرمى بها فى وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه ، فما خلق الله إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة ، فلم يزل حدهم كليلا وأمرهم مدبرا .

---

(١) صحيح مسلم ٢ / ١٠٠ .

انكسار حدة العدو ، وهزيمته الساحقة :

وما هي إلا ساعات قلائل ـــ بعد رمى القبضة ـــ حتى انهزم العدو هزيمة منكرة ، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين ، وحاز المسلمون ماكان مع العدو من مال وسلاح وظعن .

وهذا هو التطور الذى أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ (٩ : ٢٥ ، ٢٦) .

حركة المطاردة :

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف ، وطائفة إلى نخلة ، وطائفة إلى أوطاس ، فأرسل النبى ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعرى ، فتناوش الفريقان القتال قليلا ، ثم انهزم جيش المشركين ، وفى هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعرى .

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة ، فأدركت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع .

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف ؛ فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم .

الغنائم :

وكانت الغنائم : السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله ﷺ بجمعها ،

ثم حبسها بالجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى ، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف .

وكانت فى السبى الشيماء بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فلما جيء بها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها فعرفها بعلامة فأكرمها ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، ثم من عليها ، وردها إلى قومها .

غزوة الطائف :

وهذه الغزوة فى الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام — مالك بن عوف النصرى — وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة فى نفس الشهر — شوال سنة ٨ هـ .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة فى ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فمر فى طريقه على النخلة اليمانية ، ثم على قرن المنازل ، ثم على لية ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبا من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففى رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوما ، وعند أهل السير خلاف فى ذلك ، فقيل : عشرين يوما ، وقيل : بضعة عشر ، وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر(١) .

ووقعت فى هذه المدة مراماة ومقاذفات ، فالمسلمون أول مافرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميا شديدا كأنه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلا ، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

---

(١) فتح البارى ٨ / ٤٥ .

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقذف به القذائف ، حتى وقعت شدخة في جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة [1] ، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالا .

وأمر رسول الله ﷺ — كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام — أمر بقطع الأعناب وتحريقها . فقطعها المسلمون قطعا ذريعا ، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم ، فتركها لله والرحم .

ونادى مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون[2] رجلا فيهم أبو بكرة — تسور حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها ، فكناه رسول الله ﷺ « أبا بكرة » — فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

ولما طال الحصار ، واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة — وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه مايكفيهم لحصار سنة — استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلى فقال : هم ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذن فى الناس : إنا قافلون غدا إن شاء الله ، فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله ﷺ : اغدوا على القتال ، فغدوا فأصابهم جراح ، فقال : إنا قافلون غدا إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك .

---

(١) لم تكن الدبابة كدباباتنا اليوم ، وإنما كانت تصنع من الخشب ، كان الناس يدخلون فى جوفها ثم يدفعونها فى أصل الحصن لينقبوه وهم فى جوفها ، أو ليدخلوا من النقبات .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٢٠ .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال : قولوا : آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .

وقيل : يارسول الله ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفا وآت بهم .

قسمة الغنائم بالجعرانة :

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف ؛ مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لايقسم الغنائم ، ويتأنى بها ، يبتغي أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا ، ولكنه لم يجئه أحد ، فبدأ بقسمة المال ، ليسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة ، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظى بالأنصبة الجزلة .

وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، فقال : ابني يزيد ؟ فأعطاه مثلها ، فقال : ابني معاوية ؟ فأعطاه مثلها ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى ، فأعطاه إياها . وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة ـــ كذا في الشفاء[1] ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل ، وكذلك أعطى رجالا من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل ، وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين حتى شاع في الناس أن محمدا يعطي عطاء ما يخاف الفقر ، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه فقال : أيها الناس ردوا على ردائي ، فو الذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا .

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبرة ، فجعلها بين إصبعه ، ثم رفعها ، فقال : أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ، ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ١ / ٨٦ .

الغنائم والناس ، ثم فرضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعا من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارسا أخذ اثنى عشر بعيرا وعشرين ومائة شاة .

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة ، فإن فى الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة ، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له(١) .

الأنصار تجد على رسول الله ﷺ :

وهذه السياسة لم تُفهم أول الأمر ، فأطلقت ألسنة شتى بالاعتراض ، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة ، لقد حرموا جميعا أعطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصارا ، وهاهم أولاء يرون أيدى الفارين ملأى ، وأما هم فلم يمنحوا شيئا قط(٢) .

روى ابن إسحاق عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ماأعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يارسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ؛ قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يارسول الله ماأنا إلا من قومى : قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ، فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال :

(١ ـــ ٢) كلمة لمحمد الغزالى فى فقه السيرة ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

لقد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

يامعشر الأنصار مقالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها علىَّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : آتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك .

أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الأنصار شعبا ؛ لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا(١) .

قدوم وفد هوازن :

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلما ، وهم أربعة عشر رجلا ، ورأسهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فسألوه أن يمن عليهم بالسبى والأموال ، وأدلوا إليه بكلام ترق له القلوب ، فقال : إن معى من

---

(١) ابن هشام ٢ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، وروى مثل ذلك البخارى ٢ / ٦٢٠ ، ٦٢١ .

ترون ، وإن أحب الحديث إلى أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ماكنا نعدل بالأحساب شيئا . فقال : إذا صليت الغداة — أى صلاة الظهر — فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا ، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : أما ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأسأل لكم الناس ، فقال المهاجرون والأنصار : ماكان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت بنو سليم : ماكان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال العباس بن مرداس : وهنتمونى .

فقال رسول الله ﷺ : إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا . فمن كان عنده منهن شىء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول مايفىء الله علينا ، فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله ﷺ فقال : إنا لانعرف من رضى منكم ممن لم يرض . فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزا صارت فى يديه منهم ، ثم ردها بعد ذلك ، وكسا رسول الله ﷺ السبى قبطية قبطية .

العمرة والانصراف إلى المدينة :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم فى الجعرانة أَهَلّ معتمرا منها ، فأدى العمرة ، وانصرف بعد ذلك راجعا إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب ابن أسيد ، وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة سنة ٨ هـ .

قال محمد الغزالى : لله ماأفسح المدى الذى بين هذه الآونة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين ، وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام ؟

لقد جاءه مطاردا يبغى الأمان ، غريبا مستوحشا ينشد الإيلاف والإيناس ، فأكرم أهله مثواه ، وآووه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعا من أجله ، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التى استقبلته مهاجرا خائفا ؛ لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة ، وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها فأنهضها ؛ ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئاتها الأولى ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ (١٢ : ٩٠)[١] .

---

(١) فقه السيرة ص ٣٠٣ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوات ــ فتح مكة وحنين والطائف ، وما وقع خلالها ــ زاد المعاد ج ٢ من ص ١٦٠ إلى ٢٠١ ، وابن هشام ج ٢ من ص ٣٨٩ إلى ٥٠١ ، وصحيح البخارى أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ج ٢ من ص ٦١٢ إلى ٦٢٢ ، وفتح البارى ج ٨ من ص ٣ إلى ٥٨ .

البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود ، ويبعث العمال ، ويبث الدعاة ، ويكبت من بقى فيه الاستكبار عن الدخول فى دين الله ، والاستسلام للأمر الواقع الذى شاهدته العرب. وهاك صورة مصغرة من ذلك :

المصدقون :

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان فى أواخر أيام السنة الثامنة فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩ هـ ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل . وهذه هى قائمتهم :

(١) عيينة بن حصن	إلى بنى تميم .
(٢) يزيد بن الحصين	إلى أسلم وغفار .
(٣) عباد بن بشير الأشهلى	إلى سليم ومزينة .
(٤) رافع بن مكيث	إلى جهينة .
(٥) عمرو بن العاص	إلى بنى فزارة .
(٦) الضحاك بن سفيان	إلى بنى كلاب .
(٧) بشير بن سفيان	إلى بنى كعب .
(٨) ابن اللتبية الأزدى	إلى بنى ذبيان .

(٩) المهاجر بن أبى أمية	إلى صنعاء . (وخرج عليه الأسود العنسى وهو بها) .
(١٠) زياد بن لبيد	إلى حضرموت .
(١١) عدى بن حاتم	إلى طىء وبنى أسد .
(١٢) مالك بن نويرة	إلى بنى حنظلة .
(١٣) الزبرقان بن بدر	إلى بنى سعد . (إلى قسم منهم) .
(١٤) قيس بن عاصم	إلى بنى سعد (إلى قسم آخر منهم) .
(١٥) العلاء بن الحضرمى	إلى البحرين .
(١٦) على بن أبى طالب	إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما) .

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا فى المحرم سنة ٩هـ ؛ بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التى بعثوا إليها . نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ فى المحرم سنة ٩هـ . وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية ، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا .

السرايا :

وكما بعث المصدقون إلى القبائل ، مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا ، مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة . وهاك لوحة تلك السرايا :

١ — سرية عيينة بن حصن الفزارى — فى المحرم سنة ٩هـ — إلى بنى تميم ، فى خمسين فارسا ، لم يكن فيهم مهاجرى ولا أنصارى ، وسببها أن بنى تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعوهم عن أداء الجزية .

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل ويكمن النهار ، حتى هجم عليهم فى الصحراء ، فولى القوم مدبرين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا ، وساقهم إلى المدينة ، فأنزلوا فى دار رملة بنت الحارث .

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ ، فنادوا : يامحمد اخرج إلينا ، فخرج فتعلقوا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس في صحن المسجد ، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة ، وقدموا خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس — خطيب الإسلام — فأجابهم ، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخرا ، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : خطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم[١] .

٢ — سرية قطبة بن عامر إلى حي من خثعم بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، في صفر سنة ٩هـ . خرج قطبة في عشرين رجلا على عشرة أبعرة يعتقبونها ، فشن الغارة ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعا ، وقتل قطبة مع من قتل ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣ — سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة ٩هـ . بعثت هذه السرية إلى بني كلاب ؛ لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم رجلا .

٤ — سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى سواحل جدة في شهر ربيع الآخر سنة ٩هـ في ثلاثمائة . بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا

---

(١) هكذا ذكره أهل المغازي أن هذه السرية كانت في المحرم سنة ٩ هـ . وفيه نظر ظاهر ، فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلم قبلها ، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذي قال حين استرد رسول الله ﷺ سبايا بني هوازن : أما أنا وبنو تميم فلا . وهذا يقتضي إسلامه قبل هذه السرية .

بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة . فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة . فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا[1] .

٥ — سرية علي بن أبي طالب إلى صنم لطيء . يقال له القلس — ليهدمه — في شهر ربيع الأول سنة ٩هـ . بعثه رسول الله ﷺ في خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرسا ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلة حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء ، وفي السبي أخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام ، ووجد المسلمون في خزانة القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفي الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفى لرسول الله ﷺ . ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدى بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة : يارسول الله ، غاب الوافد وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، مابي من خدمة ، فَمُنَّ عليَّ ، مَنَّ الله عليك . قال : من وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم . قال : الذي فر من الله ورسوله ؟ ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك ، وقال لها مثل ماقال أمس . فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك ، فَمَنَّ عليها ، وكان إلى جنبه رجل — ترى أنه علي — فقال لها : سليه الحملان . فسألته ، فأمر لها به .

ورجعت أخت عدى بن حاتم إلى أخيها عدى بالشام ، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائته راغبا أو راهبا ، فجاءه عدى بغير أمان ولا كتاب ، فأتى به إلى داره ، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : مايفرك ؟ أيفرك أن تقول : لا إله إلا الله ؛ ؟ فهل تعلم من إله سوى الله ؟ قال : لا . ثم تكلم ساعة ثم قال : إنما تفر أن يقال : الله أكبر فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ قال : لا . قال : فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون . قال : فإني حنيف مسلم . فانبسط وجهه فرحا ، وأمر به

---

(١) فتح الباري ٨ / ٥٩ .

فنزل عند رجل من الأنصار ، وجعل يأتي النبي ﷺ طرفي النهار[1] .

وفى رواية ابن إسحاق عن عدى : أن النبي ﷺ لما أجلسه بين يديه فى داره قال له : إيه ياعدى بن حاتم ، ألم تكن ركوسيا ؟ قال : قلت : بلى . قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قال : قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يحل لك فى دينك . قال : قلت أجل والله . قال : وعرفت أنه نبى مرسل ، يعرف مايجهل[2] .

وفى رواية لأحمد أن النبي ﷺ قال : ياعدى أسلم تسلم . فقلت إنى من أهل دين . قال . أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم ، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ فقلت : بلى قال : فإن هذا لايحل لك فى دينك . قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها[3] .

وروى البخارى عن عدى قال : بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقه ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : ياعدى ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لاتخاف أحدا إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله ، فلا يجد أحدا يقبله منه ـــ الحديث ـــ وفى آخره : قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف إلا الله ، وكنت فيمن أفتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال النبي أبو القاسم ﷺ « يخرج ملء كفه »[4] .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٢٠٥ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٥٨١ .

(٣) مسند الإمام أحمد .

(٤) صحيح البخارى انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢٤ .

غزوة تبوك
في رجب سنة ٩ هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل : لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب ، ولذلك انقلب المجرى تماما ، ودخل الناس في دين الله أفواجا — كما سيظهر ذلك مما تقدمه في فصل الوفود ، ومن العدد الذى حضر في حجة الوداع — وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون ؛ لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوة :

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهى قوة الرومان — أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان — وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ — الحارث بن عمير الأزدي — على يدى شرحبيل بن عمرو الغساني ، حينما كان السفير يحمل رسالة النبى ﷺ إلى عظيم بصرى ، وأن النبى ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التى اصطدمت بالرومان اصطداما عنيفا في مؤتة ، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين ، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب ، قريبهم وبعيدهم

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح

المسلمين ، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر ، ومواطأتهم للمسلمين ، إن هذا كان خطرا يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد الثغور الشامية التي تجاور العرب ، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لايمكن القضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان

ونظرا إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة ؛ حتى أخذ يهيء الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة .

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان :

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين ، لايسمعون صوتا غير معتاد إلا ويظنونه :حف الرومان ، ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهرا في هذه السنة (٩هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له ، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق ، يقول عمر بن الخطاب ــ وهو يروى هذه القصة ــ : وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر ــ وكانا يسكنان في عوالي المدينة ، يتناوبان إلى النبي ﷺ ــ ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب ، فقال : افتح ، افتح ، فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . الحديث[1] .

(١) صحيح البخارى ٢ / ٧٣٠ .

وفى لفظ آخر (أنه قال) : وكنا نحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته ، فرجع عشاء ، فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أنائم هو ؟ ففزعت ، فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم . فقلت : ماهو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله ﷺ نساءه . الحديث[1] .

وهذا يدل على خطورة الموقف . الذى كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان . ويزيد ذلك تأكدا مافعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم مارآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ فى كل الميادين ، وأنه لايوجل من سلطان على ظهر الأرض ، بل يذيب كل مايعترض فى طريقه من عوائق ، برغم هذا كله طفق هؤلاء المنافقون يأملون فى تحقق ماكانوا يخفونه فى صدورهم ، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله . ونظرا إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر ، فى صورة مسجد ، وهو مسجد الضرار ، أسسوه كفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله ، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين ، فلا يفطنوا مايؤتى به فى هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم ، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه ، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم فى الخارج ، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه — إلى قفوله من الغزوة — لشغله بالجهاز ، ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله ، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو ، بدل أن يصلى فيه .

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان :

كانت هذه هى الأحوال والأخبار التى يواجهها ويتلقاها المسلمون ، إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ

---

(١) نفس المصدر ١ / ٣٣٤ .

جيشا عرمرما قوامه أربعون ألف مقاتل ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجزام وغيرهما من متنصرة العرب ، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء . وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير .

زيادة خطورة الموقف :

والذى كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد ، وكان الناس فى عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر ، وكانت الثمار قد طابت ، فكانوا يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال ، من الزمان الذى هم فيه ، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة ، والطريق وعرة صعبة .

الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم :

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله . إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان فى هذه الظروف الحاسمة ، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التى كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه ، وتزحف إلى المدينة ؛ كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية ، وعلى سمعة المسلمين العسكرية ، فالجاهلية التى تلفظ نفسها الأخير بعد مالقيت من الضربة القاسمة فى حنين ستحيا مرة أخرى ، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبى عامر الفاسق سيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف ، فى حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام ، وهكذا يخفق كثير من الجهود التى بذلها هو وأصحابه فى نشر الإسلام ، وتذهب المكاسب التى حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة ... تذهب هذه المكاسب بغير جدوى .

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيدا ، ولذلك قرر القيام — مع ماكان فيه من العسرة والشدة — بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان فى

حدودهم ، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام .

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان :

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال ، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم ، وكان قل مايريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، ولكنه نظرا إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان ، وجلى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة ، وحضهم على الجهاد ، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلاد ، وتحثهم على القتال . ورغبهم رسول الله ﷺ فى بذل الصدقات ، وإنفاق كرائم الأموال فى سبيل الله .

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو :

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله ، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة ــ إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر ــ حتى كان يجىء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم : ﴿ لاأجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون ﴾ . (٩ : ٩٢)

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات . كان عثمان بن عفان قد جهز عيرا للشام ، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، فتصدق بها ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بألف دينار فنثرها فى حجره ﷺ ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول : ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم[١] ،

---

(١) جامع الترمذى . مناقب عثمان بن عفان ٢ / ٢١١ .

ثم تصدق وتصدق ، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة ، وجاء أبو بكر بماله كله ، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله — وكانت أربعة آلاف درهم ، وهو أول من جاء بصدقته ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة وسعد ابن عبادة ومحمد بن مسلمة ، كلهم جاءوا بمال ، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقا من التمر ، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أنفق مدا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها ؛ وبعثت النساء ماقدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم .

ولم يمسك أحد يده ، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ﴾ (٩ : ٧٩)

الجيش الإسلامى إلى تبوك :

وهكذا تجهز الجيش ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى ، وقيل سباع بن عرفطة ، وخلف على أهله على بن أبى طالب ، وأمره بالإقامة فيهم ، وغمص عليه المنافقون ، فخرج فلحق برسول الله ﷺ ، فرده إلى المدينة وقال : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لانبى بعدى .

ثم تحرك رسول الله ﷺ يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك ، ولكن الجيش كان كبيراً — ثلاثون ألف مقاتل ، لم يخرج المسلمون فى مثل هذا الجمع الكبير قبله قط — فلم يستطع المسلمون مع مابذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزا كاملا . بل كانت فى الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب ، فكان ثمانية عشر رجلا يعتقبون بعيرا واحدا وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم ، واضطروا

إلى ذبح البعير ــ مع قلتها ــ ليشربوا مافى كرشه من الماء ، ولذلك سمى هذا الجيش جيش العسرة .

ومر الجيش الإسلامى فى طريقه إلى تبوك بالحجر ــ ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، أى وادى القرى ــ فاستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة . وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئا ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح عليه السلام .

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبى ﷺ بالحجر قال : لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ؛ أن يصيبكم ماأصابهم ، إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى(١) .

واشتدت فى الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجاتهم من الماء .

ولما قرب من تبوك قال : إنكم ستأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى . قال معاذ : فجئنا وقد سبق إليها رجلان ، والعين تبض بشىء من مائها ، فسألهما رسول الله ﷺ : هل مسستما من مائها شيئا ؟ قالا : نعم . وقال لهما ماشاء الله أن يقول ، ثم غرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع الوشل ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ماههنا قد ملىء جنانا(٢) .

وفى الطريق أو لما بلغ تبوك ــ على اختلاف الروايات ــ قال رسول الله

(١) صحيح البخارى باب نزول النبى ﷺ الحجر ٢ / ٦٣٧ .
(٢) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢ / ٢٤٦ .

ﷺ : تهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله ، فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء(١) .

وكان دأب رسول الله ﷺ في الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كليهما .

الجيش الإسلامي بتبوك :

نزل الجيش الإسلامي بتبوك ، فعسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبا ، فخطب خطبة بليغة ، أتى بجوامع الكلم ، وحض على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ، وبشر وأبشر ، حتى رفع معنوياتهم ، وجبر بها ماكان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة . وأما الرومان وحُلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية ، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية . وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة ، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين .

جاء يحنة بن روبة صاحب أيلة ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا فهو عندهم ، وكتب لصاحب أيلة « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فإنه لايحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » .

---

(١) نفس المصدر .

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل فى أربعمائة وعشرين فارسا ، وقال له : إنك ستجده يصيد البقر ، فأتاه خالد ، فلما كان من حصنه بمنظر العين ، خرجت بقرة ، تحك بقرونها باب القصر ، فخرج أكيدر لصيدها ـ وكانت ليلة مقمرة ـ فتلقاه خالد فى خيله ، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فحقن دمه ، وصالحه على ألفى بعير ، وثمانمائة رأس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، وأقر بإعطاء الجزية ، فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء .

وأيقنت القبائل التى كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه ، فانقلبت لصالح المسلمين ، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية ، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة ، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير .

الرجوع إلى المدينة :

ورجع الجيش الإسلامى من تبوك مظفرين منصورين ، لم ينالوا كيدا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وفى الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلا من المنافقين الفتك بالنبى ﷺ ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته ، وحذيفة بن اليمان يسوقها ، وأخذ الناس ببطن الوادى ، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة . فبينما رسول الله ﷺ وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم ، قد غشوه وهم ملتثمون ، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه ، فأرعبهم الله ، فأسرعوا فى الفرار حتى لحقوا بالقوم ، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم ، وبما هموا به ، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ ، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ .

ولما لاحت للنبى ﷺ معالم المدينة من بعيد قال : هذه طابة ، وهذا أحد ، جبل يحبنا ونحبه ، وتسامع الناس بمقدمه ، فخرج النساء والصبيان والولائد

يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن[1] :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعـا لله داع

وكان خروجه ﷺ إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوما . أقام منها عشرين يوما في تبوك . والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوبا . وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ .

المخلفون :

وكانت هذه الغزوة ــ لظروفها الخاصة بها ــ اختبارا شديدا من الله تعالى ، امتاز به المؤمنون من غيرهم . كما هو دأبه تعالى في مثل هذه المواطن ، حيث يقول : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ (٣ : ١٧٩) فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنا صادقا ، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل ، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم : دعوه ، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه ، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر ، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين ، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبا ، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسا . نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر . وهم الذين أبلاهم الله ، ثم تاب عليهم .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فأما المنافقون ــ وهم بضعة وثمانون رجلا[2] ــ فجاءوا يعتذرون

---

(١) هذا رأي ابن القيم وقد مضى في ص ٩٣ .

(٢) ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار ، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضا اثنين وثمانين رجلا من بني غفار وغيرهم ، وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء ، وكانوا عددا كثيرا (انظر فتح الباري ٨ / ١١٩).

بأنواع شتى من الاعذار ، وطفقوا يحلفون له ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين ـــ وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ـــ فاختاروا الصدق ، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة ، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة ، وتغير لهم الناس ، حتى تنكرت لهم الأرض ، وضاقت عليهم بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم ، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة ، ثم أنزل الله توبتهم ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم ﴾ (٩ : ١١٨) .

وفرح المسلمون ، وفرح الثلاثة فرحا لا يقاس مداه وغايته ، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا ، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم .

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ ، الآيتين (٩ : ٩١ ، ٩٢) وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة : « إن بالمدينة رجالا ماسرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر » ، قالوا : يارسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة .

أثر الغزوة :

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب ، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام ، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين ، وكانوا قد عقدوا آمالهم

بالرومان ، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة ، واستسلموا للأمر الواقع ، الذى لم يجدوا عنه محيدا ولا مناصا .

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين ، وقد أمر الله بالتشديد عليهم ، حتى نهى عن قبول صدقاتهم ، وعن الصلاة عليهم ، والاستغفار لهم ، والقيام على قبرهم ، وأمر بهدم وكرة دسهم وتآمرهم التى بنوها باسم المسجد ، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحا تاما ، لم يبق فى معرفتهم بعدها أى خفاء ، كأن الآيات قد نصت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة .

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت فى التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة فتح مكة ؛ بل وماقبلها، إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة[1] .

نزول القرآن حول موضوع الغزوة :

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة ، نزل بعضها قبل الخروج ، وبعضها بعد الخروج ــ وهو فى السفر ــ وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة ، وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة ، وفضح المنافقين ، وفضل المجاهدين والمخلصين ، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين ، الخارجين منهم فى الغزوة والمتخلفين ، إلى غير ذلك من الأمور .

* * *

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢ / ٥١٥ إلى ٥٣٧ ، وزاد المعاد ٣ / ٢ إلى ١٣ وصحيح البخارى ٢ / ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ و ١ / ٢٥٢ ، ٤١٤ وغيرها وصحيح مسلم مع شرحه للنووى ٢ / ٢٤٦ . وفتح البارى ٨ / ١١٠ إلى ١٢٦ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى من ص ٣٩١ إلى ٤٠٧ .

بعض الوقائع المهمة فى هذه السنة :

وفى هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية فى التاريخ :

(١) بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عويمر العجلانى وامرأته

(٢) رجمت المرأة الغامدية التى جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة ، رجمت بعد ما فطمت ابنها .

(٣) توفى النجاشى أصحمة ، ملك الحبشة ، وصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب .

(٤) توفيت أم كلثوم بنت النبى ﷺ ، فحزن عليها حزنا شديدا ، وقال لعثمان : لو كانت عندى ثالثة لزوجتكها .

(٥) مات رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك ، فاستغفر له رسول الله ﷺ ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه ، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر .

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩ هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرا على الحج ؛ ليقيم بالمسلمين المناسك .

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على سواء ، فبعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ليؤدى عنه ذلك ، وذلك تمشيا منه على عادة العرب فى عهود الدماء والأموال ، فالتقى على بأبى بكر بالعرج أو بضجنان ، فقال أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ قال على : لا ، بل مأمور ثم مضيا ، وأقام أبو بكر للناس حجهم ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام على بن أبي طالب عند الجمرة ، فأذن فى الناس بالذى أمره رسول الله ﷺ . ونبذ إلى كل ذى عهد عهده ، وأجل لهم أربعة شهور ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد ، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا : ولم يظاهروا عليهم أحدا ، فأبقى عهدهم إلى مدتهم .

وبعث أبو بكر رضى الله عنه رجالا ينادون فى الناس : ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية فى جزيرة العرب ، وأنها لاتبدىء ولاتعيد بعد هذا العام[1] .

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٢٢٠ ، ٤٥١ ، ٢ / ٦٢٦ ، ٦٧١ ، زاد المعاد ٣ / ٢٥ ، ٢٦ ، ابن هشام ٢ / ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ .

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبى ﷺ وبعوثه وسراياه ؛ لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر فى أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها ــ لايمكن لنا إلا أن نقول : إن النبى ﷺ كان أكبر قائد عسكرى فى الدنيا ، وأسدهم وأعمقهم فراسة وتيقظا ، إنه صاحب عبقرية فذة فى هذا الوصف ، كما كان سيد الرسل وأعظمهم فى صفة النبوة والرسالة ، فلم يخض معركة من المعارك إلا فى الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير ، ولذلك لم يفشل فى أى معركة من المعارك التى خاضها لغلطة فى الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش ، وتعيينه على المراكز الاستراتيجية ، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة ، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال ، بل أثبت فى كل ذلك أن له نوعا آخر من القيادة غير ما عرفتها وتعرف الدنيا فى القواد . ولم يقع ما وقع فى أحد وحنين إلا من بعض الضعف فى أفراد الجيش ــ فى حنين ــ أو من جهة معصيتهم أوامره ، وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية .

وقد تجلت عبقريته ﷺ فى هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين ، فقد ثبت مجابها للعدو ، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم فى أهدافهم ــ كما فعل فى أحد ــ أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصارا ــ كما فى حنين ــ مع أن مثل هذا التطور الخطير ، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد ، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر ، لايبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم .

هذه هي من ناحية القيادة العسكرية الخالصة . أما من نواح أخرى ، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام ، وإطفاء نار الفتنة ، وكسر شوكة الأعداء في صراع الإسلام والوثنية ، وإلجائهم إلى المصالحة ، وتخلية السبيل لنشر الدعوة ، كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يبطن النفاق ، ويضمر نوازع الغدر والخيانة .

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد الذين لاقوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام ، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال ، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات ، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاغل للمسلمين ، حتى تفصى من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار ، وهيأ السلاح والكراع والعدة والنفقات ، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغي والعدوان على عباد الله .

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية ، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان ، وأخذ الثأر ، والفوز بالوتر ، وكبت الضعيف ، وتخريب العمران ، وتدمير البنيان ، وهتك حرمات النساء ، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل ، والعبث والفساد في الأرض — في الجاهلية — إذ سارت هذه الحرب — في الإسلام — جهادا في تحقيق أهداف نبيلة ، وأغراض سامية وغايات محمودة ، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان ، فقد صارت الحرب جهادا في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان . إلى نظام العدالة والنصف ، من نظام يأكل فيه القوى الضعيف ، إلى نظام يصير فيه القوى ضعيفا حتى يؤخذ منه ، وصارت جهادا في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء

والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا . واجعل لنا من لدنك نصيرا ، وصارت جهادا فى تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة .

كما شرع للحروب قواعد شريفة آلزم التقيد بها على جنوده وقوادها ، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال . روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله عز وجل ، ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : اغزوا باسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، فلا تغلوا ولاتغدروا ، ولاتمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا .. الحديث . وكان يأمر بالتيسير ويقول : يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا[1] . وكان إذا جاء قوما بليل لم يغر عليهم حتى يصبح ، ونهى أشد النهى عن التحريق فى النار ، ونهى عن قتل الصبية ، وقتل النساء وضربهن ، ونهى عن النهب حتى قال : إن النهبى ليست بأحل من الميتة . ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة ، ولايبقى سواه سبيل . وقال عند فتح مكة : لاتجهزن على جريح ، ولا تتبعن مدبرا ، ولا تقتلن أسيرا ، وأمضى السنة بأن السفير لايقتل ، وشدد فى النهى عن قتل المعاهدين حتى قال : من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاما ... إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التى طهرت الحروب من أدران الجاهلية ، حتى جعلتها جهادا مقدسا[2] .

---

(١) صحيح مسلم ٢ / ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) انظر ذلك مفصلا فى زاد المعاد ٢ / ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، والجهاد فى الإسلام للأستاذ أبى الأعلى المودودى ص ٢١٦ إلى ٢٦٢ .

النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا

كانت غزوة فتح مكة ــ كما قلنا ــ معركة فاصلة ، قضت على الوثنية قضاء باتا ، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل ، وزالت عنهم الشبهات ، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام . قال عمرو بن سلمة : كنا بماء ممر الناس ، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم : ماللناس ؟ ما هذا الرجل ؟ ــ أى النبى ﷺ ــ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه . أوحى الله كذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، فكأنما يقرأ فى صدرى ، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند النبى ﷺ ــ حقا . فقال : صلوا صلاة كذا فى حين كذا ، وصلاة كذا فى حين كذا ، فإذ حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قرآنا . الحديث[1] .

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة فى تطوير الظروف ، وتعزيز الإسلام ، وتعيين الموقف للعرب ، واستسلامهم للإسلام ، وتأكد ذلك أى تأكد بعد غزوة تبوك ، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى فى هذين العامين ــ التاسع والعاشر ــ ونرى الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، حتى إن الجيش الإسلامى الذى كان قوامه عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الفتح ، إذا هو يزخر فى

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦١٥ ، ٦١٦ .

ثلاثين ألف مقاتل فى غزوة تبوك ، قبل أن يمضى على فتح مكة عام كامل ، ثم نرى فى حجة الوداع بحرا من رجال الإسلام ــ مائة ألف من الناس أو مائة وأربعة وأربعون ألفا منهم ــ يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوى له الآفاق ، وترتج له الأرجاء .

الوفود :

والوفود التى سردها أهل المغازى يزيد عددها على سبعين وفدا ، ولايمكن لنا استقصاءها . وليس كبير فائدة فى بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمالا ماله روعة أو أهمية فى التاريخ . وليكن على ذكر من القارىء أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح ؛ ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضا :

(١) وفد عبد القيس ــ كانت لهذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك . كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان ، يرد المدينة بالتجارة ، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبى ﷺ ، وعلم بالإسلام أسلم وذهب بكتاب من النبى ﷺ إلى قومه فأسلموا ، فتوافدوا إليه فى شهر حرام فى ثلاثة أو أربعة عشر رجلا ، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كبيرهم الأشج العصرى الذى قال فيه رسول الله ﷺ : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة .

والوفادة الثانية كانت فى سنة الوفود ، وكان عددهم فيها أربعين رجلا ، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدى ، وكان نصرانيا فأسلم وحسن إسلامه[١] .

(٢) وفد دوس ــ كانت وفادة هذه القبيلة فى أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخيبر ، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى ، وأنه أسلم

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ١ / ٣٣ ، فتح البارى ٨ / ٨٥ ، ٨٦ .

ورسول الله ﷺ بمكة ، ثم رجع إلى قومه ، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، ويبطئون عليه ، حتى يئس منهم ، ورجع إلى رسول الله ﷺ ، فطلب منه أن يدعو على دوس ، فقال : اللهم اهد دوسا . ثم أسلم هؤلاء ، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتا من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخيبر فلحق به .

(٣) رسول فروة بني عمرو الجذامي — كان فروة قائدا عربيا من قواد الرومان ، عاملا لهم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام ، أسلم بعدما رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم ، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨هـ . ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولا بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه ، ثم خيروه بين الردة والموت ، فاختار الموت على الردة ، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء ، وضربوا عنقه [١] .

(٤) وفد صداء — جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨هـ . وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثا من أربعمائة من المسلمين ، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء ، وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائي ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : جئتك وافدا على من ورائي ، فاردد الجيش وأنا لك بقومي ، فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عليه خمسة عشر رجلا منهم ، وبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعوهم ، ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع .

(٥) قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى — كان من بيت الشعراء ، ومن أشعر العرب ، وكان يهجو النبي ﷺ ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨ هـ ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٤٥ ، تفهيم القرآن ٢ / ١٦٩ .

ﷺ قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، ومن بقى من شعراء قريش هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لايقتل أحدا جاء تائبا ، وإلا فانج إلى نجاتك . ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب ، وأشفق على نفسه ، فجاء المدينة ، ونزل على رجل فى جهينة ، وصلى معه الصبح ، فلما انصرف أشار عليه الجهنى ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله ﷺ لايعرفه فقال : يارسول الله . إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال : نعم . قال : أنا كعب بن زهير . فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه ، فقال : دعه عنك ، فإنه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه .

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التى أولها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها ، لم يفد ، مكبول

قال فيها — وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ ، ويمدحه — :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمون
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ، ولو كثرت فى الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع مالو يسمع الفيل
لظل يرعد ، إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يمينى مآأنازعه ... فى كف ذى نقمات قيله القيل
فلهو أخوف عندى إذ أكلمه ... وقيل : إنك منسوب ومسئول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره ... فى بطن عثر غيل دونه غيل
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش ؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل فى كعب حين جاء إلا بخير ، وعرض فى أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم فى ضرب عنقه ، قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار فى قصيدة له ، وتدارك ما كان قد فرط منه فى شأنهم ، قال فى تلك القصيدة :

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار

(٦) وفد عذرة — قدم هذا الوفد فى صفر سنة ٩ هـ . وهم اثنا عشر رجلا فيهم حمزة بن النعمان . قال متكلمهم حين سئلوا من القوم : نحن بنو عذرة ، أخوة قصى لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، لنا قرابات وأرحام ، فرحب بهم النبى ﷺ ، وبشرهم بفتح الشام ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها . أسلموا وأقاموا أياما ثم رجعوا .

(٧) وفد بلى — قدم فى ربيع الأول سنة ٩ هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثا ، وقد سأل رئيسهم أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال : ثلاثة أيام ، وسأل عن ضالة الغنم فقال : هى لك أو لأخيك أو للذئب ، وسأل عن ضالة البعير ، فقال : مالك وله ؟ دعه حتى يجده صاحبه .

(٨) وفد ثقيف — كانت وفادتهم فى رمضان سنة ٩ هـ . بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك . وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفى جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف فى ذى القعدة سنة ٨ هـ قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم عروة ، ورجع إلى قومه ، ودعاهم إلى الإسلام — وهو يظن أنهم يطيعونه ؛ لأنه كان سيدا مطاعا فى قومه ، وكان أحب إليهم من أبكارهم — فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه ، ثم أقاموا بعد قتله أشهرا ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لاطاقة لهم بحرب من حولهم من العرب — الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا — فأجمعوا أن يرسلوا رجلا إلى رسول الله ﷺ ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ، وعرضوا عليه ذلك فأبى ، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل

ماصنعوا بعروة ، وقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا ، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك ، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وكان أحدثهم سنا .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة فى ناحية المسجد ، لكى يسمعوا القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا ، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ ، وهو يدعوهم إلى الإسلام ، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف . يأذن لهم فيها بالزنا وشرب الخمور وأكل الربا ، ويترك لهم طاغيتهم اللات ، وأن يعفيهم من الصلاة ، وأن لايكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئا من ذلك ، فخلوا وتشاوروا ، فلم يجدوا محيصا عن الاستسلام لرسول الله ﷺ ، فاستسلموا وأسلموا ، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات ، وأن ثقيفا لايهدمونها بأيديهم أبدا ؛ فقبل ذلك ، وكتب لهم كتابا ، وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص الثقفى ، لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم الدين والقرآن ؛ وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ ، ويخلفون عثمان بن أبى العاص فى رحالهم ، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبى العاص إلى رسول الله ﷺ ، فاستقرأه القرآن ، وسأله عن الدين ، وإذا وجده نائما عمد إلى أبى بكر لنفس الغرض ، (وكان من أعظم الناس بركة لقومه فى زمن الردة ، فإن ثقيفا لما عزمت على الردة قال لهم : يامعشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاما ، فلا تكونوا أول الناس ردة ، فامتنعوا على الردة ، وثبتوا على الإسلام) .

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة ، وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة ، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم ، فأخذت ثقيفا نخوة الجاهلية ، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل ، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر ، وأظهروا ماصالحوا عليه ، فأسلمت ثقيف .

وبعث رسول الله ﷺ رجالا لهدم اللات ، أمر عليهم خالد بن الوليد ،

فقام المغيرة بن شعبة ، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف . فضرب بالكرزين ، ثم سقط يركض ، فارتج أهل الطائف ، وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، فوثب المغيرة فقال : قبحكم الله ، إنما هي لكاع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها ، وأخرجوا حليها ولباسها ، فبهتت ثقيف ، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها ، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه ، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه[1] .

(٩) رسالة ملوك اليمن ــ وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان بن قيل ذى رعين ، وهمدان ومعافر ، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوى ، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله ، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابا بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم ، وأعطى فيهم المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية ، وبعث إليهم رجالا من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل .

(١٠) وفد همدان ــ قدموا سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا أقطعهم فيه ماسألوه ، وأمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه ، ثم بعث على بن أبى طالب ، وأمره أن يقفل خالدا ، فجاء على إلى همدان ، وقرأ عليهم كتابا من رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعا ، وكتب على ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما قرأ الكتاب خر ساجدا ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان .

(١١) وفد بنى فزارة ــ قدم هذا الوفد سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، قدم فى بضعة عشر رجلا جاءوا مقرين بالإسلام ، وشكوا جدب بلادهم ،

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ابن هشام ٣ / ٥٣٧ إلى ٥٤٢ .

فصعد رسول الله ﷺ المنبر ، فرفع يديه واستسقى ، وقال : اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحي بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا ، مغيثا ، مريحا ، مريعا ، طبقا ، واسعا ، عاجلا ، غير آجل ، نافعا غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولاهدم ، ولاغرق ، ولامحق ، اللهم اسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء[١] .

(١٢) وفد نجران ــ (نجران ، بفتح النون وسكون الجيم : بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، مسيرة يوم للراكب السريع[٢] ، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية) .

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩ هـ ، وقوام الوفد ستون رجلا ، منهم أربعة وعشرون من الأشراف ، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران ، أحدهم العاقب ، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح ، والثانى السيد ، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل ، والثالث الأسقف وكانت إليه الزعامة الدينية ، والقيادة الروحانية ، واسمه أبو حارثة بن علقمة .

ولما نزل الوفد بالمدينة ، ولقى النبى ﷺ سألهم وسألوه ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا ، وسألوه عما يقول فى عيسى عليه السلام ، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (٣ : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) .

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله فى عيسى بن مريم فى ضوء هذه

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٤٨ .

(٢) فتح البارى ٨ / ٩٤ .

الآية الكريمة ، وتركهم ذلك اليوم ؛ ليفكروا فى أمرهم ، فأبوا أن يقروا بما قال فى عيسى . فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ماعرض عليهم من قوله فى عيسى ، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وأقبل مشتملا على الحسن والحسين فى خميل له ، وفاطمة تمشى عند ظهره ، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا ، فقال كل من العاقب والسيد للآخر : لاتفعل فو الله لئن كان نبيا فلاعننا لانفلح نحن ولاعقبنا من بعدنا ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك ، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ فى أمرهم ، فجاءوا وقالوا : إنا نعطيك ماسألتنا . فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية ، وصالحهم على ألفى حلة ، ألف فى رجب ، وألف فى صفر ، ومع كل حلة أوقية ، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله ، وترك لهم الحرية الكاملة فى دينهم ، وكتب لهم بذلك كتابا ، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلا أمينا ، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح ؛ ليقبض مال الصلح .

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران ، وأن النبى ﷺ بعث إليهم عليا ؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم ، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين[1] .

(١٣) وفد بنى حنيفة ـــ كانت وفادتهم سنة ٩ هـ . وكانوا سبعة عشر رجلا فيهم مسيلمة الكذاب[2] ـــ وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة ـــ نزل هذا الوفد فى بيت رجل من الأنصار ، ثم جاءوا إلى النبى ﷺ فأسلموا ، واختلفت الروايات فى مسيلمة الكذاب ، ويظهر بعد التأمل فى جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ ، وأن النبى ﷺ أراد

---

(١) فتح البارى ٨ / ٩٤ ، ٩٥ ، زاد المعاد ٣ / ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وقد اضطربت الروايات فى بيان كيفية وفد نجران ، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين ، وقد ذكرنا ـــ ملخصا ـــ ما ترجح عندنا فى هذا الوفد .

(٢) فتح البارى ٨ / ٨٧ .

إستلافه بالإحسان بالقول والفعل أولا ، فلما رأى أن ذلك لايجدى فيه نفعا تفرس فيه الشر .

وكان النبى ﷺ قد أُرِىَ قبل ذلك فى المنام أنه أتى بخزائن الأرض ، فوقع فى يديه سواران من ذهب ، فكبرا عليه وأهماه ، فأوحى إليه أن انفخهما ، فنفخهما ، فذهبا ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده ، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف ــ وقد كان يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ــ جاءه رسول الله ﷺ وفى يده قطعة من جريد ، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه ، فكلمه فقال له مسيلمة : إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك ، فقال : لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، والله إنى لأراك الذى أريت فيه مارأيت ، وهذا ثابت يجيبك عنى . ثم انصرف(1) .

وأخيرا وقع ما تفرس فيه النبى ﷺ ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقى يفكر فى أمره ، حتى ادعى أنه أشرك فى الأمر مع النبى ﷺ ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع السجعات ، وأحل لقومه الخمر والزنا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبى ، وافتتن به قومه فتبعوه ، وأصفقوا معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم . وكتب إلى رسول الله ﷺ كتابا قال فيه : إنى أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقريش نصف الأمر ، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ﴾(2) .

وعن ابن مسعود قال : جاء ابن النواحة ، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبى ﷺ ، فقال لهما : أتشهدان أنى رسول الله ؟ فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول

---

(1) انظر صحيح البخارى باب وفد بنى حنيفة ، وباب قصة الأسود العنسى 2 / 627 ، 628 وفتح البارى 8 / 87 إلى 93 .

(2) زاد المعاد 3 / 31 ، 32 .

الله . فقال النبي ﷺ : آمنت بالله ورسوله . لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما[1].

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر ، وقتل فى حرب اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة ١٢ هـ ، قتله وحشى قاتل حمزة . وأما المتنبىء الثانى ، وهو الأسود العنسي الذى كان باليمن ، فقتله فيروز ، واحتز رأسه قبل وفاة النبى ﷺ بيوم وليلة ، فأتاه الوحى فأخبر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبى بكر رضى الله عنه[2] .

(١٤) وفد بنى عامر بن صعصعة ـــ كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأربد بن قيس ـــ أخو لبيد لأمه ـــ وخالد بن جعفر ، وجبار بن أسلم ، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم ، وكان عامر هو الذى غدر بأصحاب بئر معونة ، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد ، واتفقا على الفتك بالنبى ﷺ ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبى ﷺ ، ودار أربد خلفه ، واخترط سيفه شبرا ، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله ، وعصم الله نبيه ، ودعا عليهما النبى ﷺ ، فلما رجعا أرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقته ، وأما عامر فنزل على امرأة سلولية ، فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير ، وموتا فى بيت السلولية .

وفى صحيح البخارى : أن عامرا أتى النبى ﷺ فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فطعن فى بيت امرأة ، فقال : أغدة كغدة البعير ، فى بيت امرأة من بنى فلان ، إيتونى بفرسى فركب ، فمات على فرسه .

(١٥) وفد تجيب ـــ قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم وكان الوفد ثلاثة عشر رجلا ، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها ، وسألوا

---

(١) رواه الإمام أحمد ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٧ .

(٢) فتح البارى ٨ / ٩٣ .

رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها ، ولم يطيلوا اللبث ، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلاما كانوا خلفوه فى رحالهم ، فجاء الغلام ، وقال : والله ما أعملنى من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى ، وأن يجعل غناى فى قلبى ، فدعا له بذلك ، فكان أقنع الناس ، وثبت فى الردة على الإسلام ، وذكر قومه ؛ ووعظهم فثبتوا عليه ، والتقى أهل الوفد بالنبى ﷺ مرة أخرى فى حجة الوداع سنة ١٠ هـ .

(١٦) وفد طيء — قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل ، فلما كلموا النبى ﷺ ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ عن زيد : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ، ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه ، وسماه زيد الخير .

• • •

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة فى سنتى تسع وعشر ، وقد ذكر أهل المغازى والسير منها وفود أهل اليمن ، والأزد وبنى سعد هذيم من قضاعة ، وبنى عامر بن قيس ، وبنى أسد ، وبهراء ، وخولان ، ومحارب ، وبنى الحارث بن كعب ، وغامد ، وبنى المنتفق ، وسلامان ، وبنى عبس ، ومزينة ، ومراد ، وزبيد ، وكندة ، وذى مرة ، وغسان ، وبنى عيش ، ونخع — وهو آخر الوفود ، توافد فى منتصف محرم سنة ١١ هـ فى مائتى رجل — وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩ و ١٠ هـ ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١ هـ .

وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام ، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال ، حتى لم تكن ترى محيصا عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لا يمكن صرف النظر عنها ، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعا لسادتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت

بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب ، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله فى سورة التوبة ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء . والله سميع عليم ﴾ (٩ : ٩٧ ، ٩٨) وأثنى على آخرين منهم فقال : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، إن الله غفور رحيم ﴾ (٩ : ٩٩)

أما الحاضرون منهم فى مكة والمدينة وثقيف ، وكثير من اليمن والبحرين ؛ فقد كان الإسلام فيهم قويا ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين[1] .

(١) كلمة للخضرى فى محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١ / ١٤٤ .

وانظر فى تفاصيل الوفود الى ذكرناها أو أشرنا إليها ، صحيح البخارى ١ / ١٣ ، ٢ / ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ . ٦٣٠، وابن هشام ٢ / ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٦٠ إلى ٦٠١ ، وزاد المعاد ٣ / ٢٦ إلى ٦٠ ، وفتح البارى ٨ / ٨٣ إلى ١٠٣ ورحمة للعالمين ١ / ١٨٤ إلى ٢٠٧ .

نَجَاحُ ٱلدَّعْوَةِ وَأَثَرُهَا

وقبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ ؛ ينبغى لنا أن نلقى نظرة إجمالية على العمل الجلل الذى هو فذلكة حياته ، والذى امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين ، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين .

إنه ﷺ قيل له : ﴿ يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً ﴾ الآيات . و ﴿ يأيها المدثر . قم فأنذر ﴾ الآيات ، فقام ، وظل قائما أكثر من عشرين عاما ، يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى

حمل عبء الكفاح والجهاد فى ميدان الضمير البشرى الغارق فى أوهام الجاهلية وتصوراتها ، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها ، والمكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها ، حتى إذا خلص هذا الضمير فى بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية ، بدأ معركة أخرى فى ميدان آخر ، بل معارك متلاحقة .. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها ، وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية فى منبتها ، قبل أن تنمو وتمد جذورها فى التربة ، وفروعها فى الفضاء ، وتظل مساحات أخرى .. ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية ؛ حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة ، وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفى أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى ــ معركة الضمير ــ قد انتهت ،

فهى معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لاينى لحظة عن مزاولة نشاطه فى أعماق الضمير الإنسانى ، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك ، وعلى المعركة الدائبة فى ميادينها المتفرقة ، فى شظف من العيش ، والدنيا مقبلة عليه ، وفى جهد وكد ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة ؛ وفى نصب دائم لا ينقطع ، وفى صبر جميل على هذا كله ، وفى قيام الليل ، وفى عبادة لربه ، وترتيل لقرآنه ، وتبتل إليه كما أمره أن يفعل(١).

وهكذا عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاما ، لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد ، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتحير له العقول ، فقد دانت لها الجزيرة العربية ، وزالت غيرة الجاهلية عن آفاقها ، وَصَحَّت العقول العليلة ، حتى تركت الأصنام ؛ بل كسرت ، وأخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد ، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التى أحياها الإيمان الجديد ، وانطلق القراء شمالا وجنوبا ، يتلون آيات الكتاب ، ويقيمون أحكام الله .

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة ، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله ، فليس هناك قاهر ومقهور ، وسادات وعبيد ، وحكام ومحكومون ، وظالم ومظلوم ، وإنما الناس كلهم عباد الله ، إخوان متحابون ، متمثلون لأحكامه : أذهب الله عنهم عُبِّيَّة الجاهلية ونخوتها وتعاظمها بالآباء ، ولم يبق هناك فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم من تراب .

وهكذا تحققت ـــ بفضل هذه الدعوة ـــ الوحدة العربية ، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، والسعادة البشرية فى قضاياها ومشاكلها الدنيوية ، وفى مسائلها الأخروية ، فتقلب مجرى الأيام ، وتغير وجه الأرض ، وانعدل خط التاريخ ، وتبدلت العقلية .

---

(١) كلمة سيد قطب فى ظلال القرآن ٢٩ / ١٦٨ ، ١٦٩ .

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية ــ قبل الدعوة ــ ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام ، على الرغم من الديانات السماوية ، التى كانت قد أدركها التحريف ، وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس ، واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ولا روح .

فلما قامت هذه الدعوة بدورها فى حياة البشرية ؛ خلصت روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبودية والرق ، ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال ، وخلصت المجتمع الإنسانى من الظلم والطغيان ، ومن التفكك والانهيار ، ومن فوارق الطبقات ، واستبداد الحكام ، واستذلال الكهان ، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة ، والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ، ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب ؛ لتنمية الحياة ، وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذى حق حقه فى الحياة[١] .

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران ، ولم يتألق تاريخها تألقه فى هذه الأيام الفريدة من عمرها .

---

(١) من كلمة سيد قطب فى مقدمة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٤

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة ، وإبلاغ الرسالة ، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله ، ونفيها عن غيره ، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ ، وكأن هاتفا خفيا انبعث فى قلب رسول الله ﷺ ، يشعره أن مقامه فى الدنيا قد أوشك على النهاية ، حتى إنه حين بعث معاذا على اليمن سنة ١٠ هـ قال له فيما قال : يا معاذ ، إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى ، فبكى معاذ خشعا لفراق رسول الله ﷺ .

وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته ، التى عانى فى سبيلها ألوانا من المتاعب بضعا وعشرين عاما ، فيجتمع فى أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها ، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه ، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة .

أعلن النبى ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ(١) . وفى يوم السبت لأربع بقين من ذى القعدة تهيأ النبى ﷺ للرحيل(٢) ، فترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بدنه ، وانطلق بعد الظهر ، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلى العصر ، فصلاها ركعتين ،

---

(١) روى ذلك مسلم عن جابر ، باب حجة النبى ﷺ ١ / ٣٩٤ .

(٢) حقق ذلك ابن حجر تحقيقا أنيقا ، مع تصحيح ماورد من أنه خرج لخمس بقين من ذى القعدة انظر فتح البارى ٨ / ١٠٤ .

وبات هناك حتى أصبح ، فلما أصبح قال لأصحابه : أتانى الليلة آت من ربى فقال : صل فى هذا الوادى المبارك ، وقل : عمرة فى حجة[1] .

وقبل أن يصلى الظهر اغتسل لإحرامه ، ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك ، فى بدنه ورأسه ، حتى كان وبيص الطيب يرى فى مفارقه ولحيته ، ثم استدامه ولم يغسله ، ثم لبس إزاره ورداءه ، ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة فى مصلاه ، وقرن بينهما ، ثم خرج ، فركب القصواء ، فأهل أيضا ، ثم أهل لما استقلت به على البيداء .

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة ، فبات بذى طوى ، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذى الحجة سنة ١٠ هـ — وقد قضى فى الطريق ثمان ليال ، وهى المسافة الوسطى — فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، ولم يحل ، لأنه كان قارنا قد ساق معه الهدى ، فنزل بأعلى مكة عند الحجون ، وأقام هناك ، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج .

وأمر من لم يكن معه هدى من اصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة ، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة ، ثم يحلوا حلالا تاما ، فترددوا ، فقال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معى الهدى لأحللت ، فحل من لم يكن معه هدى ، وسمعوا وأطاعوا .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة — وهو يوم التروية — توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر — خمس صلوات — ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، فأجاز حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادى ، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفا من الناس ، فقام فيهم

---

(١) رواه البخارى عن عمر ١ / ٢٠٧ .

خطيبا ، وألقى هذه الخطبة الجامعة :

أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا[1] .

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ــ وكان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل ــ وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لايوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله[2] .

أيها الناس ، إنه لا نبى بعدى ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، طيبة بها أنفسكم ، وتحجون بيت ربكم ، وأطيعوا ولاة أمركم ، تدخلوا جنة ربكم[3] .

وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس « اللهم اشهد » . ثلاث مرات[4] .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٦٠٣ .
(٢) صحيح مسلم باب حجة النبى ﷺ ١ / ٣٩٧ .
(٣) معدن الأعمال ، ورواه ابن ماجه وابن عساكر ، رحمة للعالمين ١ / ٢٦٣ .
(٤) مسلم ١ / ٣٩٧ .

وكان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله ﷺ ــ وهو بعرفة ــ ربيعة بن أمية بن خلف[١] .

وبعد أن فرغ النبى ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (٥ : ٣) وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[٢] .

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، ثم قام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة ، ودفع حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعاه ، وكبره ، وهلله ، ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا .

فدفع ــ من المزدلفة إلى منى ــ قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة ــ وهى الجمرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة فى ذلك الزمان ، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى ــ فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادى ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر ــ وهى سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة ــ وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت فى قدر ، فطبخت ، فأكلا من

---

(١) ابن هشام ٢ / ٦٠٥ .

(٢) رواه البخارى عن ابن عمر ... أنظر رحمة للعالمين ١ / ٢٦٥

لحمها ، وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلواً فشرب منه(١) .

وخطب النبى ﷺ يوم النحر ـــ عاشر ذى الحجة ـــ أيضا حين ارتفع الضحى ، وهو على بغلة شهباء ، وعلى يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد(٢) . وأعاد فى خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس ، فقد روى الشيخان عن أبى بكرة قال : خطبنا النبى ﷺ يوم النحر ، قال :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

وقال : « أى شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : أى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست البلدة ؟ قلنا : بلى . فأى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا » .

« وستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

---

(١) رواه مسلم عن جابر ، باب حجة النبى ﷺ ١ / ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠

(٢) روى ذلك أبو داود ، باب أى وقت يخطب يوم النحر ١ / ٢٧٠

« ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع »[1] .

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة : « ألا لا يجني جان إلا على نفسه ، ألا لا يجني جان على ولده ، ولا مولود على والده ، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم ، فسيرضى به »[2] .

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدى المناسك ويعلم الشرائع ، ويذكر الله ، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم ، ويمحو آثار الشرك ومعالمها ، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضا ، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت : خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرءوس ، فقال : أليس هذا أوسط أيام التشريق[3] . وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر ، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر .

وفي يوم النفر الثاني ــ الثالث عشر من ذي الحجة ــ نفر النبي ﷺ من منى ، فنزل بخيف بني كنانة من الأبطح ، وأقام هناك بقية يومه ذلك ، وليلته ، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رقدة ، ثم ركب إلى البيت ، فطاف به طواف الوداع وكان قد أمر به الصحابة أيضاً .

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة ، لا ليأخذ حظا من الراحة ، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، باب الخطبة أيام منى ١ / ٢٣٤ .
(٢) رواه الترمذي ٢ / ٣٨ ، ١٣٥ وابن ماجة في الحج ، مشكاة المصابيح ١ / ٢٣٤ .
(٣) أبو داود . باب أي يوم يخطب بمنى ١ / ٢٦٩
(٤) انظر لتفصيل حجة النبي ﷺ صحيح البخاري كتاب المناسك ج ١ و ٢ / ٦٣١ وصحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ وفتح الباري ج ٣ من شرح كتاب المناسك وج ٨ / ١٠٣ إلى ١١٠ وابن هشام ٢ / ٦٠١ إلى ٦٠٥ ، زاد المعاد ١ / ١٩٦ ، ٢١٨ إلى ٢٤٠

آخر البعوث :

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه ، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامى الذى كان واليا على معان من قبل الروم .

ونظرا إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشا كبيرا فى صفر سنة ١١ هـ ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود ، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول فى الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب .

وتكلم الناس فى قائد الجيش لحداثة سنه ، واستبطأوا فى بعثه ، فقال رسول الله ﷺ : إن تطعنوا فى إمارته ، فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل ، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إلىّ ، وإن هذا من أحب الناس إلىّ بعده[1] .

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة ، وينتظمون فى جيشه ، حتى خرجوا ونزلوا الجرف ، على فرسخ من المدينة ، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث ، حتى يعرفوا ما يقضى الله به ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ فى خلافة أبى بكر الصديق[2] .

---

(١) صحيح البخارى . باب بعث النبى ﷺ أسامة ٢ / ٦١٢ .
(٢) المصدر السابق وابن هشام ٢ / ٦٠٦ ، ٦٥٠ .

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع :

لما تكاملت الدعوة ، وسيطر الإسلام على الموقف ، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ ، وتتضح بعباراته وأفعاله .

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوما ، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب ، وتدارسه جبريل القرآن مرتين ، وقال في حجة الوداع : إني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، وقال وهو عند جمرة العقبة : خذوا عنى مناسككم ، فلعلى لا أحج بعد عامى هذا ، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، وأنه نعيت إليه نفسه .

وفى أوائل صفر سنة ١١ هـ خرج النبى ﷺ إلى أحد ، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إنى فرطكم ، وإنى شهيد عليكم ، وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن ، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإنى والله ما أخاف أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوا فيها[١] .

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخارى ٢ / ٥٨٥ .

وخرج ليلة — فى منتصفها — إلى البقيع فاستغفر لهم ، وقال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . وبشرهم قائلا : إنا بكم للاحقون .

بداية المرض :

وفى اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ — وكان يوم الإثنين — شهد رسول الله ﷺ جنازة فى البقيع ، فلما رجع — وهو فى الطريق — أخذه صداع فى رأسه ، واتقدت الحرارة ، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصابة التى تعصب بها رأسه..

وقد صلى النبى ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يوما ، وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يوما .

الأسبوع الأخير :

وثقل برسول الله ﷺ المرض ، فجعل يسأل أزواجه : أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ ففهمن مراده ، فأذن له يكون حيث شاء ، فانتقل إلى عائشة ، يمشى بين الفضل بن عباس وعلى بن أبى طالب ، عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتها ، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته .

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التى حفظتها من رسول الله ﷺ ، فكانت تنفث على نفسه ، وتمسحه بيده رجاء البركة .

قبل الوفاة بخمسة أيام :

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة ، اتقدت حرارة العلة فى بدنه ، فاشتد به الوجع وغمى ، فقال : هريقوا على سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم ، فأقعدوه فى مخضب ، وصبوا عليه الماء ، حتى طفق يقول :

« حسبكم ، حسبكم » .

وعند ذلك أحس بخفة ، فدخل المسجد ــ وهو معصوب الرأس ــ حتى جلس على المنبر ، وخطب الناس ــ والناس مجتمعون حوله ــ فقال :

« لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ــ وفى رواية « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[1] ــ وقال : لا تتخذوا قبرى وثنا يعبد »[2] .

وعرض نفسه للقصاص قائلا : « من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه » .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر ، وعاد لمقالته الأولى فى الشحناء وغيرها ، فقال رجل : إن لى عندك ثلاثة دراهم ، فقال : أعطه يافضل ، ثم أوصى بالأنصار قائلا :

« أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشى وعيبتى ، وقد قضوا الذى عليهم ، وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » وفى رواية أنه قال : « إن الناس يكثرون ، وتقل الأنصار ، حتى يكونوا كالملح فى الطعام ، فمن ولى منكم أمرا يضر فيه أحدا أو ينفعه فليقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم »[3] .

ثم قال : « إن عبدا خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ماشاء ، وبين ما عنده ، فاختار ماعنده » قال أبو سعيد الخدرى : فبكى أبو بكر . قال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فعجبنا له ، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ، وبين ماعنده ، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا[4] .

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٦٢ ، موطأ الإمام مالك ص ٣٦٠ .

(٢) موطأ الإمام مالك ص ٦٥ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٣٦ .

(٤)متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٦ .

ثم قال رسول الله ﷺ : إن أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لايبقين فى المسجد باب إلا سد ، إلا باب أبى بكر[1] .

قبل أربعة أيام

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال ــ وقد اشتد به الوجع ــ : هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده ــ وفى البيت رجال فيهم عمر ــ فقال عمر : قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبكم كتاب الله . فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ : قوموا عنى[2] .

وأوصى ذلك اليوم بثلاث : أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب ، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم ، أما الثالث فنسيه الراوى ، ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة ، أو تنفيذ جيش أسامة ، أو هى « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

والنبى ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلى بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم ــ يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام ــ وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب ، فقرأ فيها بالمرسلات عرفا[3] .

وعند العشاء زاد ثقل المرض ، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد . قالت عائشة : فقال النبى ﷺ : أصلى الناس ؟ قلنا : لا يارسول الله ، وهم ينتظرونك . قال : ضعوا لى ماء فى المخضب . ففعلنا ، فاغتسل ، فذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم

---

(١) متفق عليه . مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٨ ، صحيح البخارى ١ / ٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٤٩ ، ٢ / ٨٠ .
(٢) رواه البخارى عن أم الفضل باب مرض النبى ﷺ ٢ / ٦٣٧ .
(٣) متفق عليه مشكاة المصابيح ١ /١٠٢ .

أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ – ووقع ثانيا وثالثا ما وقع فى المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء – فأرسل إلى أبى بكر أن يصلى بالناس ، فصلى أبو بكر تلك الأيام(١) ؛ ١٧ صلاة فى حياته ﷺ .

وراجعت عائشة النبى ﷺ ثلاث أو أربع مرات ؛ ليصرف الإمامة عن أبى بكر ، حتى لايتشاءم به الناس ، فأبى ، وقال : إنكن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس .

قبل يوم أو يومين :

ويوم السبت أو الأحد وجد النبى ﷺ فى نفسه خفة ، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلى بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه بأن لا يتأخر ، قال : أجلسانى إلى جنبه ، فأجلساه إلى يسار أبى بكر ، فكان أبو بكر يقتدى بصلاة رسول الله ﷺ ، ويسمع الناس التكبير(٢) .

قبل يوم :

وقبل يوم من الوفاة – يوم الأحد – أعتق النبى ﷺ غلمانه ، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده ، ووهب للمسلمين أسلحته ، وفى الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جارتها ، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من الشعير .

آخر يوم من الحياة :

روى أنس بن مالك : أن المسلمين بينا هم فى صلاة الفجر يوم الإثنين –

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٩٩ .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٩٨ ، ٩٩ .

وأبو بكر يصلى بهم — لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم ، وهم فى صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبيه ؛ ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة . فقال أنس : وهم المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم ، فرحا برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[1] .

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى .

ولما ارتفع الضحى ، دعا النبى ﷺ فاطمة فسارها بشىء فبكت . ثم دعاها ، فسارها بشىء فضحكت ، قالت عائشة ، فسألنا عن ذلك — أى فيما بعد — فقالت : سارنى النبى ﷺ أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه ، فبكيت ، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول أهله يتبعه فضحكت[2] .

وبشر النبى ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين[3] .

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذى يتغشاه ، فقالت : واكرب أباه . فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم[4] .

ودعا الحسن والحسين فقبلهما ، وأوصى بهما خيرا ، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن .

وطفق الوجع يشتد ويزيد ، وقد ظهر أثر السم الذى أكله بخيبر حتى كان يقول : يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم[5] .

---

(١) نفس المصدر ، باب مرض النبى ﷺ ٢ / ٦٤٠ .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٣٨ .

(٣) ويدل بعض الروايات أن هذا الحوار والبشارة لم يكن فى آخر يوم من حياته بل فى آخر أسبوع . رحمة للعالمين ١ / ٢٨٢ .

(٤) صحيح البخارى ٢ / ٦٤١ .

(٥) نفس المصدر ٢ / ٦٣٧ .

وأوصى الناس ، فقال : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، كرر ذلك مرارا[1] .

الاحتضار :

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها ، وكانت تقول : إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته . دخل عبد الرحمن — بن أبي بكر — وبيده السواك ، وأنا مسندة رسول الله ﷺ ، فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته ، فاشتد عليه ، وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته . فأمره — وفي رواية أنه استن بها كأحسن ماكان مستنا — وبين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ، يقول : لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات — الحديث —[2] .

وماعدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه ، وشخص بصره نحو السقف ، وتحركت شفتاه ، فأصغت إليه عائشة وهو يقول : مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم اغفر لي وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى ، اللهم الرفيق الأعلى[3] .

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثا ، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى . إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ . وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام .

---

(١) نفس المصدر .
(٢) صحيح البخاري . باب مرض النبي ﷺ ٢ / ٦٤٠ .
(٣) نفس المصدر والباب ، وباب آخر ماتكلم النبي ﷺ ٢ / ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١

تفاقم الأحزان على الصحابة :

وتسرب النبأ الفادح ، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها . قال أنس : مارأيت يوما قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ ، ومارأيت يوما كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ(١)

ولما مات قالت فاطمة : يا أبتاه أجاب ربا دعاه . يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه . يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه(٢).

موقف عمر :

ووقف عمر بن الخطاب ـــ وقد أخرجه الخبر عن وعيه ـــ يقول : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات .

ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات(٣) .

موقف أبي بكر :

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ ، وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه ، فقبله وبكى ، ثم

---

(١) رواه الدارمي . مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٧ .
(٢) صحيح البخارى باب مرض النبي ﷺ ٢ / ٦٤١ .
(٣) ابن هشام ٢ / ٦٥٥ .

قال : بأبي أنت وأمي ، لايجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقدمِتَّهَا .

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس ياعمر . فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله ، فإن الله حي لايموت . قال الله : ﴿ وما محمد إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ﴾ (٣ : ١٤٤) قال ابن عباس : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها .

قال ابن المسيب : قال عمر : والله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ماتقلني رجلاى ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي ﷺ قد مات[١] .

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض :

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وأخيرا اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، ومضى في ذلك بقية يوم الإثنين حتى دخل الليل ، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ ، حتى كان آخر الليل — ليلة الثلاثاء — مع الصبح ، وبقى جسده المبارك على فراشه ، مغشى بثوب حبرة ، قد أغلق دونه الباب أهله .

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦٤٠ ، ٦٤١ .

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه ، وكان القائمون بالغسل العباس وعليا ، والفضل وقثم ابنى العباس ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وأسامة بن زيد ، وأوس بن خولى . فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه ، وأسامة وشقران يصبان الماء ، وعلى يغسله ، وأوس أسنده إلى صدره .

ثم كفنوه فى ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ، ليس فيها قميص ولا عمامة[١] . أدرجوه فيها إدراجا .

واختلفوا فى موضع دفنه ، فقال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ماقبض نبى إلا دفن حيث يقبض ، فرفع أبو طلحة فراشه الذى تُوُفى عليه ، فحفر تحته ، وجعل القبر لحدا .

ودخل الناس الحجرة أرسالا عشرة فعشرة ، يصلون على رسول الله ﷺ ولا يؤمهم أحد ، وصلى عليه أولا أهل عشيرته ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، وصلت عليه النساء بعد الرجال ، ثم صلى عليه الصبيان .

ومضى فى ذلك يوم الثلاثاء كاملا ، حتى دخلت ليلة الأربعاء ،قالت عائشة : ماعلمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل من ليلة الأربعاء[٢] .

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخارى ١ / ١٦٩ ، صحيح مسلم ١ / ٣٠٦ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٤٧١ ، وانظر لتفصيل لموته بالرفيق الأعلى : صحيح البخارى ، باب مرض النبى ﷺ وعدة أبواب بعده مع فتح البارى وصحيح مسلم ومشكاة المصابيح باب وفاة النبى ﷺ وابن هشام ٢ / ٦٤٩ إلى ٦٦٥ وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٣٨ ، ٣٩ ورحمة للعالمين ١ / ٢٧٧ إلى ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المصدر الأخير .

البَيْتُ النَّبَوِيّ

(١) كان البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام ، ومن زوجته خديجة بنت خويلد ، تزوجها وهو فى خمس وعشرين من سنه ، وهى فى الأربعين ، وهى أول من تزوجها من النساء ، ولم يتزوج عليها غيرها ، وكان له منها أبناء وبنات ، أما الأبناء ، فلم يعش منهم أحد ، وأما البنات فهن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضى الله عنه الواحدة بعد الأخرى ، وأما فاطمة فتزوجها على بن أبى طالب بين بدر وأحد ، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم .

ومعلوم أن النبى ﷺ كان ممتازا عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة ، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة ، منهن تسع مات عنهن ، واثنتان توفيتا فى حياته ، إحداهما خديجة ، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة ، واثنتان لم يدخل بهما . وها هى أسماؤهن وشىء عنهن .

(٢) سودة بنت زمعة ، تزوجها رسول الله ﷺ فى شوال سنة عشر من النبوة ، بعد وفاة خديجة بأيام ، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ، فمات عنها .

(٣) عائشة بنت أبى بكر الصديق ، تزوجها فى شوال سنة إحدى عشرة من النبوة ، بعد زواجه بسودة بسنة ، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر ، تزوجها وهى بنت ست سنين ، وبنى بها فى شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر فى المدينة ، وهى بنت تسع سنين ، وكانت بكرا ولم يتزوج بكرا غيرها ، وكانت أحب الخلق إليه ، وأفقه نساء الأمة ، وأعلمهن على الإطلاق .

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب ، تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمى بين بدر وأحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٣ هـ .

(٥) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمى أم المساكين ، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، كانت تحت عبد الله بن جحش ، فاستشهد فى أحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤ هـ . ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر .

(٦) أم سلمة هند بنت أبى أمية ، كانت تحت أبى سلمة ، فمات عنها فى جمادى الأخرى سنة ٤ هـ ، فتزوجها رسول الله ﷺ فى شوال من نفس السنة .

(٧) زينب بنت جحش بن رباب من بنى أسد بن خزيمة ، وهى بنت عمة رسول الله ﷺ ، وكانت تحت زيد بن حارثة ــ الذى كان يعتبر ابنا للنبى ﷺ ــ فطلقها زيد ، فأنزل الله تعالى يخاطب رسول الله ﷺ ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ ، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبنى ــ وسنأتى على ذكرها ــ تزوجها رسول الله ﷺ فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة .

(٨) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة ، كانت فى سبى بنى المصطلق فى سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها فى شعبان سنة ٦ هـ .

(٩) أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، كانت تحت عبيد الله بن جحش ، وهاجرت معه إلى الحبشة ، فارتد عبيد الله وتنصر ، وتوفى هناك ، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها ، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى بكتابه إلى

النجاشي في المحرم سنة ٧ هـ . خطب عليه أم حبيبة فزوجها أياه وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة .

(١٠) صفية بنت حيي بن أخطب من بنى إسرائيل ، كانت من سبي خيبر ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧ هـ .

(١١) ميمونة بنت الحارث ، أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث ، تزوجها في ذى القعدة سنة ٧ هـ ، في عمرة القضاء ، بعد أن حل منها على الصحيح .

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن الرسول ﷺ ، وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان — خديجة وزينب أم المساكين — في حياته ، وتوفى هو عن التسع البواقي .

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما ، فواحدة من بنى كلاب ، وأخرى من كندة ، وهي المعروفة بالجونية ، وهناك خلافات لاحاجة إلى بسطها .

وأما السرارى فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداهما مارية القبطية ، أهداها له المقوقس ، فأولدها ابنه إبراهيم ، الذى توفى صغيرا بالمدينة في حياته ﷺ ، في ٢٨ / أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠ هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م . والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية ، كانت من سبايا قريظة ، فاصطفاها لنفسه ، وقيل : بل هي من أزواجه ﷺ ، أعتقها فتزوجها . والقول الأول رجحه ابن القيم . وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين ، جميلة أصابها في بعض السبي ، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش[1] .

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيدا أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء في أواخر عمره بعد أن قضى مايقارب ثلاثين عاما من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرا على زوجة واحدة شبه عجوز — خديجة ثم سودة — عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغتة في نفسه قوة عارمة من الشبق ، لايصبر معها إلا بمثل هذا

(١) انظر زاد المعاد ١ / ٢٩ .

العدد الكثير من النساء ؛ بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذى يحققه عامة الزواج .

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة أبى بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة — وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلى بن أبى طالب ، وتزويجه ابنته رقية ثم أم كلثوم بعثمان ابن عفان — يشير إلى أنه يبغى من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة ، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام فى الأزمات التى مرت به ، وشاء الله أن يجتازها بسلام .

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة ، فقد كان الصهر عندهم بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة ، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سبة وعارا على أنفسهم ، فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداء القبائل للإسلام ، ويطفىء حدة بغضائها ، كانت أم سلمة من بنى مخزوم — حى أبى جهل وخالد بن الوليد — فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد ، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعا راغبا ، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأى محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة ، وكذلك لانرى من قبيلتى بنى المصطلق وبنى النضير أى استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية ؛ بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها ، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت منْ قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ . ولا يخفى مالهذا المن من الأثر البالغ فى النفوس .

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبى ﷺ كان مأمورا بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئا من آداب الثقافة والحضارة والتقيد بلوازم المدنية ، والمساهمة فى بناء المجتمع وتعزيزه .

والمبادىء التى كانت أسسا لبناء المجتمع الإسلامى ، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء ، فلم يكنّ يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادىء ، مع أن مسيس الحاجة إلى تثقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال ، بل كان أشد

وأقوى .

وإذن فلم يكن للنبي ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب مايكفى لهذا الغرض ، فيزكيهن ويربيهن ، ويعلمهن الشرائع والأحكام ، ويثقفهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن ؛ لتربية البدويات والحضريات ، العجائز منهن والشابات ، فيكفين مؤنة التبليغ فى النساء .

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحواله ــ ﷺ ــ المنزلية للناس ، خصوصا من طالت حياته منهن كعائشة ، فإنها روت كثيرا من أفعاله وأقواله .

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلى متأصل ، وهى قاعدة التبنى . وكان للمتبنى عند العرب فى الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التى كانت للابن الحقيقى سواء بسواء . وكانت قد تأصلت تلك القاعدة فى القلوب ، بحيث لم يكن محوها سهلا ، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادىء التى قررها الإسلام فى النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات ، وكانت تلك القاعدة تجلب كثيرا من المفاسد والفواحش التى جاء الإسلام ؛ ليمحوها عن المجتمع .

ولهدم تلك القاعدة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن ينكح ابنة عمته زينب بنت جحش ، وكانت تحت زيد ، ولم يكن بينهما توافق ، حتى هم زيد بطلاقها ، وذلك فى ساعة تألب الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين ، وكان رسول الله ﷺ يخاف دعاية المنافقين والمشركين واليهود ، وما يثيرونه من الوساوس والخرافات ضده ، وما يكون له من الأثر السيىء فى نفوس ضعفاء المسلمين ، فأحب أن لايطلق زيد ؛ حتى لايقع رسول الله ﷺ فى هذا الامتحان .

ولاشك أن هذا التردد والانحياز كان لا يطابق مطابقة تامة للعزيمة التى بعث بها رسول الله ﷺ ، فعاتبه الله على ذلك وقال : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم

الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ماالله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ (٣٣ : ٣٧) .

وأخيرا طلقها زيد ، وتزوجها رسول الله ﷺ فى أيام فرض الحصار على بنى قريظة بعد أن انقضت عدتها . وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح ، ولم يترك له خيارا ولا مجالا ، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه يقول : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ (٣٣ : ٣٧) وذلك ليهدم قاعدة التبنى فعلا كما هدمها قولا : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ . (٣٣ : ٥) . ﴿ ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (٣٣ : ٤٠) .

وكم من التقاليد المتأصلة الجازمة لايمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول ، بل لابد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة ، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين فى عمرة الحديبية ، كان هناك أولئك المسلمون الذين رآهم عروة بن مسعود الثقفى ، لايقع من النبى ﷺ نخامة إلا فى يد أحدهم ، ورآهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه ، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة ، والذين كان فيهم مثل أبو بكر وعمر ، لما أمر النبى ﷺ أولئك الصحابة المتفانين فى ذاته — بعد عقد الصلح — أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقم لامتثال أمره أحد ، حتى أخذه القلق والاضطراب ، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر ، ولا يكلم أحدا ففعل ، تبادر الصحابة إلى اتباعه فى فعله ، فتسابقوا إلى نحر جزورهم . وبهذا الحادث يتضح جليا ماهو الفرق بين أثرى القول والفعل لهدم قاعدة راسخة .

وقد أثار المنافقون وساوس كثيرة ، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح ، أثر بعضها فى ضعفاء المسلمين ، لاسيما أن زينب كانت خامسة أزواجه ﷺ ، ولم يكن يعرف المسلمون حل الزواج بأكثر من أربع نسوة ،

وأن زيدا كان يعتبر ابنا للنبي ﷺ ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش ، وقد أنزل الله في سورة الأحزاب حول الموضوعين ماشفى وكفى ، وعلم الصحابة أن التبني ليس له أثر عند الإسلام ، وأن الله تعالى وسع لرسوله ﷺ في الزواج مالم يوسع لغيره ، لأغراضه النبيلة الممتازة .

هذا ، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبل والسمو والحسن ، كما كن في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج ، مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد . قال أنس : ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط[1] . وقالت عائشة : إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار . فقال لها عروة : ماكان يعشيكم ؟ قالت : الأسودان ؛ التمر والماء[2] . والأخبار بهذا الصدد كثيرة .

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهن مايوجب العتاب إلا مرة واحدة — حسب مقتضى البشرية ، وليكون سببا لتشريع الأحكام — فأنزل الله آية التخيير ﴿ ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ (٣٣ : ٢٨ ، ٢٩) وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله ، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا .

وكذلك لم يقع منهن مايقع بين الضرائر مع كثرتهن إلا شيء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية ، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى ، وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله ﴿ ياأيها النبي لم تحرم ماأحل الله

---

(١) صحيح البخاري ٢ / ٩٥٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

لك ﴾ إلى تمام الآية الخامسة .

وأخيرا أرى أنه لا حاجة إلى البحث في موضوع مبدأ تعدد الزوجات ، فمن نظر في حياة سكان أوربا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ ، ونظر إلى مايقاسون من الشقاوة والمرارة ، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة ، وما يواجهون من البلايا والقلاقل لانحرافهم عن هذا المبدأ كفى له ذلك عن البحث والاستدلال ، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ ، وإن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

الصِّفَاتُ وَالأَخْلَاقُ

كان النبي ﷺ يمتاز من كمال خَلْقه وكمل خُلُقه بما لايحيط بوصفه البيان ، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله ، والرجال تفانوا فى حياطته وإكباره ، بما لاتعرف الدنيا لرجل غيره ، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام ، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر ، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذى يعشق عادة لم يرزق بمثلها بشر — وفيما يلى نورد ملخص الروايات فى بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة .

جمال الخلق :

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ — وهى تصفه لزوجها ، حين مر بخيمتها مهاجرا — : ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثُجْلَة ، ولم تزر به صعلة ، وسيم قسيم ، فى عينيه دَعَج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، وفى عنقه سطع ، أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فضل ، لا نزر ، ولاهذر ، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن ، ربعة ، لاتقحمه عين من قصر ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنظر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود ، محشود ، لاعابس ولامفند[1] .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٤ . **الثجلة** : ضخامة البطن . **الصعلة** : صغر الرأس . **وسيم قسيم** : حسن جميل . **الدعج** : سواد العين . **وفى أشفاره وطف** : فى شعر أجفانه طول . **صحل** : بحة وخشونة . **سطع** : طول . =

وقال على بن أبى طالب – وهو ينعت رسول الله ﷺ – : لم يكن بالطويل المُمَّغط ، ولا القصير المتردد ، وكان ربْعة من القوم ، ولم يكن بالجَعْد القَطِطِ ، ولا بالسَّبِط ، وكان جَعْدَا رَجِلا ، ولم يكن بالمُطَهَّم ولا بالمُكَلْثَم ، وكان فى الوجه تدْوير ، وكان أبيضُ مشربا ، أدْعَجَ العينين ، أهْدَب الأشْفَار ، جَلِيلَ المُشَاشِ والكَتَد ، دقيق المسربة ، أجرد ، شَثْنَ الكفين والقدمين ، إذا مشى تَقَلَّع كأنما يمشى فى صَبَب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، ﷺ(١) .

وفى رواية عنه : أنه كان ضخم الرأس ، ضخم الكراديس ، طويل المسربة ، إذا مشى تكفأ تكفيا كأنما ينحط من صبب(٢) .

وقال جابر بن سمرة : كان ضليع الفم ، أشكل العين ، مَنْهُوس العقبين(٣) .

أزج : الحاجب الرقيق فى الطول . لا نزر ولا هذر : أى وسط لا قليل ولا كثير . محفود : الذى يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون فى طاعته . المحشود : الذى يجتمع إليه الناس . ولا مفندا : لا يفند أحدا أى يبحته ويستقل عقله مل جميل المعاشرة حسن الصحبة ، صاحبه كريم عليه .

(١) ابن هشام ١ / ٤٠١ ، ٤٠٢ ، وجامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٣ ، والمُمَّغط : المتناهى فى الطول . الجعد : ملتوى ومنقبض الشعر . القطط : شديد الجعودة . السبط : المسترسل . المطهم : منتفخ الوجه وقيل الفاحش السمن ، وقيل النحيف الجسم . المكلثم : هو اجتماع لحم الوجه بلا جهومة . أهدب الأشفار : طويل شعر الأجفان . جليل المشاش : أى عظيم رؤوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين . الكتد : مجتمع الكتفين وهو الكاهل . أجرد : هو الذى ليس على بدنه شعر . المسربة : الشعر الدقيق الذى هو كأنه قضيب من الصدر إلى السرة . الشثن : الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين . البديهة : المفاجأة .

(٢) نفس المصدر الأخير . الكراديس : رؤوس العظام وقيل هى ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين والمنكبين أراد أنه ضخم الأعضاء .

(٣) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٨ ضليع الفم : عظيم الفم . أشكل العين : طويل شق العين . منهوس العقب : قليل اللحم .

وقال أبو الطفيل : كان أبيض ، مليح الوجه ، مقصدا[1] .

وقال أنس بن مالك : كان بسط الكفين . وقال : كان أزهر اللون ، ليس بأبيض أمهق ، ولا آدم ، قبض وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء[2] .

وقال : إنما كان شىء — أى من الشيب — فى صدغيه . وفى رواية : وفى الرأس نَبْذ[3] .

وقال أبو جحيفة : رأيت بياضا تحت شفته السفلى : العَنْفَقه[4]

وقال عبد الله بن بسر : كان فى عنفقته شعرات بيض[5] .

وقال البراء : كان مربوعا بعيد مابين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيته فى حلة حمراء ، لم أر شيئا قط أحسن منه[6] .

وكان يسدل شعره أولا لحبه موافقة أهل الكتاب ، ثم فرق رأسه بعد[7] .

قال البراء : كان أحسن الناس وجها ، وأحسنهم خلقا[8] .

وسئل : أكان وجه النبى ﷺ مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر . وفى رواية : كان وجهه مستديرا[9] .

---

(١) نفس المصدر ، مقصداً : هو الذى ليس جسيم ولا نحيف ولا طويل ولا قصير ..
(٢) صحيح البخاري ١ / ٥٠٢ . أزهر اللون : أبيض مشرب حمرة . الأبيض الأمهق : شديد البياض كلون الجص . الآدم : الأسمر والمعنى : ليس بأسمر ولا بأبيض كريه البياض بل أبيض بياضا نيرا مشربا .
(٣) نفس المصدر ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ . والنبذ . بضم النون وفتح الباء أو بفتح النون وتسكين الباء ومعناها : شعرات متفرقة .
(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٠١ ، ٥٠٢ . (٥) نفس المصدر ١ / ٥٠٢ .
(٦) نفس المصدر .
(٧) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ .
(٨) نفس المصدر ١ / ٥٠٢ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٨ .
(٩) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ .

وقالت الربيع بنت معوذ : لو رأيته رأيت الشمس طالعة (١) .

وقال جابر بن سمرة : رأيته فى ليلة إضحيان ، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر — وعليه حلة حمراء — فإذا هو أحسن عندى من القمر (٢) .

وقال أبو هريرة : مارأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ ، كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تطوى له ، وإنا لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث (٣) .

وقال كعب بن مالك : كان إذا سر استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر (٤) .

وعرق مرة وهو عند عائشة ، فجعلت تبرك أسارير وجهه ، فتمثلت له بقول أبى كبير الهذلى :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل (٣) .

وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام (٦) .

وكان عمر ينشد قول زهير فى هرم بن سنان :

لو كنت من شىء سوى البشر كنت المضىء ليلة البدر

ثم يقول كذلك كان رسول الله ﷺ (٧) .

(١) رواه الدارمى .... مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٧ .
(٢) رواه الترمذى فى الشمائل ص ٢ ، والدارمى ... مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ .
(٣) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٦ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ .
(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ .
(٥) رحمة للعالمين ٢ / ١٧٢ .
(٦ ، ٧) خلاصة السير ص ٢٠ .

وكان إذا غضب احمر وجهه ، حتى كأنما فقىء فى وجنتيه حب الرمان [1] .

وقال جابر بن سمرة : كان فى ساقيه حُمُوشة ، وكان لايضحك إلا تبسما ،وكنت إذا نظرت إليه قلت : أكحل العينين ، وليس بأكحل [2] .

قال ابن العباس : كان أفلج الثنيتين ، إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه [3] .

وأما عنقه فكأنه جيدُ دُمْيَة فى صفاء الفضة ، وكان فى أشفاره غطف ، وفى لحيته كثافة ، وكان واسع الجبين ، أزج الحواجب فى غير قرن بينهما ، أقنى العرنين ، سهل الخدين ، من لبته إلى سرته شعر يجرى كالقضيب ، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر الذراعين والمنكبين ، سواء البطن والصدر ، مسيح الصدر عريضه ، طويل الزند ، رحب الراحة ، سَبْط القَصَب ، خُمْصَانِ الأَخْمَصَين ، سائل الأطراف ، إذا زال زال قلعا ، يخطو تكفيا ويمشى هونا [4] .

وقال أنس : مامسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبى ﷺ ، ولاشممت ريحا قط أو عرفا قط ، وفى رواية : ماشممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا ، أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ [5] .

وقال أبو جحيفة : أخذت بيده ، فوضعتها على وجهى ، فإذا هى أبرد من

---

(١) مشكاة المصابيح ١ / ٢٢ ، ورواه الترمذى فى أبواب القدر : باب ماجاء فى التشديد فى الخوض فى القدر ٢ / ٣٥ .

(٢) جامع الترمذي مع شرحه تحف الأحوذى ٤ / ٣٠٦ . **والحموشة** : أى دقة ولطافة متناسبة لسائر أعضائه .

(٣) رواه الدارمى ... مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨ . **والأفلج** : الذى بين أسنانه تباعد . **والثنايا** : أسنان مقدمة الفم .

(٤) خلاصة السير ص ١٩ ، ٢٠ . **الجيد** : العنق . **الدمية** : الصورة المصورة . **الأقنى** : الذى ارتفع أعلى أنفه واحدودب وسطه وضاق منخراه . **والعرنين** : الأنف وما صلب منه . **سبط القصب** : الممتد الذى ليس فيه تعقد ولا نتوء ، والقَصَب يريد بها ساعديه وساقيه . **الأَخْمَصُ من القدم** : الموضع الذى لا يلصق بالأرض منها عند الوطء ، **والخمصان** : المبالغ منه أى أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافى عن الأرض .

(٥) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ ، صحيح مسلم ٢ / ٢٥٧ .

الثلج ، وأطيب رائحة من المسك[١] .

وقال جابر بن سمرة ــ وكان صبيا ــ : مسح خدى فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من جونة عطار[٢] .

وقال أنس : كأن عرقه اللؤلؤ . وقالت أم سليم : هو من أطيب الطيب[٣] .

وقال جابر : لم يسلك طريقا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرفه ، أو قال : من ريح عرقه[٤] .

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة ، يشبه جسده ، وكان عند ناغض كتفه اليسرى ، جمعا عليه خيلان كأمثال الثآليل[١] .

كمال النفس ومكارم الأخلاق :

كان النبى ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، وكان من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لايجهل ، سلاسة طبع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى .

وكان الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ، صفات أدبه الله بها ، وكل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، ولكنه ﷺ لم يزد مع

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢ .

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٦ . **جونة عطار** : التى يعد فيه الطيب ويحرز .

(٣) نفس المصدر .

(٤) رواه الدارمى ... مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٧ .

(٥) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ ، ٢٦٠ . **والثآليل** : هو هذه الحبة التى تظهر فى الجلد كالحمصة فما دونها .

كثرة الأذى إلا صبرا ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما ، قالت عائشة : ماخير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها(١) ، وكان أبعد الناس غضبا ، وأسرعهم رضا .

وكان من صفة الجود والكرم على مالا يقادر قدره ، كان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، قال ابن عباس : كان النبى ﷺ أجود الناس ، وأجود مايكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة(٢) . وقال جابر . ماسئل شيئا قط فقال : لا(٣) .

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذى لايجهل ، كان أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ، وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة ، وهو ثابت لايبرح ، ومقبل لايدبر ، ولا يتزحزح ، وماشجاع إلا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواه ، قال على : كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه(٤) . قال أنس : فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قِبَل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا ، وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبى طلحة عرى ، فى عنقه السيف ، وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا(٥) .

وكان أشد الناس حياء وإغضاء ، قال أبو سعيد الخدرى : كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وإذا كره شيئا عرف فى وجهه(٦) ، وكان لايثبت نظره فى

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ .
(٢) نفس المصدر ١ / ٥٠٢ .
(٣) نفس المصدر ١ / ٥٠٢ .
(٤) انظر الشفاء للقاضى عياض ١ / ٨٩ ومثل ذلك روى أصحاب الصحاح والسنن .
(٥) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٢ ، وصحيح البخارى ١ / ٤٠٧ .
(٦) صحيح البخارى ١ / ٥٠٤ .

وجه أحد ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، لايشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس ، وكان لايسمى رجلا بلغ عنه شيء يكرهه ، بل يقول . مابال أقوام يصنعون كذا . وكان أحق الناس بقول الفرزدق :

يغضى حياء ويغضى من مهابته   فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أعدل الناس ، وأعفهم ، وأصدقهم لهجة ، وأعظمهم أمانة ، اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه ، وكان يسمى قبل نبوته الأمين ، ويتحاكم إليه فى الجاهلية قبل الإسلام ، روى الترمذى عن على أن أبا جهل قال له : إنا لانكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ فإنهم لايكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1] . (٦ : ٣٣) وسأل هرقل أبا سفيان ، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال : لا .

وكان أشد الناس تواضعا ، وأبعدهم عن الكبر ، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك ، وكان يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس فى أصحابه كأحدهم ، قالت عائشة : كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم فى بيته ، وكان بشرا من البشر يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه[2] .

وكان أوفى الناس بالعهود ، وأوصلهم للرحم ، وأعظم شفقة ورأفة ورحمة بالناس ، أحسن الناس عشرة وأدبا ، وأبسط الناس خلقا ، أبعد الناس من سوء الأخلاق ، لم يكن فاحشا ، ولا متفحشا ، ولا لعانا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولايجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، وكان لايدع أحدا يمشى خلفه ، وكان لايترفع على عبيده وإمائه فى مأكل ولا ملبس ، ويخدم من خدمه ، ولم يقل لخادمه

---

(١) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢١ .
(٢) نفس المصدر ٢ / ٥٢٠ .

أف قط ، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم ، ويشهد جنائزهم ، ولا يحقر فقيرا لفقره . كان فى بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل : على ذبحها وقال آخر : على سلخها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال ﷺ : وعلى جمع الحطب ، فقالوا : نحن نكفيك . فقال : قد علمت أنكم تكفونى ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه ، وقام وجمع الحطب(١) .

ولنترك هند بن أبى هالة يصف لنا رسول الله ﷺ ؛ قال هند فيما قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه — لا بأطراف فمه — ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلا لافضول فيه ولاتقصير ، دمثا ليس بالجافى ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لايذم شيئا ، ولم يكن يذم ذواقا — مايطعم — ولايمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، لايغضب لنفسه ولاينتصر لها — سماحة — وإذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولايفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويصوبه ، ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر ، غير مختلف ، لايغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لايقصر على الحق ، ولا يجاوزه إلى غيره .. الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

---

(١) خلاصة السير ص ٢٢ .

كان لايجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولايوطن الأماكن ــ لايميز لنفسه مكانا ــ إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه ؛ حتى لايحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجته صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لاترفع فيه الأصوات ، ولاتؤبن فيه الحرم ــ لاتخشى فلتاته ــ يتعاطفون بالتقوى ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب .

كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولافحاش ، ولاعتاب ، ولامداح ، يتغافل عما لايشتهى ، ولايقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لايعنيه ، وترك الناس من ثلاث : لايذم أحدا ، ولايعيره ، ولايطلب عورته ، ولايتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لايتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق ، ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه ، ولايطلب الثناء إلا من مكافىء[1] .

وقال خارجة بن زيد : كان النبى ﷺ أوقر الناس فى مجلسه ، لايكاد يخرج شيئا من أطرافه ، وكان كثير السكوت ، لايتكلم فى غير حاجة ، يعرض عمن تكلم من غير جميل ، كان ضحكه تبسما ، وكلامه فصلا ، لافضول ولاتقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، توقيرا له واقتداء به[2] .

---

(١) انظر الشفا للقاضى عياض ١ / ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، وانظر أيضا شمائل الترمذى .

(٢) نفس المصدر ١ / ١٠٧ .

وعلى الجملة فقد كان النبي ﷺ محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، حتى خاطبه مثنيا عليه فقال : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (٦٨ : ٤) وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس ، وحببه إلى القلوب ، وصيره قائدا تهوى إليه الأفئدة ، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء ، حتى دخلوا في دين الله أفواجا .

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته ، أما حقيقة ماكان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يدرك كنهه ، ولا يسبر غوره ، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال ، استضاء بنور ربه ، حتى صار خلقه القرآن ؟

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

صفي الرحمن المباركفوري

١٣ / ١١ / ١٣٩٦ هـ

٦ / ١١ / ١٩٧٦ م

الفهــرس

كلمة المؤلف ١٣
موقع العرب وأقوامها .... ١٥ - ٢٤
الحكم والإمارات في العرب ... ٢٥ - ٣٨
صور من المجتمع العربي الجاهلي . ٤٨ - ٥٣
نسب النبي ﷺ وأسرته ..... ٥٤ - ٦١
المولد والأربعون عاماً قبل النبوة .. ٦٢ - ٧٤
في ظلال النبوة والرسالة ..... ٧٥ - ٨٢
المرحلة الأولى (جهاد الدعوة) ... ٨٧ - ٩٠
المرحلة الثانية (الدعوة جهاراً) ... ٩١ - ١٢٧
المقاطعة العامة ....١٢٨ - ١٣٢
عالم الحزن ....١٣٦ - ١٣٩
المرحلة الثالثة (دعوة الإسلام
خارج مكة) ....١٤٨ - ١٥٢
بيعة العقبة الأولى ....١٦٩ - ١٧٣
بيعة العقبة الثانية ....١٧٤ - ١٨٣
طلائع الهجرة ١٨٤
في دار الندوة (برلمان قريش) ...١٨٧ - ١٩٠
الحياة في المدينة ....٢٠٦ - ٢٢٤
الكفاح الدامي ....٢٢٧ - ٢٣٨
غزوة بدر الكبرى ....٢٣٩ - ٢٧٢
النشاط العسكري بين بدر وأحد .٢٧٣ - ٢٨٩
غزوة أحـد ....٢٩٠ - ٣٤٠
السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب٣٤١ - ٣٥٤
غزوة الأحزاب ٣٥٥
غزوة بني قريظة ٣٧١
النشاط العسكري بعد هذه الغزوة :٣٧٨ - ٣٨٤
غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع٣٨٥ - ٣٩٤
وقعة الحديبية ....٣٩٨ - ٤١١
المرحلة الثانية (طور جديد) ٤١٢
النشاط العسكري بعد صلح الحديبية ٤٢٨ - ٤٤٩
غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد ٤٢٨
غزوة خيبر ووادي القرى ٤٣٠
سرية أبان بن سعيد ٤٤٨
بقية السرايا والغزوات في
السنة السابعة .... ٤٥٠ - ٤٦٧
غزوة ذات الرقاع ٤٥٠
عمرة القضاء ٤٥٥
معركة موتة ٤٥٩
سرية ذات السلاسل ٤٦٦
سرية أبي قتادة إلى خضرة ٤٦٧
غزوة فتح مكة .... ٤٦٨ - ٤٨٨
السرايا والبعوث ٤٨٦
المرحلة الثالثة ٤٨٩
غزوة حنين .... ٤٩٠ - ٤٩٥
غزوة الطائف .... ٤٩٦ - ٥٠٢
البعوث والسرايا بعد الرجوع من
غزوة الفتح .... ٥٠٣ - ٥٠٧
غزوة تبـوك .... ٥٠٨ - ٥١٩
حج أبي بكر رضي الله عنه ٥٢١
نظرة على الغزوات ٥٢٢
الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ٥٢٥
الوفـود ٥٢٦
آخر البعوث ٥٤٧
إلى الرفيق الأعلى ٥٤٨
البيت النبوي ٥٥٨